أرواحٌ ثَكلى
في كوكبٍ مريض

أرواحٌ ثكلى في كوكب مريض (يوميات)
عبدالرزّاق الربيعي (شاعر وكاتب عماني)
الطبعة العربية الأولى 2022
© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

المدير العام: د. باسم الزعبي

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

لوحة الغلاف: Edvard Munch

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: **(2021/4135)**

ISBN: 978- 99969- 868- 6- 4

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: **(2021/12/6839)**

عبدالرزّاق الربيعي

أرواحٌ ثَكلى في كوكبٍ مريض

مقاطع عرضيّة من ذاكرةِ الوباء

الجمعية العُمانية للكتّاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI

سيدي الملك يقول لي: لماذا لا تشخّص طبيعة مرضي هذا ولا تصنع علاجه؟

.... هذا المرهم، ليضعه الملك، هذه الحمّى ستزول..

«رسائل إلى ملوك آشوريين- كتاب (حقيقة السومريين)».

د. نائل حنّون

يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه على عشرة أجزاء، تسعة منها في اعتزال الناس، والعاشرة في الصمت.

علي بن أبي طالب

في بعض الأحيان، على الشاعر أن يكون مؤرّخا لعصره، وليس شرطا أن يكون التاريخ انتقاء، وبلورة، بل يجب أن يكون وعرا معفّرا موحلا، ويتضمّن البصمات البائسة للأيّام التي تكرّ، وتحمل ضيق، وحسرات الإنسان.

بابلو نيرودا

أنت موجود على الأرض، ولا يوجد علاج لذلك.

صموئيل بيكيت

في الطرقات الخالية، حرب، وموتى، ولا جيوش، ولا قنابل!

عدنان الصائغ

مقدمة

الحوادث تتكرر والإنسان ينسى

عبدالرزّاق الربيعي

قبل البدء بوضع هذا الكتاب، تساءلت مع نفسي: كيف لي أن أضع كتابا عن وحشٍ كاسرٍ، لم يزل يعيش بيننا؟ وهل يمكن لكتاب كهذا أن يجد قبولا لدى القرّاء؟

إنّه أمر ينطوي على تحدّيات كثيرة، فالجوّ العام في ظلّ الجائحة، صار أكثر قتامة، فكيف تكون ردّة فعل القرّاء نحو كتاب يروي سيرة من نغّص عليهم حياتهم؟

لذا، فكّرت بأكثر من طريقة وطريقة لقبول التحدّي، وجعل النتيجة لصالح الكتاب، لكن الشيء الوحيد الذي لم أتراجع عنه هو الكتابة عن الوباء، وعلاقة الإنسان بالأوبئة، عبر التاريخ، من خلال رصدي لتداعيات فيروس (كورونا)، وانعكاساته على حياتنا، كأفراد، ومجتمعات، وذلك لأنّني اعتدت، منذ سنوات بعيدة، تدوين الأحداث المفصليّة في حياتي، للاستفادة من التجارب التي أمرّ بها، ليقيني أنّ الحوادث تتكرّر، والإنسان ينسى، ولهذا يقع في الأخطاء نفسها دون أن يقدر على تجاوزها. ومنذ الأيّام الأولى لتفشّي فيروس (كورونا)، وقبل إعلان منظّمة الصحّة

العالميّة في يوم 11 مارس 2020 تصنيفه جائحة عالمية، ووصوله إلى مسقط، أواخر فبراير 2020، بدأتُ تدوين كلّ معلومة جديدة، وتفصيل يتعلّق به، دون تخطيط مسبق، لجمعها في كتاب، فالأفكار مثل البيوض بعضها تحمل أجنّة ومشاريع حيوات جديدة، وهناك بيوض فاسدة، ولكنني كنت أدرك أن العالم يمرّ بحدث كوني، مفصلي، في التاريخ، ستكون له تداعياته وانعكاساته على أنشطة الحياة بشكل عام.

وعندما تضاربت المعلومات، وكثرت الأخبار، وتنوّعت مصادرها، وبين هذا، وذاك، وعلى مدى حوالي عامين، كنت أراقب، وأتابع، راصدا التطوّرات، وأقوم بفحصها، وتأمّلها، وفتح مغالق الذاكرة، ومراجعة صفحات التاريخ الذي أؤمن بأنّه يكرّر نفسه بأشكال مختلفة كما قيل، ضمن حلقات متداخلة، وما (كورونا) سوى حلقة في سلسلة طويلة، بدأت منذ وُجِد الإنسان على الأرض، فحيّرته تلك الظواهر، وحاول تفسيرها من خلال أساطير، منها أسطورة (صندوق باندورا)، التي وردتْ في الأساطير اليونانيّة، عندما حمل صندوقها الرزايا، والأوبئة، وكان عقابا من (زيوس) للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس النار، فجمّع تلك الشرور ووضعها في صندوق، حين فتحتْه بدافع الفضول، خرجت منه: الأحقاد، والأمراض، والمكر والخداع، وانتشرت في عموم الأرض، وها هي محتويات (صندوق باندورا) تملأ عالمنا الذي تحوّل إلى مسرح لها، وفريسة سائغة، وغابة. يقول علماء هندسة الجينات: «إن الجينات الوراثية التي كانت تتحكم بتصرّفات إنسان العصر الحجري لم تمت، ويمكن أن

تنشط من جديد». وعلى سبيل المثال يـرون أن سبب خوفنـا الفطـري مـن الأفاعي، رغم عـدم وجـود تجربـة سـابقة معهـا يعـود لسبب جينـي، لأنّهـا كانـت تهـاجم أجـدادنا في الكهـوف، ويتوصّـلون لنتيجـة مخيفـة هـي أن «الحضارة غلّفت مخالب الوحوش بقفّازات حريرية»!

فإذا تجاوزنا التفسير الأسـطوري لتلـك الظـواهر، وجـدنا أن النصـوص المسـمارية التـي تعـود لحضـارة وادي الرافـدين، تحـدّثت عـن الأوبئـة، والأمراض، والأدوية، والإجراءات التـي تتخـذ لمواجهـة الأوبئـة، وخـلال فحصه للنصـوص المكتوبـة باللغـة الأكديّة وجد عـالم اللغـات القديمـة، والآثار د. نائل حنّون ذكـرا واضـحا لحـالات الحجـر الصـحي، لمواجهـة الأمراض الجلدية المعديّة خصوصـا، وشـملت نصوصًـا طبّيّـة في وصـف الأمراض، وطريقة علاجها، إلى جانـب نصـوص مختصّـة بصـنع الأدويـة، واستعمالاتها، ويتّضـح، مـن ذلـك، حـرص القـدماء على توثيقهـا كتابيّـا، بالوسـائل التـي كانـت متاحـة يومئذٍ، أي: على الألـواح، والـرقم الطينيّـة، وتوجد رسومات لأطبّاء يعودون المرضى، ومعهم ألـواح، إلـى جانـب مـا يحملونـه مـن مـراهم، وأدوات تسـاعدهم في عمليّـة تشـخيص المـرض، وعلاجه. وقد قرأت الكثيـر مـن التفاصـيل المتعلّقـة بـالوحش الـذي يهـدّد حياة الإنسان، ويغلق عليه نوافـذ الأمـل، العنصـر الأخيـر الـذي خـرج مـن صندوق باندورا، بحسب الأسطورة، والبعض يراه زائفا، لكونه خـرج مـن هذا الصندوق المشؤوم، لكن إدغار آلان بو لـه وجهـة نظر بـذلك، فيقـول «الأمل الزائف أفضل من عدم وجود أمل علـى الإطـلاق»، ذلـك أنّ الأمـل

هو الضوء الذي يلمع آخر النفق المظلم، وبه تتعلّق أنظارنا، والطغرائي يقول في لاميّة العجم «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»، رغم كلّ العتمة المحيطة، تظلّ عيوننا معلّقة بخيط الأمل:

هناك في مقاعد الأمل
دعوة لأن تمضي بعكّاز
ليس لخطوتك رنين
معتم وأنت تحسّ شمس الظهيرة
يقفز ظلّك من جرح إلى آخر
خال من أحذية المعارك

هدى أبلان

ولأنّ مالرو يوصي في روايته (الأمل) «أفضل مايفعله الإنسان أن يحيل أوسع تجربة ممكنة إلى وعي»، وجدت نفسي غارقا في تلك التفاصيل، والقراءات، وقمت بتدوين تلك التفاصيل، وبعد مرور شهور عديدة تشكّلت لديّ نواة مادة الكتاب، عمادها مقالاتي التي نشرتها في صحيفة (عُمان)، وملاحظاتي، ونصوصي الشعريّة، والمسرحيّة التي كتبتها خلال الجائحة، ورسائل، وإحصائيات، وحين بدأت الاشتغال، على الكتاب وضعت نصب عيني مقولة بابلو نيرودا «في بعض الأحيان، على الشاعر أن يكون مؤرّخا لعصره»، لتكون منطلقا لعملي، باعتبارنا شهود عصرٍ في كوكب يمرّ بحدث كونيّ، استثنائي، ولا بدّ أن نخرج منه بدروس، وعِبَر، وهو أمر لازمني طويلا. وضمن هذا التوجّه وضعت، قبل سنوات، كتابي

«مدن تئنّ، وذكريات تغرق» الصادر عن دار الانتشار العربي ببيروت، 2008، الذي دوّنت فيه انطباعاتي، ومعايشي لـ(إعصار جونو) الذي ضرب السلطنة في 6 يونيو 2007، وكتاب «14 ساعة في مطار بغداد» الذي سجّلت به مشاهداتي لبغداد بعد فراق دام 16 سنة متواصلة، وصدر عام 2012 بطبعتين في القاهرة، والمنامة، أمّا كتابي «يوميّات الحنين» الصادر عن النادي الثقافي بمسقط 2012، فقد ضمّ الكثير من الذكريات المحفورة على جدار الوجدان، وشغاف القلب، وكذا الحال مع كتبي الأخرى، ومن بينها «خطى.. وأمكنة»، و«غرب المتوسط»، و«خطوط الذاكرة دوائر المكان».

ولأنّ الحالة الوبائيّة لم تنته بعد، أمضيت وقتا طويلا في المراجعة والتعديل، مستهديا بمقولة القاضي الفاضل البيساني التي ذكرها أبوالفرج الأصفهاني في واحد من كتبه «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومِهِ إلا قال في غَدِه: لو كان غيرُ هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يُستحَسن ولو قدّم هذا لكان أجمل ولو تُرِك هذا لكان أفضل. وهذا من أعظم العبر، ودليلُ استيلاءِ النقص على جملة البشر».

وقد وفّرت لي العزلة الإجباريّة التي فُرِضتْ علينا جميعا، وقتا كافيا لقراءة هذه اللوحة التراجيديّة التي لم تكن تخلو من إشراقات، حاولت تقصّيها في دفّتي كتاب أردت له أن يكون مفتوحا على الأجناس، قائما على التداعيات الحرّة للمشاعر، والعواطف، فجاء خليطا من يوميّات، ومقاطع شعريّة، ومقولات، وتداعيات، ورسائل، وحكايات، ومشاهد

بصريّة، ضمن إطار سردي يتداخل في نسيجه الحاضر والماضي، في قالب تعبيري يروي تجربة فرد في كوكب يعيش به 7.8 مليار نسمة، وجد نفسه بمواجهة وباء شرس، فدوّن تأمّلاته، وهواجسه، وقلقه، وحسراته، وتجلّياته.

وفي الختام، أعيد سؤالي الذي طرحته على نفسي بصيغة جديدة، وأطرحه على القرّاء: هل يمكن لكتاب عن وحشٍ كاسرٍ، لم يزل يعيش بيننا، أن يجعلكم تستمرّون في قراءته إلى الصفحة الأخيرة؟

هذا ما حاولته، فإن كانت الإجابة بـ:نعم، فلي أجران، وإن كانت:لا، فلي أجر الذي حاول، ولم يفلح، والله وليّ التوفيق.

في بؤبؤ العاصفة

حان الوقت لكي أدرّب نفسي على الفراق.

غونترغراس

في الأسابيع الأولى من تفشّي الوباء، سُئل خبير الأوبئة الأمريكي أنتوني فاوتشي، ومدير معهد الدراسات للأمراض الوبائية في أمريكا عن الوضع الذي يعيشه الجميع في ظلّ تفشّي (كورونا) فأجاب: «إننا في عين العاصفة»، جملة قصيرة شرحت الوضع المأساوي الذي يمرّ به العالم، من خلال تعبير مجازي يعني دخول منطقة الخطر، معبّرا عن حزنه، علما بأنّه كما ورد في الخبر «تعامل مع فيروس الأيدز، فنجح، وكذلك مع فيروس (السارس)، ولكن لم يمر عليه طيلة حياته العلمية في معهد الوبائيات الذي أمضى به (36) سنة ما يشهده من صفات مرضية بفيروس كورونا»، وهذا يكشف مدى خطورة الفيروس الذي حيّر العلماء، فهل هو من صنع البشر، كما ردّد الذين يؤمنون بنظريّة المؤامرة، ولن أنسى ما قالته لي ابنة أختي غفران، حين كلّمتها للاطمئنان، بعد إصابتها: «تأكّدت من شيء؟» سألتها: ما هو؟ أجابت بثقة: «هذا الفيروس من صنع البشر»!، لم آخذ كلامها بجدّيّة بالطبع، واعتبرته من تأثير الحمّى، ومع ذلك سألتها: كيف؟ فأجابت: «لأنّه ذكي، ومراوغ!». عدتُ أسألها: أوضحي أكثر، فأجابت: «يخدع المصاب، في البداية يبدو كأنّه نزلة برد، ثم يدخل الجسم

ليصيب أضعف عضو، وله أعراض تختلف في كلّ يوم»! اندهشتُ لوصفها، وتساءلت مع نفسي: هل اكتسب (كورونا) الذكاء، والمراوغة من صانعيه افتراضا، ومجازا، بقصد أو بغير قصد؟

جاء في مقدمة كتاب «الأوبئة والتاريخ- المرض والقوّة والامبريالية» لشلدون واتس، وترجمة: أحمد محمود عبد الجواد، الصادر عن المركز القومي للترجمة في القاهرة 2010م:

«لقد شكّل النشاط الاقتصادي للإمبريالية ومؤسساتها الاقتصادية العملاقة فرصة سانحة لانتشار مسبّبات الأمراض، وخلق بيئة وبائية ملائمة لها، وذلك تحت شعار «تنمية المجتمعات التي استعمرتها.. فعن طريق الشركات العملاقة في غرب إفريقيا تمّت إزالة الغابات من أجل إنشاء مساحات واسعة لمحاصيل جديدة، وهو ما أدى إلى تخريب التربة الزراعية لهذه المناطق»، وبذلك أصبح الطب «وسيلة رئيسة لنقل الأفكار الإمبريالية، وتطبيقاتها. وفي هذا السياق، فإن الأفكار والمؤسسات الطبيّة، ومنها بطبيعة الحال المؤسسات التي أنشأها الغرب بغرض مقاومة الأمراض الوبائية ما هي إلّا علامات على القوّة، والسيطرة بين الحاكمين والمحكومين»، وبذلك صارت الأمراض أداة سيطرة للقوى العظمى على الشعوب التي جلّ أحلامها العيش في عالم آمن، وقد اعتبر الباحث الأنثروبولوجي يوفال نوح هراري في كتابه (العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري)، المنشور عام 2011م أن شرورا كبيرة نجمت عن الرأسمالية بالنسبة للدول الفقيرة، لأنها استهلكت مواردها من أجل رفاهية شعوبها، وحتى تطور النظم الاجتماعية جاء بقيود جديدة هي قيود السلطة،

والسوق، مبشرا بظهور جنس جديد ناتج من انتقاء هجين، بفضل إنجازات الطب التي أضافت أطرافا صناعية، وأعادت البصر للمكفوفين، وغيرهما، ويكون هذا الجنس يجمع بين الطبيعي، والصناعي، وسيكون مخيفا!!

والسؤال الجديد هو: هل يندرج الوباء ضمن عذاب الاستئصال الذي يسلّط على الأمم التي تكثر فيها المفاسد؟ أم هو لعنة؟ تشبه لعنة طائر (القطرس) التي تحدّثت عنها قصيدة «أغنية الملاح القديم» للشاعر الإنكليزي كولَرِج من خلال حكاية البحار العجوز الذي لمح طائر (القطرس) البحري، وهو يلاحق السفينة، وكانت تبحر على مقربة من القطب المتجمّد، واعتبر البحّارة الطائر فألا حسنا، لأنّه يعني ابتعادهم عن متاهة القطب، لكنّ البحّار العجوز سوّلت له نفسه قتل الطائر، فحلّت اللعنة على السفينة، وبحّارتها، الذين ماتوا واحدا تلو الآخر، وظلّ الندم يعصر قلب البحّار العجوز لكونه اعتدى على الطبيعة دون سبب، وجاء الردّ عنيفا.

وفي تغريدة له نشرها بحسابه، كتب الباحث علي المعشني استنادا إلى معلومات طبّيّة: «في علم الفيروسات، لا يوجد فيروس يقاوم حرارة الصيف، ولا يوجد فيروس يهاجم أربعة أجهزة في جسم الإنسان دفعة واحدة باستثناء فيروس كورونا»، وهذا ما أكّدته الأرقام، ويكفي أنّ حوالي أربعة ملايين، ونصف المليون إنسان فقدوا أرواحهم، مع تطوّر الحالة، والانتشار السريع للجائحة، حتى الربع الأخير من عام 2021 عند انتهائي من وضع الكتاب. وإذا كان رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون قال مخاطبا البريطانيين في الأسابيع الأولى من تفشّي الفيروس: «استعدّوا لفراق الأحبّاء»، فأعداد الأحبّة

الذين فقدناهم فاقت التصوّر! ناهيك عن الأضرار الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي لا تعدّ، ولا تحصى!

سألت أحد المختصين لماذا كشفت كورونا عيوب الأجساد؟ فقال: لأنّ أيّ فيروس يدخل الجسم يستهدف المناطق الضعيفة التي تعاني من التهابات، ومشاكل، إلى جانب ذلك يبدو أنّ (كورونا) كشف عن الكثير من العيوب الاجتماعية في حياتنا، ومنها العيوب الثقافية.

إنّ عدم تعاطي الناس، والمؤسّسات معه بجدّيّة، فاقم الأزمة، فالكثيرون ظلّوا يكرّرون أنّه ليس سوى «لعبة»! وفي ذلك يقول المفكر، نعوم تشومسكي في لقاء نشرته اندبندت: «إنّ العالم كان بطيئا في التعامل مع الوباء، بالرغم من وجود معلومات كافية منذ ديسمبر 2019 قدّمتها الصين لمنظمة الصحة العالمية عن وجود وباء فتّاك يصعب احتواؤه سريع الانتشار، ويعزى ذلك إلى الخوف من الخسائر المادية والاقتصادية التي يمكن أن يسبّبها العزل الاجتماعي على المنظومة الاقتصادية، ومن جانب آخر، فإن شركات الأدوية العالمية تدرك تماما، ومنذ تفشّي مرض (سارس)، أنّ هناك تطوّرا جينيّا سيحدث، وستنتج عنه أوبئة أكثر فتكا، إلّا أنّها آثرت أن تعمل على تطوير المنتجات التجميلية على حساب الصحة العامة، وإنتاج اللقاحات، لأنّها أكثر ربحا»!!

وقبل دخولنا في التفاصيل لا بدّ من أن نبدأ من نقطة قبل هبوب العاصفة على أجسادنا المتهالكة الجدران، بفعل الزمن، وتكالب الأمراض، ووحشة الطريق!

قلق، وترقّب، وحذر

ما الذي ننتظر
ونحن محتشدون في الساحة العامّة؟
وصول البرابرة.

كافافي

كنّا في تونس، مشاركين بمهرجان ابن رشيق الدولي لمسرح الأطفال في 14 ديسمبر 2019، عندما نقلت لنا الأخبار تفشّي الفيروس في ووهان الصينية التي يخترقها نهر اليانغتسي أطول أنهار الصين، وثالث أطول نهر في العالم، الذي رأى الشاعر الصيني «لي باي» عند وداع صديقه الحميم الشاعر «منغ هاو ران» أنّه يسيل من السماء فقال:

ابتعد مركبُه الشراعي
حتى اختفى، ببطء، في نهاية الأفق
ولمْ يُرَ إلاّ نهرُ اليانغتسي
يسيلُ من السّماء.

استرجعت، يومها، زيارتي لعاصمة مقاطعة هوبي المدينة المزدحمة بالسكان والمحلّات في مايو 2009، وصعودي مع أخي د. عدنان (برج طائر الكركي الأصفر) راويا لي أسطورة بناء البرج التي تقول إنّ شابا

يدعى (شن) افتتح حانة، وذات يوم مرّ كاهن طاوي فقير كما يبدو من هيئته التي أثارت إزدراء رواد الحانة فطلب نبيذا، فما كان من (شن) الا أن قدم له النبيذ بدون مقابل وقام بخدمته، وكجزء من ردّ ذلك الجميل رسم الكاهن طائر كركي أصفر على الحائط، ولم يكن طائرا عاديا، فقد كان يرقص حين يصفّق الناس له، فدهشوا بتلك الأعجوبة، وأخذوا يتوافدون على الحانة، وخلال فترة وجيزة أصبح (شن) غنيّا بعد عشر سنوات، زار الكاهن الطاوي الحانة ثانية، وامتطى ذلك الطائر ليحلق به إلى السماءِ!

ومع سماع أخبار الوباء، أحسست أن طائر «ووهان» حلّق إلى السماء، على جناح طائر الكركي الأصفر، وأذكر أنّني بعد تلك الزيارة كتبت «عصاري ووهان» النصّ الذي بدأته بسؤال، وأنهيته بسؤال، وبين سؤال البداية، والنهاية يقف صفّ علامات استفهام:

ما الذي تخبئ لي
هذه العصرية الـ«ووهانية»
من مباهج
وأنا أفرش سمعي
وبصري
في زوايا جنّةٍ أرضيّة صغيرة
معلّقا أوراقي
وروحي القصيرة
على صفٍّ طويلٍ من علامات الاستفهام؟

مصير غامض كان يحيط بالمدينة كما تنقل الأخبار، وفي غمرة انشغالي بمشاركتنا بتونس، كان شعوري لا يتجاوز الأسى، وهو شبيه بشعور من يسمع خبر مرض، أو رحيل شخص تعرّف عليه في محطّة من محطّات الحياة، ومضى كلّ لحال سبيله، ولم يخامرني أيّ شعور بالقلق، ولِمَ القلق؟ وبيننا والصين بحار، ومسافات، وبلدان؟

تذكّرت تفاصيل الحياة اليومية التي دوّنتها في ذلك النص:

ما الذي يجعل تلك الفتاةَ المستقيمةَ

كرمحٍ أبيض

مليئةً بالمَرَحِ

وهي تمشي خلف كلبيها المدلّلينِ

الّلذينِ

يحبّ أحدهما الآخر

مثلما تكنُّ تلك الشجرة

لأختها الحميمة

ما ادّخرتْ من عطر؟

ما الذي يسعد تلك الصغيرةَ

العائدةَ من المدرسة

مسندةً على ظهرها

حقيبة أحلامها

المليئة بالأناشيد الكونفوشوسية

وفي قفص يدها

ظلٌّ أبيض

لأرنبٍ خجول؟

يـا تـرى، هـل بقـي الظـلّ الأبـيض في يـد تلـك الصـغيرة العائـدة مـن المدرسة؟ أم تلاشى صريعا، تحت قبضة الوباء؟

خفافيش الصين تملأ الفراغ

احرص اليوم على أن تملأ كأسين اثنين
لأنك في الغد قد تجد الكأس، لكنك لن تجد النديم.

الشاعر الصيني وانج وي

مع تناقل أخبار انتشار الوباء القادمة من الصين، سرعان ما ألقى الكثيرون اللوم على العادات الغذائية المعروفة في الصين، التي تلخّصها المقولة القديمة «إنّ أيّ شيء يمشي، أو يسبح، أو يزحف، أويطير، وظهره إلى السماء، فهو صالح للأكل»، وقرأت تقريرا يتحدّث عن مفهوم «دجنبو» في الثقافة الشعبية الصينية الذي يشير إلى ملء الفراغ. وفقًا لهذا المفهوم، فالأمراض تصيب جسم الإنسان عندما ينضب من الدم، والطاقة بالمفهوم الروحي، وليس الدم والطاقة كما هما معروفان في علم الأحياء. المؤمنون بهذا المفهوم يعتقدون أن الجزء الذي يتم تناوله من جسم الحيوان يقوّي، أو يعالج ما يشبهه في جسم الإنسان، أي أن أعضاء جسم الإنسان، ووظائفها تتقوّى من أكل الحيوانات التي تشبهها»، استرجعت الرائحة المقزّزة التي أزكمت أنفي عند زيارتي شارع «وانغ فو جينغ» أشهر الشوارع التجارية ببكين، المخصّص للمشي، والمحاط بالمباني ذات التاريخ العريق، ويحتوي محلّات بيع الملابس، والمعارض، ودور العرض السينمائي، ويستقبل حوالي 600 ومليون زائر يوميا أثناء ذروة

العطلة، وفي جانب من الشارع تنتشر أكشاك للأكلات السريعة، وينبعث منها الدخان وروائح كريهة تزكم الأنوف، وحين يقترب الزائر من تلك الأكشاك يشاهد الأفاعي، والعقارب، والصراصير المشويّة المعلّقة، ولا شكّ أنه سيضع يده على أنفه، مكتفيا بالتقاط أكثر من صورة تذكاريّة، ليغادر المكان مبتعدا، كما حصل معي، بينما كان الصينيون يأكلونها بتلذّذ!

جئتُ إلى بلاد السكاكين

لستُ سكّينا

أنا مجرّد جرح

الطيور تعيش في المدينة

فيما الإنسان يُصرّ على عدم العيش في الغابة

(رين هانغ – شاعر صيني مات منتحرا سنة 2017)

وعودة إلى صندوق باندورا، تقول الأسطورة اليونانية إن (باندورا) بمجرّد فتحها الصندوق: «طارت مخلوقات أشبه بالسحالي ذات أجنحة مثل الخفافيش، وعيون تطلق شررا، مرفرفة بأجنحتها »، صورة مفزعة، لمخلوقات غريبة تشبه الخفافيش، ولأنّ الصندوق كان يحتوي على الأمراض، والشرور، والأوبئة، كما ذكرنا، ربّما ظلّت صورة الخفافيش تقترن بكلّ ما هو مخيف في الذاكرة الجمعيّة، وترسّبت فيها، فهاهي الشاعرة ريم قيس كبّة تستدعي صورة الخفافيش، كمعادل موضوعي لشعورها بالألم، والكوابيس التي تقضّ مضجعها، وتقلق نومها «خفافيش سود تطير تحت سقف رأسي.. أهشّ عليها بذراعيّ الاثنتين أنْ ارحلي عني.. أصرخ بها كُفّي.. لكنها لا تلبث تتربص

حتى بنومي وتلكز إغفاءة جفنيّ بأجنحتها السود لتربك ليلي.. وأنا لا أعلم من أين تأتي وإلامَ ستمكث فيّ..».

لكنّ العلاقة بين الوباء، والخفافيش ظلّت مجرّد تكهنات، وكانت جزءا من حرب إعلامية بين قوى عظمى متصارعة!

وقام جنود هذه الحرب باستدعاء رواية «عيون الظلام» للكاتب الأمريكي دين كونتز المنشورة عام 1981 م، وهي من الخيال العلمي، باعتبار أنّ إشارة وردت فيها لفيروس قاتل حمل اسم (ووهان 400) ظهر كسلاح بايولوجي صنعه الإنسان يقتل بمهاجمة الدماغ، ويقوم بتدمير خلاياه، لكن النسخة القديمة من الرواية التي ظهرت باسم كاتبها بعد أن كان يستخدم اسما مستعارا، خلت من هذا الاسم، ولم يظهر إلا في طبعة1989فحلّ اسم (ووهان 400) محل اسم(جوركي400)، «لأسباب يمكن تفسيرها بطريقة سياسية بشكل يتماشى مع صعود المخاوف الأمريكية من التهديد الصيني الآتي من شرق آسيا»، «كما جاء بتقرير لعمران عبدالله، نشره موقع (الجزيرة). وفي نهاية المطاف، كسبت الصين الحرب عندما انتصرت على الوباء بسرعة قياسيّة، وحدّت من انتشاره بعد أن حظرت حكومتها التجوال، وأغلقت المطارات، وتوقفت حركة السيارات، والتزم الصينيون، بتلك الإجراءات، وواصل 200 مليون طالب الدراسة، عن بعد، فنجحت في إدارة الأزمة، حتى عبرتها قبل غيرها من الدول العظمى!

الشمع الأحمر يطال المساجد

هذا مثال على المآثر العجيبة والقوة الإلهية لأنه لم يحدث من قبل بمثل هذا الانتشار والاستمرار، الله وحده يعلم متى سوف ينتهي هذا المرض..

ابن الخطمية، طبيب أندلسي

متحدّثا عن الطاعون سنة 1349 م

حين عدنا لمسقط، لم نجد شيئا يخصّ الفيروس، رغم معرفتنا بوجود إصابات في إيران، وبكلّ اطمئنان توجّهت للفجيرة بدعوة من مهرجان الفجيرة للفنون، للمشاركة في لجنة تحكيم المسرح بجائزة راشد الشرقي، وكان الأمر طبيعيّا، لكنّ صديقي المخرج جبار المشهداني الذي التقيته في الفجيرة، أخبرني أنّه عند عودته لأربيل حيث يقيم، وجد حالة الاستنفار على قدم وساق في المطار، قلت له: ربّما لأنّ الفيروس دخل العراق عن طريق إيران، وهذه إجراءات احترازية واجبة. وبقي الوضع هادئا، فبعد أربعة أيّام من عودتي لمسقط، وحضور بعض فعاليات معرض مسقط الدولي للكتاب، توجّهت للإمارات ثانية بدعوة من دائرة الثقافة بحكومة الشارقة في 28 (فبراير) 2020، وقبل ذلك سمعت عن ظهور حالات قليلة لأجانب، مع ذلك لم أخذ الأمر بجدّيّة، وعند دخولنا قصر

الشارقة لحضور حفل افتتاح «أيّام الشارقة المسرحية»، شاهدنا في البوابة جهازا للفحص، وآخر لقياس درجة الحرارة، فعرفنا أن هذه الإجراءات للكشف عن المصابين بفيروس كورونا المستجدّ، وهو أمر لم نعهده من قبل! عدا ذلك كلّ شيء كان طبيعيا، ولا وجود للمعقّمات ولا الكمّامات. وفي اليوم التالي، وكان يوم جمعة، تسلّل صوت خطيب الجمعة في المسجد المجاور للفندق ودخل غرفتي، فإذا بالخطيب ينصح الناس بالصلاة في البيت، وتجنّب المساجد من باب الحدّ من انتشار الفيروس!! كان وقع تلك النصيحة صادما بالنسبة لي، فمنذ طفولتي لم تطرق سمعي نصيحة كهذه تأتي من أعلى المنبر، فقد اعتدت سماع فقرة تقريع المصلين الذين يتهاونون في أداء الفرائض في البيوت، والتفريط بصلاة الجماعة وثوابها!

إذن ستخلو المساجد من المصلّين، وهذا ماحصل، وبعد شهور صرنا نرى صورا لأحكام صدرت بحقّ مخالفين، وفي حقل الجرم قرأنا (صلاة تراويح)!

تذكّرت نصّا لي عنوانه «صلاة الوحشة»، وكأنني يوم كتابته تخيّلت ما سيكون:

حين مضيتُ إلى المسجدِ
لم تبصر عيناي
بباحتهِ إلّاي
ليس هناك سواي

قلتُ لقلبي:
اخلع نعليك، فلبّى
ادخلْ
فدخلتُ
وجدتُ المسجدَ
مكتظًّا بالحشدْ
وما من يتعبّدُ
فيه عداي

قلت: ما دام الأمر هكذا، فنحن في انتظار حدث جلل غير مسبوق، نزلت للمطعم لتناول الغداء وجدت زميلتنا د. سافرة ناجي برفقة د. سعد عزيز عبدالصاحب ود. صميم حسب الله يحيى، والثلاثة قدموا من بغداد للمشاركة في المهرجان، وكانت حزينة، سألتها عن سبب حزنها، أجابت أنّ خالها العائد من زيارة العتبات المقدّسة في إيران ثبتت إصابته بـ(كورونا)، وشكّل الخبر صدمة لنا جميعا!! وبقينا نتابع معها أخباره حتى نهاية المهرجان. وفي حفل الختام شاهدت راعي المناسبة يقف على المسرح لتكريم الفائزين بجوائز المهرجان، وفي أعلى السلّم كان يقف شاب يحمل معقّما يغسل به من يصعد خشبة المسرح يديه قبل أن يصافح راعي المناسبة، وتلك كانت المرّة الأولى التي أشاهد ذلك. وفي مطار دبي، حين عدت برفقة الصديق الإعلامي عامر الأنصاري، اتّضحت الصورة أكثر، وقبل هبوط الطائرة تسلّمنا استمارات من وزارة الصحة

لغرض ملئها، وعند الوصول، كانت المفارز الطبية في انتظارنا لإجراء الفحص، والتأكّد من عدم إصابتنا بالفيروس!

ومع ذلك لم يتملّكنا الخوف، بل ضايقتنا الإجراءات الإضافيّة التي لم نعتد عليها!

ولم يخطر ببالنا أن هذا الفيروس سيطوي الأرض طيّا بسرعة البرق، ناشرا الذعر في الكوكب الذي ظلّ يترنّح لشهور عديدة تحت ضرباته الموجعة.

فيروس الهلع والفزع

أنا أنجلو دي تورا دفنتُ أطفالي الخمسة بيدي، وكان هناك أولئك الفقراء الذين غُطوا بالتراب ونبشت جثثهم الكلاب وأخذت تلوكها في المدينة، ولم يكن هناك أي أحد يبكي على أيّ ميّت حيث توقّع كلّ واحد أن يموت..

أنجلو دي تورا

عن وفيات الطاعون في سينا 1348 م

لا أدري أين قرأت حكاية رمزيّة ذات معنى لابن سينا، تشير إلى خطورة الخوف حين يحلّ في مكان، تقول الحكاية «إنّ وباء ما، كان ذاهبا إلى إحدى المدن، فشاهده رجل وسأله: إلى أين أنت ذاهب أيها الوباء؟ فردّ الوباء قائلا: «أمرت أن أذهب إلى هذه المدينة لأقتل ألفا من أهلها»، وعندما خرج الوباء من المدينة، شاهده الرجل، فقال له: «ما أقساك! لقد قتلت عشرين ألفا من أهل المدينة »، فردّ الوباء بقوله: «أنا قتلت ألفا فقط، أما الباقي، فقد قتلهم الوهم، والخوف»!

لقد استحضرت هذه الحكاية، ونحن ندخل مرحلة القلق، عندما صرنا نحذرُ كلّ من يعطس أمامنا، وكلّ من يعاني من الرشح، فسرعان ما نظنّ

أنّه مصاب بـ(كورونا)، وقد حدث أمامي أنّ صديقا كان بصحبة زوجته في محل لشراء أغذية، فعطس، فساد الهرج والمرج، وكأنّ قنبلة انفجرت في المحلّ الذي كان مزدحما بالزبائن، رغم أنّها كانت عطسة عاديّة من النوع المألوف، الذي نقول لصاحبه: «أثابكم الله»، لكنّ الأفواه جمدت هذه المرّة، والعيون اتّسعت حتى كادت أن تخرج من محاجرها، تذكّرت عطسة الموظف (ايفان ديمتريتش كريبكوف) بطل قصة تشيخوف «موت موظف» الذي أجلسه حظه السيئ خلف الجنرال (شبريتسالوف) في المسرح فتطاير رذاذ العطسة، وسقط على صلعة الجنرال، ورغم أن «العطاس ليس ممنوعا على أي أحد، وفي كل مكان. الفلاحون يعطسون، ورؤساء الشرطة يعطسون، وأحيانا حتى الموظفون من الدرجة الثالثة يعطسون. كل إنسان يعطس»، كما جاء في القصّة، لكننا في زمن مختلف، فعطسة صديقي لم تمر بسلام! فقد توتّرت الأجواء، وشعرت زوجته بالحرج، وتوسّلت له بالسيطرة على نفسه وعدم تكرارها، فقد حامت حوله الشكوك، من يضمن أنّه ليس مصابا؟ من يدري؟ تذكّرت حكاية الحطّاب الذي أضاع فأسه، فاشتبَه بابن جاره وشرع بمراقبته، فكان يشعر أنّ مشيته، مشية نموذجية لسارق فأس، والكلام الذي ينطق به، مثل كلام سارق فأس، وتصرفاته تفضحه، وكأنه سارق فأس، فبات ليلته ساهرًا حزينًا أضناه التفكير، وفي اليوم التالي بينما كان يقلّب التراب عَثر على الفأس، وعندما نظر إلى ابن جاره في اليوم التالي من جديد لم يظهر له شيء.. لا في مشيته، ولا في هيأته، ولا في سلوكه، يوحي بأنه سارق

الفأس، كما ورد في الحكاية التي تدلّ على أن الشكوك عندما تعظم تحجب العقل، فيتوهم صاحبها أنها حقائق ملموسة!

كلّ ذلك جرى بعد أن تفشّى بالتزامن مع (كورونا) في مناطق عدّة من العالم فيروس من نوع آخر مدمّر للأعصاب والمزاج، ولا نبالغ إذا قلنا إنّه لا يقلّ خطورة عن كورونا، مع وجود فارق واحد هو أنّ هذا الفيروس لا يدخل المختبرات، ولا يخضع للفحص المجهري، ولا ينتمي للفيروسات التي يتحدّث عنها الأطباء، لأنّه من جنس آخر، وينتمي إلى فصيلة أخرى، ومن ميزاته أنّه يضعف المناعة، ويعكّر المزاج، ويقضي على الشهيّة للطعام، وممارسة أنشطة الحياة المتنوّعة!! مع أنّه لا يهاجم الأجسام، بل يتخصّص في مهاجمة العقول، والنفوس!!

هذا الفيروس من صنع وسائل التواصل الاجتماعي البارعة في التهويل وبثّ الخوف والرعب في النفوس، ولذلك يمكن تسميته «فيروس الهلع والفزع»!!

وقد وجد هذا الفيروس في الإمكانات التي توفّرها تلك المنصّات، وقنوات الإعلام الجديد بيئة خصبة لينمو، ويكبر، وينتشر بسرعة، ويحرث في مناطق بعيدة عن العلم والمعرفة والتطوّر العلمي الذي بلغته البشرية في القرن الحادي والعشرين، فهناك من يروّج أنّ «كورونا» غضب إلهي، رابطا بينه وبين تعرّض منطقة الخليج لهجمات جيوش الجراد، مستحضرا الآية الكريمة ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**﴾

(133-الأعـراف)، ومَـنْ تفـتّح وعيـه في سـتينيات القـرن الماضـي مثلنـا، يتذكّر موجات الأمراض والأوبئة التي مرّت بنا وانتهت رغم أنّ الطب لـم يقطع الأشواط التي قطعها في يومنا هذا مـن تطـوّر، فكانـت يومهـا تشـكّل خطـورة علـى حيـاة البشـر، كالسـل الرئـوي، والبلهارسـيا، والتيفوئيـد، والكوليرا، والجدري، ومع ذلك كانت المفارز الطبية تنتشر في المدارس، وتزور البيوت لتعطي التطعيم المناسب ضدّها، وتقدّم الإرشادات، وتقوم بعزل المصابين بعد الكشف عليهم، وإعطائهم العلاج اللازم، ولو أعطينا الأزمة حجمها الطبيعي سنكون بمواجهة فيروس واحد لا فيروسين!

لا تصافح

عـابرا شـوارع مقفـرة لا أحـد يصـافح أحـدا.. وحـدهما يـداك ظلّتـا عـالقتين بأصابعي إلى الأبد.

عدنان الصائغ

كانت مرحلة الترقّب صعبة، مشوبة بالخوف، ولم يطل الانتظار، فيوما بعد آخر بدأنا نسمع أخبار وصول الجائحة إلى مسقط، وتسجيل عدد من الإصابات، وقبل توجّهي للنادي الثقافي لحضور حفل تدشين كتاب «عمان من السماء» للكاتب أحمد بن سويدان البلوشي، كنت محرجا بشأن مصافحة الأشخاص الذين سألتقي بهم في المناسبة، وبعضهم لم أره منذ زمن بعيد، لكنّ عبارة وضعها منظّمو الفعالية بباب النادي الثقافي على حامل خشبيّ، تقول: «الرجاء عدم المصافحة» كواحد من الإجراءات الصحّيّة المطلوب اتّباعها للحدّ من انتشار فيروس (كورونا) حسمت الأمر، وقضت على شعوري بالحرج، وجعلتني أدخل القاعة بلا تردّد، وألقي تحية واضعا يدي اليمنى على صدري بدلا من المصافحة، مكتفيا بالسلام الشفوي، كما فعل سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة الذي وجّه «بضرورة ترك بعض الأمور التي قد تتسبّب

بالعـدوى، كالمصـافحة التـي تعـد إلـى وقـت قريـب قبـل تفشـي فيـروس (كورونا) علامة من علامة المودّة، لكنها صارت تحمل شرّا وبيلا، لكونها توفّر جسرا لانتقال العـدوى مـن المصـاب إلـى السـليم، وهـو مـا التـزم بـه سماحته، وهناك من لجأ إلـى التحيـة الهنديـة المعروفـة بـ«ناماسـتي» التي تتضمّن ضـمّ اليـدين بحيـث تكـون الأصـابع للأعلـى مـع جعـل الإبهـامين يلامسان الصدر مصحوبة بانحناءة خفيفـة، كمـا فعـل الأميـر تشـارلز وهـو يحضر حفل توزيع جوائز لندن بمؤتمر الكومنولـث متجنّبـا مصـافحة مـن يودّ القاء التحية عليـه، ليوجّـه رسـالة مجتمعيـة القصـد منهـا عـدم تلامـس الأكف، وكذلك الرئيس الفرنسي مكرون أثنـاء اسـتقباله في قصـر الإليزيـه ملك وملكة اسبانيا التي تلقت قبلة هوائية من سيدة فرنسا الأولى، وهو ما جعل النجمة الهندية بيريانكا تشوبرا تحـثّ متابعيها عـبر حسـابها بـ(تويتر) على الاكتفاء بالتحية الهندية التقليدية في ظلّ الظـروف الحرجـة التـي يمـر بها العالم بعد تفشّـي الفيـروس القاتـل، وهـو مـا نصـح بـه ناريـندرا مـودي رئـيس وزراء الهنـد. وفي 8 مـارس2020 انتشـرت صـورة لمعـالي وزيـر الصـحة د. أحمـد بـن محمـد السـعيدي، وهـو يصـافح الـدكتور أحمـد المنظـري المـدير الإقليمـي لمنظمـة الصـحة العالميـة لشـرق المتوسـط بالكوع.

ويوما بعد آخر، انتشرت ثقافة عدم المصافحة، وصارت المصافحات، من العادات البالية، وحلّ محلّها الاكتفاء بوضع اليد على الصدر، أو ضـمّ اليدين معا مصحوبة بانحناءة تايلانديّة خفيفة، خصوصا بعد أن بدأ الكلام

عن أن فيروس (كورونا) يأخذ منحى خطيرا، وواضح أن هذا الفيروس جلب معه الكثير من العادات التي سيتركها حين يغادر عالمنا غير مأسوف عليه! ومنها التخفف من التقبيل، وتبادل الأحضان، وما إلى ذلك من إشارات إظهار المودّة التي لا مبرّر لها، وتصل أحيانا لدرجة المبالغة!!

فلقد تمّ إعفاء الكثيرين من هذه العادة التي أصبحت واجبا، وليس فعلا عفويّا كما يفترض!

وإذا كان الشاعر أمل دنقل قال في قصيدته الشهيرة «لا تصالح»، التي يختتمها بهذا المقطع:

لا تصالح
إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة
النجوم لميقاتها
والطيور لأصواتها
والرمال لذرّاتها
والقتيل لطفلته الناظرة.

فالإجراءات الاحترازيّة تقول: «لا تصافح».

قبل انهيار الذاكرة

وقت الإغلاق أشتاق إليك.

ليندا هيبين

في خضمّ تلك الدوّامة، تلقّيت اتصالا من صديقي الدكتور أحمد الدوسري، الذي جمعني به حبّ شعر أمل دنقل عندما كان يواصل دراسته بجامعة بغداد لنيل درجة الماجستير ببغداد منتصف الثمانينيات، واختار تجربة «أمل دنقل» لرسالته. والدوسري من الدائرة القريبة والمعمّرة من الأصدقاء، قال صديقي المقيم في الكويت في اتصاله، إنه في المملكة العربية السعودية لأداء العمرة، وانقطعت به السبل، فخط طيران السعودية – الكويت توقّف بسبب الجائحة، وليس أمامه سوى أن يختار بين رحلة إلى عمّان، أو مسقط، وسيمكث في أيّ منهما ما لايقل عن 12 ساعة، قلت له: اختر طريق مسقط لنكسب صحبتك ساعات، فرحّب بالفكرة، وبعد ثلاث ساعات دقّ جرس البيت فتعانقنا رغم التحذيرات، وأمضينا ليلة جميلة استذكرنا فيها رواية «الطاعون» لألبير كامو الصادرة سنة 1947، وما أحدث انتشاره من خوف في المدينة، وقبلها رواية «دفتر أحوال أعوام الطاعون» للإنجليزي دانييل ديفو الصادرة في عام 1722م، وأرّخ فيها للطاعون الذي أصاب لندن عام1665، وحين بلغنا رواية ماركيز الشهيرة «الحبّ في زمن الكوليرا ذكّرني الدوسري بروايته «قبو الكوليرا» الصادرة عام 2010 التي تحدّث بها عن وباء الكوليرا

حين يداهم مجموعة من الأشخاص المسجونين في قبو مظلم بعالم يصادر إرادة الإنسان وحريّته، وعن رواية جديدة كتبها قبل شهور عنوانها «الوباء»، تتحدّث عن رجل يفقد ذاكرته، وحين يذهب للمستشفى بعد أن اشتبه بأمره شرطي يجد الكثير من الأشخاص فقدوا ذاكرتهم، وشعر الجميع بوجود وباء يستهدف الذاكرة. طلبت منه أن أقرأها، ففتح (اللاب توب)، وقرأت: *«دخلا بوابة المستشفى التي كانت تعجّ بالناس من كلّ الأعمار. عند حاجز الاستقبال احتار الشرطي كيف يشرح المرض لموظّفة الاستقبال التي كانت تكتب ملاحظات بيد وتمسك بسماعة الهاتف باليد الأخرى، بينما توقّف الرجل المفترض أنه سعيد على مبعدة ثلاثة أمتار وهو يراقب بعينين بلون الدهشة. لكنه أخيرًا قال:*

اسمعي أختي العزيزة، أنا من مركز شرطة غرناطة. لديّ حالة خاصّة جدّا. هذا الرجل يبدو أنه قد فقدَ ذاكرته وقد لجأ إلينا في المركز، لكن ليس من اختصاصنا تمريض فقدان الذاكرة. لذا قرّرنا أن نحضره إليكم، فهو من اختصاصكم.

وضعت المرأة السماعة من يدها وأنصتت بانتباه. لم يبدُ على المرأة أنها فُوجئت. استغرب الشرطي. وما زاد من استغرابه أنها ابتسمت ابتسامة غريبة، وعندما رأت الاستغراب في وجهه قالت له وهي تضع يدها اليمنى على جبينها متذمرة:

أخي العزيز. هذا الرجل هو الحالة العاشرة منذ هذا الصباح!

كيف؟ الحالة العاشرة! هل تمزحين؟

بالطبع لا أمزح.

نظر الشرطي إلى الخلف حيث يقف الرجل المفترض أن اسمه سعيد، ثم أخفض صوته وهو يضيف:

ماذا يعني هذا؟

الله وحده أعلم يا عزيزي الشرطي».

ثمّ سرعان ما ينتشر الخبر في المدينة، كانت الصحافة المحلّية تتحدّث عن كارثة وطنية حقيقية. وكتبت بـ(مانشيتاتها) على صدر صفحاتها الأولى:

حالات فقدان ذاكرة مجهولة الأسباب.

الحكومة تتكتّم على الأسباب الحقيقية.

وزير الصحّة: بضع حالات بسيطة لا تعني وجود وباء.

وزير الداخلية: هناك من يستغل الموقف ويصطاد في الماء العكر لكننا له بالمرصاد!

لكن صحيفة من هذه الصحف على الأقلّ ناقضت ما يقوله وزير الصحّة الذي اتهمته بحجب المعلومات عن الرأي العام، وذكرت بأنها زارت أحد المستشفيات وأحصت ما لا يقل عن مائة حالة. وزير الداخلية هدّد أصحاب المواقع الإخبارية بالسجن في حال تماديهم ببثّ الإشاعات في الوطن، شعر سعيد بأنه حالة ضمن وباء ينتشر في الوطن بعد أن شاهد العشرات يدخلون المستشفى. ولم يدر لماذا شعر حقّا بأنه مميّز. ربّما لأنّه من أوائل الحالات التي أصيبت بهذا الوباء في البلاد منذ صباح أمس. وربّما لأن الشرطي أطلق عليه اسم سعيد، وهو في أول يوم فقدان ذاكرة، وبذلك فقد أصبح له اسم على الأقلّ يمكن أن يقدّم نفسه به للناس».

توقّفتُ عن القراءة، قلت للدوسري: هذا يكفي، سأحتفظ بملف الرواية، فوافقني الرأي، كنت بحاجة للخروج من الحالة التي كنّا نعيشها، حاولت اشغاله بمحتويات مكتبتي ضاربا بعرض الحائط نصيحة رولان بارت «على المرء أن يخفي عن الآخرين صيدلية بيته ومكتبته»، وحين رأيته غرق في لجّة العناوين، قلت له: ماذا ستقول لو رأيت محتويات صيدليتي؟ فضحك، قلت له: بل أنا جاد، هذه أدويتي، وأشرت للكتب، سألته: ألا تأكل شيئا؟ قال: لا، أكلت في الطائرة، دعنا من الأكل، أما سمعت قول المعرّي:

صدف الطبيب عن الطعام وقال مأكله يضر

كلْ يا طبيب ولا خلاص من الردى فلمن تغرّ؟

وقعت عينه على رواية صديقنا المشترك الراحل حسن مطلك «دابادا»، قلت له: قال حسن «الهاوية في كلّ مكان»، فردّد قول بأول تسيلان:

نكّسي رايتك

أيّتها الذكريات

مازال هناك نجم يشعّ

لا شيء ضاع.. لا شيء ضاع

ووجدنا أنفسنا نراوح بين مستقبل يترصّده الوباء، وماضٍ لايخلو من ألم، لأنّ استرجاع الماضي عمل ممتع ينشّط الذاكرة، لكنه يترك مرارة في الروح. يقول المفكّر الروماني إميل سيوران (أبريل 1911 - 20يونيو1995): «على الإنسان أن لا ينبش في الذاكرة إذا أراد أن يكون سعيدا»، ومع ذلك أكملنا الليل نسترجع ذكرياتنا في بغداد، وسنوات الدراسة، والصحافة، والشعر، وأمل دنقل، وبكاءه بين يدي زرقاء اليمامة:

أيتها العرّافة المقدّسة

جئت إليك مثخنا بالطعنات والدماء

أزحف في معاطف القتلى

وفوق الجثث المكدّسة

وحين تشعّب الحديث ليصل إلى فيلم «حرب العوالم» لستيفن سبيلبرغ المأخوذ عن رواية الكاتب هـ. ج. ويلز، وبطولة: توم كروز، ومرغان فريمان، الذي يتحدّث عن كائنات دقيقة تغزو عالمنا وتسعى في تدميره، بينما يفشل الإنسان في مواجهتها، شعرت أننا عدنا إلى الوباء، وشعور الإنسان بالضعف أمام جبروت الطبيعة، وذهبت صيحات جان جاك روسو التي أطلقها في القرن التاسع عشر هباء، وهو الذي كان يدعو لجعل الطبيعة مثالا لبني البشر، فكلّ شيء في الطبيعة «تناسب وتكامل، وكلّ شيء في دنيا البشر اضطراب وفوضى، عناصر الطبيعة في تعاضد دائم وبنو آدم في تناحر مستمر»!

استأذنت الدوسري، لأنام قليلا، بينما ظلّت أجواء روايته «قبو الكوليرا» تطاردني، فنمت بصعوبة، وفي الصباح الباكر، توجّهت للمكتب، بينما توجّه للمطار، وكان الدوسري آخر من التقيت من أصدقائي البعيدين جغرافيا.

بعد أيام قليلة من ذلك دخلنا مرحلة الحجر الصحي، وتمّ الإعلان عن إغلاق العديد من الأنشطة، ومن بينها المدارس، والجامعات، والمؤسسات الحكومية، والخاصّة باستثناء التي تقدّم الخدمات الصحية، والشرطة، وبعض محلّات بيع المواد الغذائية، وتمّ فرض الحجر المنزلي.

معطّلون كسفينة مرسومة على سطح بحر

في البيت أجلس، لا سعيدا لا حزينا
بين بين
ولا أبالي إن علمت بأنني
حقا أنا... أو لا أحد.

محمود درويش

سرعان ما صدرت توجيهات بإيقاف الدوام في المدارس، والاكتفاء بالدراسة «عن بعد»، وألغي إلزام الموظّفين ببصمة الدخول والخروج في مؤسسات الدولة ودوائرها، كجزء من الإجراءات الاحترازية، ثم جرى تخفيض عدد الموظفين في المكاتب إلى نسبة 50٪ ثم إلى 30٪، ثمّ صدر قرار تطبيق الحجر المنزلي الذي شمل جميع الأماكن العامّة، والمحلّات التجارية، والمكاتب، وصار العمل (عن بُعد)، باستثناء بعض المرافق الخدمية، والمستشفيات، ومراكز الشرطة.

في قصيدة «أغنية الملاح القديم» للشاعر الإنكليزي (كولَرِج) التي كتبها عام 1798، يقول:

يومًا بعد يوم، يومًا بعد يوم
حُشرنا، لا أنفاس ولا حركة

مُعطّلين كسفينة مرسومة

على سطح بحر مرسوم.

ماءٌ، ماءٌ حيث ننظر

وجوانب السفينة تنكمش

ماءٌ، ماءٌ حيث ننظر

وما من قطرة صالحة للشرب

ولم يكن أمامنا من سبيل سوى استدعاء أصدقاء وهميين!

قالت لي الكاتبة بشرى خلفان في اتصال هاتفي: لحسن الحظ، نحن الكتّاب معنا عفاريت نتحاور معها خلال ساعات الوحشة! قلت لها: معك عفاريتك، ومعي شياطيني، ومن هنا تشكّل عنوان مجموعتي الأخيرة «شياطين طفل الستّين» التي صدرت عن الجمعيّة العمانيّة للكتّاب والأدباء، وظاهرة الصديق الوهمي لا تقتصر على الأطفال، بل حتى الكبار، ويصف علماء النفس الصديق الوهمي بأنّه ظاهرة نفسية واجتماعية، يشكّل الواقع فيها طرفا، والطرف الثاني من صنع الخيال، وهي لاتدعو للقلق، بل تساعد الأطفال على تنشيط الخيال، وتطوير اللغة كما تؤكد الأخصائية في علم النفس ساندرا سبانيولي، وتعبّد الطريق ليكون الطفل مبدعا يتمتّع بمخيلة خصبة، والصديق الوهمي ضروري لتحقيق أعلى درجة من التوازن النفسي، فالباحثة تشبه طقوس التحدّث معه بالصلاة، ولهذا «تنصح المؤسسات الدينية ورجال الدين أن يلتزم

الأفراد بالصلوات، للشعور بوجود الله داخلهم، فيعيشوا سلامًا داخليًّا ثابتًا».

في روايته (الشطّار) يقول الكاتب محمّد شكري«الإنسان وحيدا قدّيس»، الآخرون هم من يفسدونه، والصديق الوهمي يمتلك مرونة عالية، يتشكّل مثلما نريد، ولا يخالفنا بشيء، لهذا نحبّه، ولا نملّ مجالسته، وعلاوة على ذلك يجعل الخيط الفاصل بين الواقع والوهم يتلاشى، فيتساوى الحضور والغياب. تقول الشاعرة السوريّة سميّا صالح:

بغيابك
لا وقت
لأريق دمه على عتبات الانتظار
ارتعش كرسولة
تمسك بتلابيب الأمل
أهزه من عنقه
أصفعه
كي يصحو من غيبوبة
أفقدته رشده
أصرخ...
لاحرف تساقط من حنجرتي
لا دمعة

تحيي عظام اللحظة الهاربة.

في غيابك

كما في حضورك

وفي غمرة استدعائي لصديقي الوهمي، تسّلل الصديق خميس السلطي لعزلتي، قاطعا عليّ خلوتي باتّصال يدعوني به للمشاركة بحملة توعوية تنظّمها جريدة الوطن تندرج ضمن حملة «عمان تواجه كورونا» تدعو الناس للمكوث في البيوت عبر فيديو قصير، أجبت: ذات يوم سألت شاعرا كبيرا: ماذا تفعل لو حصلت أزمة بينك وبين المحيط الخارجي؟ فأجاب: سأغلق الباب على نفسي، وأجلس في البيت، يومها لم تعجبني إجابته، لكنني اليوم أجد من المناسب جدا لنا، ونحن نعيش هذا الظرف العصيب أن نغلق الأبواب على أنفسنا، ونجلس في البيت حتى نتجاوز الأزمة، ويوما بعد آخر صرنا نألف المكوث في البيت، والتكيّف مع الظروف لحفظ الكائنات من الفناء، والإنسان واحد من هذه الكائنات، ويتمكّن من ذلك حين يمتلك إرادة قويّة، فاستغنينا عن الكثير مما ألفناه. سأل جلال الدين الرومي شيخهُ شمس الدين التبريزي: كيف تبرد نار النفس؟ قال: بالاستغناء، استغنِ يا ولدي فمن تَركَ مَلَكْ.

لذا لم أستغرب حديث بسمة الهاشميّة (ضابط سطح ملاحة بحريّة) في جلسة أقامها النادي الثقافي عن بقائها وهي تقود سفينة شحن عملاقة لنقل ملايين الأطنان من النفط الخام والزيوت، ويزيد طولها على 300 متر، وتمضي رحلات لاترى خلالها اليابسة لثلاثة شهور أو أكثر في الظروف

العاديّة، لكنّها أمضت بعد تفشّي (كورونا) ستة شهور كاملة، ولنا أن نتخيّل ذلك، ودّعتها، وفي رأسي بيتان لبهاء الدين زهير:

إذا أصبحت في عسرٍ

فلا تحزنْ له وافرحْ

فبعد العسر يسر عاجل

واقرأ ألم نشرح؟

حتّى الشعور بالملل ليس سيّئا، لأنه «يصنع المعجزات» بحسب سيوران، وذلك «حين نتعلّم كيف نغترف من الفراغ ملء اليدين».

جفاف الزرع ويباس الضرع

كان ثمّة شيء
وفجأة لا شيء
عدمٌ يصيح، يحتفل، يترك فراغا
أبدأ من جديد بأقلّ الأشياء.

نعومي شهاب ناي

يوما بعد آخر، بدأ الشحوب يظهر على وجه الكوكب، فالفيروس أحدث أضرارا في القطاعين الاقتصادي والسياحي، وقد انعكس ذلك على الناس نتيجة التقييد الحركي والقلق النفسي، وتوزّعت أوقاتنا بين متابعة الأخبار، والترقّب، والقراءة، والكتابة، والمشاركة في الجلسات الثقافية عبر المنصّات الافتراضيّة، ومتابعة ما يصدر عن منظمة الصحّة العالميّة، واللجنة العليا المكلّفة ببحث آليّة التعامل مع التطوّرات الناتجة عن انتشار الفيروس، ومؤتمراتها الصحفيّة التي تعقد أسبوعيّا، وازداد ذعرنا من ارتفاع أرقام الإصابات، والوفيات، عبر البيانات اليومية، ومتابعة أخبار المشاهير الذين رحلوا إثر إصابتهم بالفيروس، وبدأت الاعتذارات عن دعوات ومشاركات عربية تصل إليّ بسبب غلق الأنشطة، من بينها اعتذار من مهرجان قرطاج الشعري، إلى جانب مهرجانات

مسرحية كان من المقرر لها أن تقام في المغرب، ولبنان، والكويت، وهذا يعني أن «الحقيبة التي تعبت من السفر» ستستريح مرغمة، ليس بالنسبة لي، وإنما بشكل عام، فقد انخفضت أنشطة السياحة الدولية ما بين 45٪- 70٪ في عام2020 وفقا لتقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، نتيجة للقيود المفروضة على السفر، مثلما تضرّرت معارض الكتب، وقاعات العروض السينمائيّة، والمسارح، وأغلقت دار الأوبرا السلطانيّة أبوابها، فخسرت متعتي الأسبوعيّة المعتادة، مثلما خسرت ممارسة رياضة المشي بعد فرض الحجر المنزلي، وكانت تلك مقدمة لخسارات شخصيّة أخرى لا تعدّ ولا تُحصى.

خطّ الدفاع الأوّل

طلبوا لي طبيب الورى — وطلبت أنا طبيب السماء
طبيبان هذا ليعطي الدواء — وذاك ليجعل فيه الشفاء

الشافعي

منذ بدء تفشّي الجائحة، والأطباء يشكلون خطّ المواجهة الأول، ولذا أطلق عليهم الجيش الأبيض، وقد فقد العالم الكثير من خيرة الأطباء، لكنّ الواجب المهني والإنساني يتطلّب هذه الوقفة، وقد اعتدت متابعة ما تنشره الصحف البريطانية من خلال صفحة الدكتور عامر هشام الصفار، وهو طبيب عراقي مقيم ببريطانيا، ويسمّى الطبيب في اللغة الأكديّة (الآسي)، وهذا دليل على جذرها في اللغة العربية، وقد دأب (الصفّار) يوميّا على نشر مستجدّات الجائحة من خلال متابعته للصحافة البريطانيّة، إلى جانب أخبار نعي أطباء عرب وأجانب فقدوا حياتهم نتيجة إصابتهم بـ(كورونا)، وقد سجّلت مواقف مشرّفة لأطبّاء وممرضات وعاملين بمختلف المهن الطبيّة عرّضوا حياتهم للخطر، من أجل تقديم الخدمات الطبية، وستبقى تلك المواقف ماثلة في الذاكرة. يقول الشاعر الفلسطيني جورج نجيب:

هذي الأنامل كيف أنساها — تحنو بمصبحها وممساها
لما برفق لامست جسدي — زادت بي التنهيد والآها
قالت: رعاك الله يا أملي — فعسى يلبّي الله دعواها

وخلال مطالعتي لصحيفة «التكوين» الإلكترونية في عدد يوم 2 مايو 2020، قرأت تجربة إنسانيّة مؤثّرة لطبيبة عمانية هي د. فاطمة محمد اللواتي، تقول: «الساعة 23:35 التاريخ: عشرةُ أيامٍ بعد اكتشاف أولى حالات الكورونا في السلطنة.. اليوم: الخميس.. دخلتُ إلى غرفة المناوبة التي لا يتجاوز طولها بضعة أمتار بعد يومٍ مضنٍ وطويلٍ جدًا.. كانت إحدى المناوبَات الشاقة على النفس.. تلك المناوبَات التي أصل فيها لمرحلة الجوع، والعطش واللاوقت لإشباعهما.. أمسكتُ بأقرب جدارٍ لأتكئ عليه وأصمد قليلًا، راجيةً من رأسي أن يتوقف عن دورانه.. وأستمرّ بعدها لإكمال المناوبة بسلام.. قلت: الحمدلله هدأ كل شيء.. فتحتُ قائمة الإحالات.. وفجأة: رنّ (بليب المناوبة) وإذا به قسم العناية المركزة، يأتيني الصوت الخافت بنبرةِ تردّد: دكتورة لدينا مريضةٌ في الستين من عمرها، دقّات قلبها متسارعةٌ جدًا، هل لكِ أن تأتي؟ أدخلتُ الهاتف في جيبي، أخذت قنينةَ الماء، لففتُ سمّاعتي حول رقبتي، وخرجتُ، وصلتُ إلى المريضة مباشرةً، علمتُ من الطبيبة التي تُباشرها أنها دخلت اليوم عن طريق الطوارئ.. جاءت بنزيفٍ في الدماغ، ونزولٍ في منسوب الوعي مع نزول في الأوكسجين مما اضطرّهم إلى إدخال أنبوب التنفس الصناعي.. اقتربتُ من المريضة التي كانت غائبةً عن الوعي بسبب أدوية التخدير التي أُعطيت لها.. فحصتها اكلينيكيًا من رأسها إلى أخمص قدميها، وقرأت معدّل المؤشرات الحيوية، وبدأت أفكّر وأستجمع قوايَ الطبية كي أضع في مخيلتي مجموعة التشخيصات

المحتملة للحالة.. بعدها طلبت الأهل لأسمعَ منهم التاريخ المرضيْ. وكأي روتينْ أمسكتُ بجهاز الحاسوب، وبدأت أدوّن نتائج الفحوصات في قصاصتي الورقية، وأقرأ أشعة الصدر التي اجتاحتها تغيّراتٍ أصابت الرئتينْ.. وأنا بين زخمِ شاشة الحاسوب، ووريقتي الصغيرة، أحاول استجماع أفكاري ولملمتها. ابتلعتُ ريقي وأخذتُ جرعةً من الماء وشهقتْ: كوفيد !!نعمْ، كلّ المؤشرات تدلّ على أن لديها التهابًا صدريًّا فيروسيًّا.. وبما أننا في خضمّ هذه الجائحة، فهو أول ما يتبادر للذهن، ويجب أن أفكّر به.. بدأتها بالعلاجات المناسبة بعد أن أخبرتُ الطاقم التمريضي بضرورة نقلها إلى غرفة العزل، وإرسال عيّنة الفيروسات للمختبر».

لم تنته حكاية د. فاطمة عند هذا الحدّ، ففي اليوم الرابع استيقظتْ من النوم على ألمٍ شديدٍ في البلعوم، وبعضٍ من حمى، لذا سارعت لأقرب مركزٍ صحيّ.. وأُخذوا منها العيّنة!! بانتظار النتيجة، وتروي عندما عادت إلى البيت، كيف حاول طفلها الارتماء بأحضانها، لكنّها أبعدته، ومضت إلى غرفتها، بينما بقي الطفل متمسمرا في مكانه، وبقيت حبيسة الغرفة، تسمع بكاء طفلها بحثًا عنها، ثمّ يطرق الباب، ولا سبيل لتحقيق مناه، وبدأت تلوم نفسها، لأنها لم تتخذ الإجراءات اللازمة، ولم ترتد الملابس الواقية عند فحص المريضة، لأنّها لم تتوقع الاشتباه بكوفيد 19، وكانت تخشى أن تكون قد نقلت الفيروس لطفلها الصغير.. وهكذا مرّت الدقائق

والساعات، حتى جاءها الاتصال ليبلغها أن نتيجتها سلبية، فخرجت من غرفتها لتحتضن طفلها، وسط دموع الفرح بالنجاة.

حين انتهيت من قراءة قصّة د. فاطمة اتصلت بالصديق الشاعر عقيل اللواتي، مثنيا على التجربة التي دوّنتها كونها ابنة شقيقته، وقلت له: ربما سأستفيد من التجربة في كتابة نص مسرحي، لكنّ الأفكار ازدحمت لاحقا، وكثرت القصص المؤثّرة، وكما يقول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراش   فلا يدري خراش ما يصيد

ابتسامات خلف كمّامات

أفكّر في التي أحبّ
فجأة... غاب وجهها
خلف كمّامة
صار الفراغ الذي بيننا مرضا.
رونيه شار

ذات يوم، طلبت منّي الكاتبة بشرى خلفان، نشر صورة لي بالكمّامة، في حساباتي بمواقع التواصل الاجتماعي، ضمن حملة توعويّة تدعو لوضع الكمّمات على الوجوه، أجبتها «لكن ليست معي صورة بكمّامة»، فعلّقت وكأنّها تتوقّع ذلك: «لا توجد مشكلة، هناك برنامج يقوم بتعديل الصور عبر الفوتوشوب، يضع الكمّامات على الأوجه، سأبعثه لك»، وبالفعل بعثته، ونشرت صورتي بكمامة، وشيئا، فشيئا، صارت الكمّامات جزءا من اكسسواراتنا، إلى جانب القفّازات التي اختفت بعد مدّة وجيزة، لعدم تحقيقها الفائدة المرجوّة، وتمّ الاكتفاء بالمعقّمات، وتنظيف اليدين بالماء والصابون، وإذا كان الشاعر الفرنسي جاك بريفير يعتبر «الابتسامة دائما جزءا من قناع» فإنّ الابتسامة في زمن (كورونا) اختفت خلف قناع اسمه (الكمّامة)! ولذا، منذ ظهور الفيروس، وتفشّيه في مختلف مناطق

العالم، رصدنا حالة من انخفاض منسوب الابتسامات التي أصبحت في تراجع في الحياة اليومية والشوارع، حتّى بعد أن فتحت مجدّدا ذراعيها للمارّة وعيادات أطبّاءالأسنان، وقاعات المسارح، ودور العرض السينمائي التي أغلقت أبوابها، وأماكن أخرى عديدة، فاختفت ابتسامات مضيفات الرحلات الجوية، وموظفات العلاقات العامة في المطارات، والفنادق، ومحلّات العطور، والزهور، صار وجه العالم بسبب ذلك أكثر تجهّما!!

وحين يتجّهم وجه العالم، نشعر بحصول كارثة، ماذا لو انتقل التجهّم إلى وجه الإنسان؟ وأذكر أنني قرأت خبرا في مجلة قديمة، يقول إن فتاة ولدت فاقدة البصر، وبعد 12 سنة أعيد لعينيها البصر بعد إجراء عدة عمليات، وحين سألوها: ما هو أغرب شيء وقع عليه بصرك؟ أجابت: وجه الإنسان، سئلت لماذا؟ أجابت: كنت أظنّه أكثر ابتهاجا، وأقلّ تجّهما!! هذا، وهي شاهدت وجوه من حولها المبتسمة بمناسبة وبدونها، ماذا ستقول لو شاهدت الوجوه التي من حولنا في عالمنا الثالث التي حفر البؤس والحزن فيها خنادق، ورسمت الأيّام خطوطا عميقة على جوانبها؟!

وهذا لا يعني أننا نعاني على الدوام من شحّ في الابتسامات، فلدينا مناسباتنا السعيدة، وأعيادنا، وأفراحنا، لكن تقلبات الحال بعد الجائحة جعلت أيامنا تعاني من ظاهرة التصحّر في الأفراح، وإذا استمرّت الحال فستنقرض كالديناصورات!! وستضيع علينا صدقات مجّانيّة، ذلك أن

«تبسمك في وجه أخيك المسلم صدقة» كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

وإذا قسّمنا الظاهرة إلى قسمين، سنرى أن النصف الأول من الابتسامات ابتلعته البيوت خلال الحجر المنزلي، أمّا النصف الثاني فقد اختفى خلف الكمّامات، ويوما بعد آخر بدأت السلفيات التي نطالعها في مواقع التواصل الاجتماعي تُظهر وجوها خالية من الابتسامات، قليلة الدسم في ميزان الفرح، منزوعة البهجة، حتّى الأسنان اختفت، ولم تعد عمليات «ابتسامة هوليوود» مجدية! فصارت كاسدة وظلت محجورة في عيادات أطبّاء الأسنان!! ووسط هذه الدوّامة، فقدت الابتسامات مقاييس الطول والعرض، فلم تعد هناك ابتسامة عريضة ملء شاشات التلفزيون والصفحات الأولى من الصحف وأغلفة المجلّات، كما كنا نراها على وجوه نجوم السينما، والرياضة، وحتى السياسة، وهي من النوع الذي يرتسم في جلسات الصلح التي تعقب الصراعات الكبيرة!

كلّ ذلك اختفى، والتبس الأمر علينا، ولم يعد لنصائح الشاعر «إيليا أبو ماضي» أيّ معنى حين قال في قصيدة له:

قالَ: السماءُ كئيبةٌ وتجهما
قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهم في السما
قال: الصبا ولّى فقلت له: ابتسمْ
لن يرجعَ الأسفُ الصبا المتصرّما
قال: التجارة في صراع هائل

مثل المسافر كاد يقتله الــظما
أو غادة مسلولة محــتاجة
لدم، وتنفث كلما لهثت دما
قلت: ابتسم ما أنت جالب دائها
وشفائها، فإذا ابتسمت فربما

فحتّى لـو ابتسـم خلـف الكمامـة، فكيـف سـيعرف الشـاعر أنّ محدّثـه استجاب لصيحات ندائه وابتسم، ما دامت الكمّامة تغطّي مركز التبسّـم في وجهـه؟ وإذا ألقينـا طرفـة خفيفـة، فسـوى تضـييق العينـين، كيـف سـنعرف ردّات الأفعـال؟ طبعـا هنـا نحتـاج للمبالغـة في إطـلاق القهقهـات لإشـعار المقابل بأنها مضـحكة، حتـى لـو مـن بـاب المجاملـة، ولسـنا مـن الأثريـاء الـذين ورد ذكـرهم في المثـل الشـائع الـذي يقـول: «نكـت الأثريـاء دائمـا تضحك» لكي نضمن ذلك؟

وفي لغتنـا العربيّـة الكمّامـة تعنـي القنـاع، أو اللثـام، الـذي كـان الرجـال يضـعونه علـى وجـوههم اتّقـاء الغبـار، أو في الحـرب، وفي بعـض الأحيـان للتخفّي، وعند (ابن منظور) الكِمام (بالكسر)، والكِمامة:شيء يُسدُّ به فـم البعير والفرس، فالأصحّ، كما قال اللغويّون أن نقول (قناع) وليس كمّامة، ولكن جاءت تنبيهـات اللغـويين متـأخّرة، فقـد حملـت عاصـفة (كورونـا) معها تسميات انتشرت كالنار في الهشيم، فشاعت تسمية (كمّامة) التي كنّا نشـاهدها في المطـارات تغطّـي الأنـوف الصـغيرة للعديـد مـن المسـافرين القادمين من دول شرق آسيا، والبلدان المكتظّة بالأنفـاس وروائـح عـوادم

السيّارات والمصانع، وقبل التحاقي بكلية الآداب كنت قد درست الزراعة، وذات يوم دخلنا في مادّة (الوقاية) غرفة لانتاج العسل، ولئلا يلدغنا النحل وجب علينا ارتداء ملابس خاصة من الرأس حتى أخمص القدم، تحول بيننا وبين لدغات حشرات النحل، وكان أصعب شيء هو وضع القناع على الوجه، لكننا فعلنا ذلك عن طيب خاطر لدفع ما هو أسو! كما نفعل اليوم مع الكمّامات، وفي أيّام حرب الخليج الثانية، كثر الكلام عن احتمالاتها الكيمياوية، لذا تدرّبنا على طرق الوقاية من السموم في أيّ هجوم كيمياوي محتمل، وفي مقدّمتها وضع الأقنعة على الوجوه، وكان ضيقنا بتلك المعدات أكثر من ضيقنا من حمل السلاح!

ومع توتّر الأجواء العامّة، وجدنا في (كورونا) ما يضحك! ومنها أنّ فيديو انتشر لبطاقة دعوة لحضور زفاف، مع توقّف حفلات الزفاف، والتجمعات، وصدور قرارات إغلاق القاعات، وحين تبتعد الكاميرا يظهر أنّ تلك الدعوة لم تكن سوى كمّامة كفكرة جديدة وطريفة، وقرأت في بداية تفشي الجائحة أن معونة طبية وصلت إلى إيطاليا من الصين، وعلى صناديق الكمامات قصيدة للشاعر الروماني سينيكا الأصغر:

نحن أمواج من نفس البحر

أوراق من نفس الشجرة

أزهار من نفس الحديقة

في إشارة عميقة للبعد الإنساني الذي جمع بني البشر بعد تفشي الوباء.

وانتشرت طرفة في فرنسا قبل أعياد الميلاد تقول إن أفضل هدايا تقدمها للأصحاب في أعياد الميلاد علبة كمامات، وفي دولة عربية، قبل إغلاق المدارس، لاحظت الأمّ أنّ ولدها عاد من المدرسة بكمّامة يختلف لونها عن تلك التي جلبتها له، وخرج بها صباحا إلى المدرسة، سألته عن ذلك فأجاب بكل براءة: أعطيت كمّامتي لزميلي، وأخذت كمامته لأنّ لونها أعجبني!!

الأمر لم يتوقف عند الصغار، فقد روى أحد الأصدقاء أنّه بينما كان واقفا قريبا من منزله واضعا على وجهه كمّامته، لمحه أحد أصدقائه، فجاء إليه يسعى قائلا له: «هل من الممكن أن تعيرني كمّامتك، لأذهب بها إلى المحلّ القريب، وأعيدها إليك بعد عشر دقائق؟ فما كان منه إلّا أن يعطيها له عن طيب خاطر، ويوصيه بعدم إعادتها إليه، كل هذا سهل إزاء ما جرى لصديق عراقي كان قد صعد سيارة أجرة، سائقها يضع الكمّامة، فسأله بحنوّ: أين كمامتك؟ أجاب: نسيتها، ففتح صندوقه الصغير المثبّت في السيّارة، وأخرج كمّامة، وسلمها له، فشكره كثيرا، وظلّ طوال الطريق يصغي لنصائح السائق، وضرورة الكمّامة، والتقيد بالنظافة، والارشادات، وحين وصل إلى مبتغاه، نزل من السيّارة، وأعطى السائق أجرته، وقبل أن ينصرف، قال له: هات الكمّامة، فسأله: ماذا تفعل بها؟ أجاب: أعطيها لراكب آخر!

وهكذا كنّا نباغت وجه (كورونا) المكفهرّ لنسرق ابتسامة! كنّا نحتاج أن نبتسم، لا سيّما ونحن نقف في مواجهة شرسة مع الجائحة، لرفع الروح

الإيجابيّة، وهي من أسلحة مقاومة الفيروس، ورفع المناعة، كما يؤكّد الأطباء والعارفون في مراكز تطوير الذات وعلم النفس. وليست الابتسامة العابرة هي المطلوبة، ولا الاكتفاء بنشر الصور القديمة التي تنطوي على لحظات إيجابيّة مليئة بالسعادة والابتسامات والقهقهات! بل كنّا بحاجة إلى ابتسامات طويلة الأمد، نضمن استمرارها، ابتسامات من القلب، لا فقط ترتسم على الشفاه، من نوع تلك التي تنمو وتكبر أمام عدسات التصوير، ثمّ سرعان ما تذوب، وتصبح طيّ النسيان، كنّا بحاجة إلى ابتسامات تأتي مع ضمان صلاحية، يؤكد استمرارها، عندما ننتصر على الفيروس، ونبتسم من القلب من دون كمّامة!

أرقام وأسقام

الشـيء الوحيـد الـذي أمقتـه في هـذا المرض هو الطعم المرّ في فمي.

جبران خليل جبران إلى ماري هاسكل عام 1911 ، وقد كان مصابا بزكام حاد.

حين تجتمع الأوبئة، مع الحروب، في زمن واحد، تحدث كارثة، يـذكر لنا التاريخ عن تفشّي وباء عام 430 ق. م خلال حرب طاحنـة نشـبت بـين أثينا، وحلفاء إسبرطة، وتسمى (الحرب البيلوبونيسية)، وحتـى الانفلـونزا الإسبانية التي تسبّبت بقتل 50 مليونا تفشّت عـام 1918أي عنـدما كانـت الحرب العالمية الأولى في نهايتها، فالحروب تساعد على انتشـار الأوبئـة، وإذا كانت قد ضاعت منّي سنين عديدة في حـروب بـلا معنـى وعبثيّـة، ولا توجد حرب لها معنى، وليس للعبث فيهـا نصـيب، فأنـا أعـيش اليـوم زمنـا من أزمنة الأوبئة، بعد تفشّـي (كورونـا)، جعلنـا نستحضـر أيّـام الحـروب، بينما الحروب مستمرة في مناطق مختلفة من العـالم، بـل حتـى هـذا الوبـاء وصف بأنه (حرب بيولوجية)!

إنّ الذي يجعلني أستدعي الحرب وسيرتها، أننـا أيّـام الحـرب نترقّـب بيان العمليات الحربيّة الذي يصدر مسـاء بحـرص يشـبه حـرص مشـجعي

مباراة بين ريال مدريد وبرشلونة، والفارق أنّ تلك المتابعة تكون بدون متعة، بل بكمية كبيرة من (التراجيديا)، والخوف، والقلق! وكنّا نلتصق بالتلفزيون خلال بثّ ذلك البيان، فنتابعه حرفا حرفا وكلمة كلمة، لأنه يتعلق بمصيرنا الفردي والجماعي، واعتدنا بعد الديباجة الحماسيّة التقليدية الإصغاء إلى الأرقام، وبالطبع، لم تكن تعنينا الأرقام التي تخصّ الطرف الآخر، بقدر ما كانت تهمّنا معرفة خسائرنا من الضحايا قبل أيّ شيء آخر، ورغم أن التضحيات، وتعني الخسائرالتي تخصّنا، كانت متواضعة قياسا لقتلى الطرف الثاني وخسائره، مع الوضع في الاعتبار أنّنا لم نكن نثق بصحّة الأرقام، متفهّمين أنّ الذين يحرّرون تلك البيانات يراعون أمورا لها علاقة بالجانب المعنوي، الا أننا كنا نستكثرها، وتمثّل لنا ألما يقضّ مضاجعنا، واليوم تعود لأذهاننا تلك السيرة، طالما أنّ الأوبئة كما أسلفنا، مثل الحروب تحصد أرواح البشر، فمنذ الأيّام الأولى لتفشّي الوباء، ونحن نتابع بيان اللجنة العليا المكلّفة ببحث آليّة التعامل مع التطوّرات الناتجة عن انتشار (كورونا) الذي يصدر ظهر كلّ يوم معلنا الإصابات، وحالات الشفاء، والوفيات، وما إلى ذلك من أمور تفصيليّة، وصار انتظار البيان ضمن عاداتنا اليومية، واعتدنا أن نكمل يومنا وفق ما يسفر عنه البيان من أرقام، بمزاج يتوافق معه، فإذا كانت الأرقام أقلّ من الأيام السابقة، نحمد الله ونشكره، وترتفع الحالة الإيجابية، وتتملّكنا طاقة عجيبة على إنجاز ما نقوم به من أعمال، أما إذا كان العكس، فـ«ياويل مزاجنا وسواد ليله»، وهذا ما نلمسه هذه الأيّام التي شهدت ارتفاعا سريعا

وكبيرا بأرقام الإصابات بالفيروس، وصرنا نخشى في حالة تزايد أعداد المصابين بهذا الشكل الذي نراه، أن تواجه المنظومة الصحية مشاكل بسبب كثرة الإصابات، خشية وصول الأعداد لدرجة لا تستوعبها المستشفيات، فصارالبيان يقلقنا، والأرقام توجعنا وتسبّب لنا أسقاما نفسيّة، ولم يخفِ معالي وزير الصحّة د. أحمد السعيدي انزعاجه، وهو يستعرض الأرقام بألم شديد، مؤكّدا على ضرورة أن يكون حسّ المسؤولية موجودا لدى الكل، مناشدا الجميع «بتشديد الرقابة الذاتية، فالمخالف إذا كان متعمّدا فتلك جريمة.. وإذا كان جاهلا بالمخالفة يجب توعيته، وتنبيهه»، فالرهان يبقى على وعي وضمير الناس، فالوعي يمكن أن يجعل الجميع يجنّب نفسه ومجتمعه الخطر، وفي حالة عدم نجاح هذه الآلية، فليس سوى «تغليظ العقوبة على المخالفين، وإعلان أسماء غير الملتزمين؛ فتعمد المخالف إصابة الآخرين بمثابة جريمة قتل، وبالفعل تم تشديد العقوبات على الشركات وليس الأفراد التي لا تلتزم بالضوابط» كما قال معاليه، وبالفعل بعد وقت قصير قامت الجهات المختصة بنشر صور المخالفين عبر وسائل الإعلام، كواحد من الأساليب الرادعة، كي تتراجع أعداد المصابين، ولا نشعر حينما نقرأ في البيانات والأرقام بالآلام!

محبسنا الجماعي، و(المحيبس) المفقود!

إنّ قلّة حبّكم لأنفسكم، جعلت من الوحدة سجنا.

نيتشه

حين حلّ شهر رمضان الذي هو مناسبة دينيّة واجتماعيّة، كنّا في الحجر المنزلي، وهذا يعني، لا إفطارات جماعيّة، لا صلاة تراويح في المساجد، لا دعوات عائليّة اعتدنا عليها خلال رمضان في السنوات السابقة، ولم يبق سوى استرجاعها، ففي أيّام الحجر نشطت الذاكرة، ومثل منقّب آثار، وجدت نفسي أحفر في ذاكرتي الرمضانيّة في الشهر الذي يمثّل فرحة لكلّ المسلمين في العالم، وشيئا فشيئا بدأت تطفو على سطح الذاكرة تفاصيل رمضانيّة ظلّت عالقة في ذاكرة الطفولة، وصرت كمن ألقى حجرا في بركة ماء، فبعد لحظات تبدأ بالتشكّل دوائر صغيرة ما تلبث حتى تتسع، وتتشكّل دوائر أكبر، فأكبر، بل بدأت أشمّ روائح تلك التفاصيل العالقة في الذاكرة للمطبخ الرمضاني، يعود إلى ذاكرتي مشهد أنظارنا، وهي ترتفع إلى السماء باحثة عن خيط ضوئي اسمه هلال رمضان، وأرى فرحتنا الكبيرة بظهوره دون أن نفهم سببا للفرحة سوى أنّ وجه الحياة سيتغيّر خلال شهر كامل، والمحلّات ستعرض للبيع أطباق (الزلابية)، و(البقلاوة) كطقس من طقوس رمضان، في العراق.

مثلما القطائف في مصر، والأردن، ومناطق أخرى وفي ذلك يقول ابن

نباتة المصري في وصفها:

رعى الله نعماك التي مـن أقلّها قطائف من قطر النبات لها قطر

أمـدّ لهـا كفّـي، فـأهتزّ فرحـة كما انتفض العصفور بلّله القطر

وفي الشطر الأخير إحالة إلى بيت لأبي صخر الهذلي:

وإني لتعــروني لــذكراك هــزّة كما انتفض العصفور بلّله القطر

وكثيـرا مـا تـوزّع أطبـاق (الزلابيـة)، و(الـبقلاوة) علـى الجالسـين في المقـاهي، بعـد انتهـاء لعبـة (المحيـبس). و(المحيـبس) تصـغير محـبس، ويعنـي الخـاتم الـذي يخفيـه كـلّ فريـق يكـون بحوزتـه عـن أنظـار الفريـق الخصـم، وهـي لعبـة شـعبيّة تعتمـد علـى الفراسـة، الهـدف منهـا التسـلية، وتزجية الوقت حتى السحور، والفـائز هـو الـذي يحـزر في أيّ يـد يختبـيء الخاتم، ويكون، ثمن تلك (الصواني) على حساب الفريق الخاسـر، طبعـا عنـدما تقـام مبـاراة، فـنحن نكـون جمهـورا، أمّـا في البيـوت، ومـع إخوانـنا وأصدقائنا، فبالطبع نكون من اللاعبين، وتدور خلالها أقـراص (الزلابيـة) وقطع (البقلاوة)، يا ترى، هل جاءت (كورونا) لتقضي على روح الفريق، وتجعل الألعاب فرديّة؟

هل حلّت الجائحة لتغيّر وجه الحياة للأبد، بعد أن شلّت حركتها؟

هل يمكن للـ(محيبس) أن ينتقل بين الأيادي، حتّى لو حافظ اللاعبـون علـى مسـافات التباعـد، مثلمـا كـان بسلاسـة، دون خـوف مـن أن يكـون الفيروس قد التصق به؟

أسئلة ظلّت تدور في رأسي، وأنا أرى دوائر الذاكرة تتّسع، وصرت أرى ترقّب الناس لصوت أذان المغرب ومدفع الإفطار الذي كان يصل إلينا عبر المذياع والتلفاز، وعرفنا لاحقا حكاية المدفع التي بدأت من القاهرة قبل 500 عام، وربما تعود إلى عهد الخديوي إسماعيل، عندما تزامن موعد الإفطار مع سماع دويّ إطلاقة مدفع كان تحت الاختبار، فظنّ الناس أنّه اشارة لإعلام الصائمين بحلول موعد الإفطار، فاستحسنوا الفكرة، وصارت تقليدا معمولا به، واليوم جاءت (كورونا) بتقاليد وعادات مجتمعيّة جديدة، ستكون لاحقا أساس نمط حياة!

وتتّسع دوائر الذاكرة أكثر، فأسمع صوت طبل المسحراتي الذي يوقظنا من النوم، فتعود الحيويّة والنشاط إلى أفراد البيت مجدّدا، ويقال أن فكرة المسحراتي ظهرت في مصر أيضا، على يد الوالي عنبسة بن إسحق عام228 هـ عندما كان يتوجه من بيته لجامع الفسطاط، وكان يرفع صوته مذكّرا الناس بالنهوض للسحور، ثم تولى الجنود تلك المهمة في عهد الدولة الفاطمية، بعد ذلك ظهر المسحراتي الذي كان موظفا يدق الأبواب بعصاه، ثم كثر المسحراتية في البلدان العربية، وتعددت أساليبهم بحسب البلدان والأشخاص والثقافات، لكن ظل الهدف واحدا:

أيهـــا النـــوام قومـــوا للفـــلاح
واذكـــروا الله الـــذي أجـــرى الريـــاح
إن جـــيش الليـــل قـــد ولـــى وراح
وتـــدانى عســـكر الصـــبح ولاح
اشـــربوا عجلـــى فقـــد جـــاء الصـــباح

كان صوت (المسحراتي) بمثابة لمسة سحريّة تزيح الظلام، وتغمرنا بسعادة، بينما الكلّ يستعدّ لاستقبال يوم رمضاني جديد، لذا كنّا نحبّه رغم أنّه لا يختلف عن أيّ طبل آخر سوى بكلمة (سحور)، ولتعلّقنا بهذا الزائر الرمضاني الليلي كنّا نفرح بمقدمه كثيرا صباح العيد، وهو يطلق معزوفته في وضح النهار مستغنيا عن مفردة (سحور)، والهدف من ظهوره الصباحي هو جمع تبرّعات المعيّدين تقديرا لأتعاب شهر كامل من السهر، وكان مشهدا جميلا يشبه دهشة لقائك الأوّل بنجم سينمائي يحتلّ حيّزا من صور ذهنيّة بما تضفيه المخيّلة، لكوننا نسمعه دون أن نشاهده. وحين نتذّكر شهر رمضان لا بدّ أن نتذكّر المسلسلات التلفزيونيّة التي تنشط في شهر رمضان، حتّى صار هذا الشهر موعدا سنويّا للكثير من الجمهور مع الممثلين والمخرجين وكتّاب الدراما وشركات الإنتاج، وقد تأثّر قطاع الإنتاج الدرامي الرمضاني كثيرا بالوباء، فحركة الإنتاج والتصوير لم تكن كما كانت من قبل تفشّي الجائحة، لمنع التجمّعات والحدّ من الحركة والسفر، فاضطرّت الشركات إيقاف إنتاجها لتجنب الخسائر، أوتأجيل تصويرها، رغم أنّ الجائحة من جانب آخر وفّرت مادّة دراميّة لكتّاب الدراما، وفي رسالة صوتيّة بعثها الفنّان الراحل سمير غانم، لأحد الإعلاميين ردّا عن سؤال حول مشاركاته في الدراما الرمضانيّة قبل وفاته بأسابيع قليلة، تكلّم بأسى على ما وصلت إليه الدراما المصريّة في موسم رمضان 2021 بسبب (كورونا) واختتم رسالته بقوله «الله يستر»!

تحتشد برأسي ذكريات كثيرة مضاءة بمصابيح تظلّ توزع نورها على الطرقات بسخاء حتّى أذان الفجر، وحركة السوق عاديّة، وكأننا في وقت النهار! وهذا الوضع وجدت مشابها له في صنعاء خلال إقامتي اليمنيّة، إذ ينقلب الليل إلى نهار، والنهار إلى ليل، ومن الطريف إنني كنت ذات يوم برفقة الدكتور حاتم الصكر، فمررنا على محل لكيّ الملابس، أعطاه قميصا، ثمّ سأله: متى يكون جاهزا؟ أجاب: قبل صلاة الفجر!! فدهش الصكر، وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من وصوله إلى صنعاء للتدريس بجامعتها!! أمّا في النهار، فالعمل يبدأ حوالي الحادية عشرة صباحا، ويستمرّ حتى الثانية ظهرا، باستثناء المدارس، وكنت أعمل في سلك التدريس فأخرج قبل هذا الوقت، فأجد الكلاب والحيوانات السائبة تحتلّ الشوارع وتسير بأمان، بينما ينتابني الفزع منها لكثرتها وقلّة وجود البشر ووسائل النقل! وكأنّ تلك الحيوانات كانت تتحيّن الفرصة لتعانق الطبيعة، بغياب الإنسان، أو بحضور رمزي له، وقد وفّرت الجائحة هذا الوضع للحيوانات اليوم.

كانت الحياة تستأنف في (صنعاء) قبيل الإفطار أنشطتها، فتكثر الدعوات التي تتضمّن الأطعمة الشعبية التي يتبادلها الجيران بكرم كبير، وهذا ما اعتدنا عليه في مسقط، مع كثرة الدعوات على الإفطار التي تحتوي ما لذّ، وطاب من أطباق خاصّة بشهر رمضان، وغلبة الأجواء الروحانيّة، لكنّ الأخبار التي تصل إلينا من اليمن تقول إنّ الوباء أكثر حنانا على اليمنيين الذين يعانون من ظروف حياة معقّدة من فقر، وفقدان

أمن، وحرب، وأمراض، ومشاكل اجتماعيّة لا حصر لها، والمثل يقول «المبلّل لا يخاف المطر»، لذا سارت الحياة بشكل طبيعي، وربّما أن توقف حركة السفر، جعلهم في مأمن من دخول الوباء حدود اليمن، رغم تسجيل عدد من الإصابات.

وفي ظلّ الجائحة نفتقد كلّ تلك الأجواء، ليظلّ البحث جاريا عن «المحيبس» المفقود!!

وعزاؤنا الوحيد أنّه جاء ببديل تمثّل بالجلسات التفاعليّة التي نشطتْ عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ليحلّ رمضان علينا بنكهة مختلفة، لكنّها لا تنسينا طعم (الزلابية)، و(البقلاوة)، وإن تناولناها بشكل انفرادي!

إفطار بنكهة (كورونا)

يظهر معدن الإنسان في الطريقة التي
يصمد بها تحت وطأة المحن.
بلوتارخ

إذا كان الشاعر معروف الرصافي قد استهجن الإسراف في تناول الأطعمة عند الأفطار بقوله:

وأغبى العالمين فتى أكول
لفطنته ببطنته انهزامُ
ولو أنّي استطعت صيام دهري
لصمتُ فكان ديدني الصيامُ
ولكن لا أصوم صيام قومٍ
تكاثر في فطورهم الطعامُ

ففي زمن (كورونا) استهجنّا ظاهرة أخرى هي عدم الشعور بالمسؤوليّة والجدّيّة المطلوبة في التعاطي مع الفيروس، وهذا يفوق شعور المصاب بالمرارة والألم والحمّى والسعال وبقية الأعراض المعروفة، كون عدم الشعور بالمسؤولية تسبّب بخسائر كثيرة بالأرواح في العالم، وبشلل أحدثه في أنشطة الحياة، ومرافقها، وهو شلل سيظلّ إنسان الكوكب ينوء بحمل ثقله، وتبعاته الجسيمة!!

ولأجل توفير هذه الجدّيّة، والتذكير بخطورة الوضع، ورفع مستوى الوعي المجتمعي، قامت وزارة الصحّة العمانيّة بنشر مجموعة من القصص الواقعيّة لحالات أصيبت بفيروس(كورونا)، ومن خلال متابعتها، لاحظت أنّ القاسم المشترك فيها هو الإهمال، واللامبالاة، هذه القصص لا يد للخيال في صنع أحداثها، فأبطالها كانوا يعيشون بيننا، يشربون، ويأكلون، ويحبّون مثلنا الحياة الاجتماعية والجلوس على مائدة واحدة، والأكل من طبق واحد، والمشاركة في جلسات الإفطار مع الأهل التي افتقدناها في رمضان، كما جرى مع أبطال واحدة من تلك القصص التي حملت عنوان «الحالة رقم3008» ولا غرابة في العنوان، هناك قصص، وروايات عالمية كثيرة حملت أرقاما في عناوينها، لعلّ أبرزها رواية الكاتب البريطاني جورج أورويل «1984»، وروايةُ «السّاعة الخامسة والعشرون» للكاتب الروماني «جيورجيو فرجيل قسطنطين»، أمّا عن كاتبها، فليست (وزارة الصحة)، فهي اكتفت فقط بصياغتها، ونشرها، أمّا كاتبها، فهو الواقع، ومكانها في السلطنة، وزمانها (كورونا)، أو «الزمن صفر»، كما يحلو للكاتب المسرحي الصديق علي عبدالنبي تسميته، إشارة إلى الحدث المفصلي الذي نعيشه، بما يشير إلى بدء زمن جديد، زمن ما بعد «كورونا»!

وبعد أن انتهينا من هذه العتبات، ندخل في المتن وقراءة أحداثها التي لا تقلّ غرابة عن قصص الخيال، لأنها تنطلق من أرضية غرائبية تتصل باللامبالاة، والخروج من المنطق، وإليكم ما ورد في المتن نقلا عن

صحيفة «أثير» الإلكترونية: «تبدأ القصة عندما قرّرتْ عائلة (ع. س) التجمّع في بيت العائلة على إفطار جماعي، واختاروا يوم الجمعة لتكتمل الفرحة بوجودهم جميعا» وبقيّة القصّة معروفة، فقد انتهت بمأساة بعد «تأكيد تشخيص عشر إصابات من العائلة نفسها، بينهم مسنٌّ، وحفيد لم يتجاوز عمره خمسة أشهر، فكان الإفطار الجماعي بنكهة (كورونا) السبب وراء الإصابة».

الغريب في القصة، والقصص الأخرى الكثيرة التي نشرتها الوزارة في حملتها التوعويّة، أنّ الجميع في العالم صار على علم بأن هذا الفيروس ينتشر سريعا بالتخالط الاجتماعي، وكثيرا ما تنصحُ منظمة الصحة العالمية بالتباعد، وكذلك الأطباء، ووسائل الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، والشخصيات العامة من نجوم المجتمع، والكلّ يطرح ثقته بالوعي المجتمعي، ويراهن عليه، فالإنسان يمتلك عقلا يمكّنه أن يميز ما بين الذي في صالحه، فيختاره، ويتجنب الضرر، وفي ذلك يقول ابن الرومي:

أمامك فانظر أيَّ نهجيك تنهجُ ... طريقان شتّى مستقيمٌ وأعوجُ

لعلّ قلوبا قد أطلتم غليلها ... ستظفر يوما بالشفاء فتثلجُ

وكثيرا ما حذّرت الجهات الرسميّة من الاختلاط، وأعلنت عن إجراءات صارت معروفة للجميع، فالمصاب لا يؤذي نفسه فقط، بل يمتدُّ الضرر لمَنْ حوله، ونتائجه وخيمة، وقد يصل إلى أرقام كبيرة، فهناك

من نقل الفيروس إلى (350) شخصا، وآخر لمن حضر حفل العرس، ووصل العدد إلى (150) شخصا!!

هذه اللامبالاة تصل بأصحابها إلى نتيجة مؤسفة تطال الجميع، كما في قصّتة الحالة (3008)، وقد تنقله العوائل بدورها إلى عوائل أخرى بسبب الإصرار على عدم الالتزام بآليّة التباعد الاجتماعي، وتعطيل العادات التي كنّا نأنس بها في الظروف العاديّة، لكنّها أصبحت ذميمة، وضارّة، كجلسات الإفطار الجماعي التي تحمل نكهة (كورونا)!

عيدٌ منزليّ، وكمّامات!

للبحر وحده سنقول كم كُنَّا غُرباء في أعياد المدينة.

سان جان بيرس

بعد شهور قليلة من تفشّي الوباء، مرّ بنا عيد كوروني بامتياز! فالعيون التي لاح في طرفها هلال عيد الفطر المبارك، تنفّست الهواء الآمن النقيّ من وراء كمّامة أنيقة تليق ببهجة العيد، وبأصابع غاطسة بالمعقّمات، حين دقّ أبوابنا العيد المنفرد، على الفور، فتحنا له أبوابنا، هاشّين بمقدمه، باشّين بوجهه، الذي وضع على مقدّمته كمّامة!

عيد (كورونا) المنفرد يختلف عمّا سبقه من الأعياد الجماعيّة التي عرفناها منذ أن فتحنا أعيننا على أفراح العيد، منذ أكثر من خمسين سنة، وتبعا لطبيعة الحياة وتقلّباتها، لم تكن كلّ تلك الأعياد تسير على وتيرة واحدة، لكنّها بكل الأحوال كانت أعيادا، وتجمّعات، نتبادل خلالها التهاني السائرة على نحو «عيدك مبارك، وإن شاء الله من العايدين »، و«كل عام وأنتم بخير»، وبدلا من أن نذهب للعيد، جاء إلى بيوتنا بدون إبطاء ولا تردّد، وبعد دقائق لم يعد «غريب الوجه واليد واللسان»، وبدأ اختلافه عن الأعياد السابقة بالتلاشي، رغم أننا بدأنا عيدنا قابعين في البيوت، بلا صلاة عيد في المسجد، ولا زيارات، ولا ذبائح إلّا بشكل عائلي ومحدود، ولا تفصيل ملابس جديدة، ولا ذهاب

إلى صالونات الحلاقة بالنسبة للرجال وصالونات التجميل، وأماكن وضع الحناء بالنسبة للنساء، واذا كان الشاعر حين يتحدّث عن العيد، قبل العيد الأخير يرى:

المسلمون أشاعوا فيه فرحتهم   كما أشاعوا التحايا فيه والقبلا

فالتحايا صارت عن بعد، وجاءت خالية من القُبَل، سوى قُبَل أيقونات الهواتف الذكيّة التي يتبادلها الأهل والأصحاب، ومثلما يتبادلون صور باقات الزهور، وأيقونات المصافحات واللقاءات الإلكترونية، ورغم أننا تدرّبنا على هذا الوضع من خلال الاستغناء عن أعياد الميلاد التي صادفت الشهور الثلاثة الأخيرة، واختزالها بإرسال التهاني عبر الرسائل القصيرة، أو المقاطع الصوتية، وبطاقات التهنئة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، أو في أفضل الأحوال عبر البثّ المباشر (أون لاين) مع الأهل، والأصدقاء المقرّبين حفاظا على رمزية المناسبة، أقول: رغم ذلك، إلّا أنّ تلك (التمارين) لايمكن عدّها شيئا إزاء مناسبة دينية واجتماعية كبرى كمناسبة عيد الفطر المبارك، غير أن الوضع العام لم يكن يسمح بممارسة أيّ طقس من الطقوس التي أبرزها: صلاة العيد، والتجمعات العائلية، وتبادل الزيارات، فلزمن كورونا قوانينه، والتزاما بتوجيهات اللجنة العليا المكلّفة ببحث آليّة التعامل مع التطورات الناتجة عن انتشار «كورونا» التي منعت التقارب الاجتماعي، وامتثالا لها، وضع من اضطر الخروج على وجهه الكمّامة، فجاءت التهاني (عن بعد)، ومن وراء الكمّامات، وكنّا نقلّب صور الأعياد السابقة، في ألبومات الصور، وصفحات الذاكرة، مثلما

كان المعتمد بن عباد يتذكر مباهج العيد حينما مرّ عليه وقد أودعه ابن تاشفين في سجن «أغمات»:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا　　فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا
أَفطَرتَ في العيدِ لا عادَت إِساءَتُهُ　　فَكانَ فِطرُكَ لِلأَكبادِ تَفطيرا

وتذكرنا الشاعر مصطفى جمال الدين، وهو في غربته يتذكّر العيد وسط الأهل:

هذا هو العيدُ، أينَ الأهلُ والفرحُ
ضاقتْ بهِ النَّفْسُ، أم أوْدَتْ به القُرَحُ؟!
وأينَ أحبابُنا ضاعتْ ملامحُهم
مَنْ في البلاد بقي منهم، ومن نزحوا؟!

لكنّما المباهج المنزليّة عوّضت عن ذلك، خصوصا أنّ الأصل في (عيد الفطر) فرحة الصائم بتأدية فرض شرّعه الله، وهذه الفرحة مكانها ليس الشوارع، وساحات التجمّعات، ولا حتى البيوت، بل في القلوب، فالعيد بكلّ أحواله بهجة، ومن مباهج هذا العيد، أنّنا أعطينا من نحبّ من البعيدين حقّهم من التواصل عبر الاتّصالات، والرسائل.

كان عيدنا خفيف الظل، فبعد أن أخذ (العلوم)، وتناول (العرسيّة)، و(تقهوى) معنا، وأكل من كعك العيد، استأذننا، ليواصل زياراته، التي يرسم من خلالها البهجة تاركا وصيّته الأخيرة: خليكم بالبيت!

ماذا تفعل في البيت؟

لِمَ لا يقفلون الباب؟
نحن معزولون عن كل شيء!
لكن أليس كل شيء متاحا لنا بالتساوي؟
إميل سيوران

كيف تُقِيم علاقتك بالآخر أمًّا، ابنًا ابنة زوجًا، أخًا، أختًا.. ما الذي تشعر به وأنت تقيم مسافة بينك وبينهم لم تكن لتقيمها في وقت آخر؟

سؤال وجّهه لي الصديق الشاعر مخلص الصغير لمجلة (العالم الجديد)، في 9 مايو 2020 وكان جوابي له على هذا السؤال، والأسئلة التي تليه:

بكل بساطة، كلنا صرنا ندرك أن هذا الوضع جديد ينبغي تقبّله لتجديد المحبّة، وزيادة الاشتياق، وهي مرحلة وستمر كغيرها.

***

- كيف تشغل الوقت؟ في القراءة؟ في النوم؟ في سماع الموسيقى؟ في المشي في الغرفة؟ هل تشعر أنك سجين؟ ما الذي تغير في علاقتك بيديك؟ بجسدك؟و كيف تتعامل مع فضائك الشخصي في مكان ضيق، وحركة محدودة؟

- أشعر أن هذا أفضل وقت يمكنني قضاؤه في القراءة والكتابة، فقد أتاح لي المكوث في البيت فرصة ممارسة الهوايات المحببة لدي، كالقراءة والكتابة وسماع الموسيقى، والمشي ضمن برنامج يومي، علما بأني أفعل كل ما ذكرت بمتعة عالية، ولا يوجد لدي شعور بأني سجين أبدا، بل أشعر أن لدي حماية حصينة من العالم الخارجي الذي لن يستطيع الاعتداء على عزلتي، وسيتركني أكمل مشاريعي الكتابية، والقرائية الناقصة، التي كان السفر يؤجّلها، والتكليفات، ودعوات المشاركة في الندوات، والبرامج، والالتزامات الاجتماعية التي تخفّفنا منها بفضل منع التجمهر، والخروج، والتجمهر.

• هل تشعر أنك مهدّد، وأنك ضعيف ولا حول لك؟ أم أنك تشعر بأنك قوي، وتدخر قوتك لفصل آخر، في منازلة وجودية مع عدو لا سابق له في تجاربك؟

- أبدا، آخر ما أفكّر به هو أن هذا الفيروس الذي أقلق العالم، وقلبه رأسا على عقب، يشكل مصدر تهديد لوجودي، في ضوء أن كل شيء كفيل بتهديد هذا الوجود، وليس فقط الوباء، ولذا فليس لديّ الشعور بأني ضعيف، بل زادني قوة، وإحساسًا بالعدالة الوجودية، لأن الجميع تساوى في الانشغال بهمّ مركزي يهدد الكرة الأرضية اسمه «كورونا».

- ماذا تعنيه لك هذه التجربة. ، ان تكون مهددا بالمعنى الوجودي للكلمة..؟

- وجودنا مهدد بالنهاية في كل وقت، وليس فقط اليوم، لذا، فالخطر الذي يهدد حياة الآلاف لا يخيفني، الإنسان يعيش في عالم هش، ولذا، وجوده مهدّد على الدوام بالزوال، والفناء.

- هل تقوم بجلسات مراجعة صامتة مع نفسك؟ مراجعة لحياتك؟ لمسيرتك الشخصية؟ لما فعلت وما لم تفعل؟ لما كنت تحلم به وما صرت إليه؟

- نعم، أقوم بهذه المراجعات يوميا قبل «كورونا» وخلاله، وبعده إن شاء الله، وأسعد الأوقات تلك التي أجالس بها نفسي، أحاورها، وأتحدث إليها، والفارق أن هذا الحوار أصبح أطول، بفعل طول المساحة المتاحة لي لإجراء هذا الحوار الذاتي

- هل أنت خائف من يوم غد؟

- متصالح منذ زمن بعيد مع الغد، لأني مؤمن أنه «لكلّ أجل كتاب»، وطوال حياتي أنطلق من مقولة الإمام علي (ع): «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» وبالتالي فـ«من لم يمت بـ«كورونا» مات بغيره»!

- هل تشعر أنّك في واقعة غريبة مدبّرة من قوة كبرى؟ أم تشعر بأن ما يجري هو ضرب من تمرّد الطبيعة ولحظة من لحظات معاقبتها للإنسان لسبب ما؟
  - أرى أننا نعيش لحظة مفصلية في تاريخ الكون الذي يجدّد نفسه، بين حقبة زمنية وأخرى، وهذا أمر ضروري في وقت تعيش به الأرض الكثير من المشاكل في مجال التلوّث البيئي، وآن لها أن تنظف نفسها من مخلفات المصانع، والدخان، والانفجار السكاني.

- هل حملت هذه الجائحة مخيلتك على استدعاء أفكار وخواطر قيامية كنهاية العالم وما شابه؟ هل ذكرتك بكتب ما من مؤلفات الخيال العلمي أو فيلما سينمائيا أو لوحة تشكيلية أو فصل من فصول تاريخ الكوارث المدون؟
  - ما زلت أنظر إلى فيروس «كورونا» كحدث مر بنا ضمن سلسلة من الأحداث والأوبئة التي مرّت بنا في حياتنا منذ الستينات كالكوليرا، والسل الرئوي، والجدري، والايدز، وإنفلونزا الطيور والخنازير، لكنه شمل العالم كله، ولم يتوقف عند مكان معين فقط، بسبب سرعة انتشاره، وخطورته على حياة الإنسان، وتأثيره على الاقتصاد العالمي، وقد ساهمت وسائل التواصل في تهويل الأمر،

وهنا لا بدّ من القول إنني لا أستهين به كفيروس خطير تسبب بالعديد من الوفيات، ومن حالة الهلع التي سيطرت على الجميع.

- كيف تتخيل نهاية هذا الكابوس الإنساني؟ هل تظنّ أن قوة الدول، والعلم والتطور الطبي ستكون كافية لابتكار علاج ينجي البشر من هذا الفيروس القاتل. هل أنت متفائل؟ هل لديك توقع لما يمكن أن يحدث للبشر حتى ذلك الوقت؟

– مؤمن أن المساعي مستمرة لابتكار لقاح ضدّ هذا الفيروس، بل نلاحظ وجود تسابق محموم بين مراكز الأبحاث، والمختبرات العالمية للوصول للقاح، وسيتم التوصل إليه قريبا، فالعالم وجد ليبقى إلى حين قيام الساعة.

- هل تظن أن شيئا أساسيا سيتغير فيك، أو في من حولك، في حياتك وتفكيرك وفي حياة وتفكير الناس، ومستقبل علاقتهم ببعضهم وبالعالم بفعل هذه التجربة؟

– طبعا، لا بدّ من بروز عالم جديد مختلف عما كان عليه قبل (كورونا)، عالم أقل غرورا، وأكثر تواضعا مما كان عليه قبل (كورونا).

(أضحى) التنائي...

للناس حجٌّ ولي حجٌّ إلى سكني
تُهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي.

الحلّاج

حلّ عيد الأضحى، ونحن في البيوت!

لم يتغيّر الحال كثيرا.

وكانت المملكة العربية السعودية قد ألغت موسم الحج لأوّل مرّة بعد أكثر من 1400 سنة.

عيد بلا حجّاج، وأضحيات، ورسائل الحج، والبث المباشر لإقامة الشعائر.

يومها كتبت مقالا بلغة ساخرة قلت فيه: يبدو أنّ (كورونا) أعجبه المكوث بيننا للعيد الثاني على التوالي، لما لاحظه من كرم ضيافة في بيوتنا التي فتحت ذراعيها لاحتضان الجميع حتى لفيروس قاتل مثل (كورونا)! فدخلها مع مَنْ دخل، وأمضى العيد معزّزا مكرّما، بين تجمّع الأهل، ونحر الذبائح، وتقديم مختلف الأطعمة، والفواكه اللذيذة، بعيدا عن الكمامات التي تحجب وصوله إلى أهدافه المرسومة!! فوجد بيئة مناسبة، صالحة للحياة، وحين يودّ التعبير لنا عن هذه الألفة، فلن يجد أفضل من بيت المتنبّي:

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم   وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم

لذا عزّ عليه مفارقتنا، فطابت له الإقامة بيننا، ومعنا، في الوقت الذي هُدّدت حياته في أماكن أخرى فضلا عن سماعه الأخبار المزعجة المتعلّقة بايجاد لقاحات ستقضي على حياته بالكامل، فلم يجد أدفأ مكانا، وأجمل وأكثر أمنا، وأكرم منا!! لذا سارع إلى رمي أطنابه، والمكوث بيننا، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا! ومرّت الأيّام، والأسابيع، وهو في بحبوحة، وعافية، وواصلت مملكته توسّعها، وجيوشه انتشارها! حتى جاء (عيد الأضحى) ليضيف إلى رصيد حياته المهدّدة بالفناء في أماكن أخرى، مناسبة سعيدة يسترجع من خلالها ذكرياته السعيدة التي أمضاها معنا بعيد الفطر، ولعلّه يتمكّن من توسيع أنشطته، حينما يشاهد التجمعات، والزيارات العائلية، والمصافحات، وتبادل الأحضان، والقُبَل بما يضمن له إقامة سعيدة أطول!!

كم تمنينا أن نقضّي عيدا سعيدا، بلا (كورونا)، ولا كمّامات، ولا فرض تباعد، ولا يشغل الحديث عن بيان اللجنة العليا المتضمن عدد الحالات، والوفيات، مساحة من أحاديثنا!

كم تمنينا أن ننهض صباح العيد لأداء صلاة العيد في المساجد، والأماكن المخصصة، وتبادل التهاني، والزيارات عن قرب، والأحضان، لكي نعوّض ما فاتنا في عيد الفطر الذي مرّ، وكنا يومها في الحجر المنزلي، نسترجع أيام الأعياد السابقة التي مرت بلمح البصر، وكأنها جرت قبل خروجنا من الفردوس المفقود!

غيمتان ونجمة واحدة

لقد رأيت نجمًا، حاولت الوصول إليه،
ولكني فشلت... فاكتفيت بالسماء...
سكوت فورتيني

ربطتني بالصديقة الفنانة فخرية خميس علاقة قديمة، وتكاد أن تكون من أوائل من عرفت من الفنانين العمانيين، ومن المفارقات أن لقائي الأول بأمّ عبدالله لم يكن في عمان، رغم أننا كنّا متجاورين تقريبا سكنا، فكان على (الدوحة) أن تجمعنا في مهرجان المسرح الخليجي السابع الذي أقيم في أكتوبر 2001، وعدنا معا إلى مسقط قبل انتهاء المهرجان، لظرف طارئ لكلينا، في رحلة جوّيّة واحدة، وبمطار مسقط الدولي كان زوجها المرحوم سامي البحراني بانتظارنا، ومن يومها وعلاقتي وثيقة بها، وبزوجها الذي فقدت برحيله صديقا عزيزا، ونبيلا، ولم تزد صداقتنا الأيام إلّا قوّة، رغم ارتباطاتها التي تجعلها خارج السلطنة ضمن مشاركات فنية عديدة في مسلسلات خليجية، وانشغالاتي، وكنا نجد دائما فسحة للتواصل والبوح، وفي بيتها تعرّفت على نجوم المسرح، والدراما العمانيّة بذلك الوقت، فقد دأبت على استضافة نخبة من الفنانين العمانيين، والعرب بمناسبة، وبدونها، ومن أبرز من التقيت في بيتها:

الفنان صالح زعل، والفنانين الراحلين سعود الدرمكي، وسالم بهون، ود. خالد الزدجالي، والفنان إبراهيم الزدجالي، والكثير من نجوم الدراما الخليجية كسعاد علي، ومحمد المنصور، ومنى الفضالة، وطوال تلك السنوات لم أر منها غير المواقف النبيلة، فقد جُبلت على فعل الخير للجميع بلا استثناء، وكانت يوما بعد آخر تزداد ألقا، ونجومية خصوصا بعد نجاح مسلسل «الحيّالة»، تلك النجومية التي تجعل مطرب العرب محمد عبده حين حلّ ضيفا على مسقط زارها في منزلها، وكذلك حياة الفهد، وغيرهما، لكنّها لم تتغيّر أبدا، وكانت تزداد تواضعا، وآخر لقاء جمعنا كان في أيّام الشارقة المسرحيّة 2020 قبل تفشّي الفيروس، وظلّ التواصل بيننا مستمرّا عبر الهاتف، حتى وصلتني منها رسالة تخبرني بها عن إصابتها بالفيروس، فتذكّرت بيتا تحضرني كلما أصدم بخبر هو بيت الشاعر الجاهلي أوس بن حجر:

أيّتها النفس أجملي جزعا إنّ الذي تحذرين قد وقعا

والمخيف أن هذه الإصابة تزامنت مع تشخيص إصابتها بمرض السرطان، لتبدأ تطبيق جدول العلاج، وفي عددها الصادر يوم 12 سبتمبر 2020، نشرت جريدة «عمان» الخبر مرفقة برسالتها الصوتية التي مرّرتها للصديق الإعلامي عامر الأنصاري رئيس القسم الثقافي، حين تواصل معي للاطمئنان على صحّة نجمة الدراما العمانية والخليجية، التي حملتني نقل الرسالة لجمهورها كونها لاتستطيع الرد على الذين تواصلوا معها، وورد في

الخبر أن الفنانة فخرية خميس تحدّثت في الرسالة «بنبرة تنم عن إرهاق شديد وتعب مضنٍ، قالت: «أصبحت يا أبا دجلة لا أستطيع الدخول على برنامج المحادثة الواتس أب من كثرة الرسائل والاتصالات التي تردني، وأنا لا أستطيع الرد لما أشعر به من تعب وإرهاق شديدين، لا أستطيع الرد وأنا بهذه الحالة الصحية، أرجو من الجميع التفهم وتقدير وضعي الصحي الحالي، ولا يوجد أحد بجواري للقيام بالرد نيابة عني، فأنا في البيت معزولة عن أبنائي وأهل بيتي، فقط أتواصل مع أبنائي بالواتس أب للاطمئنان عليهم، وكثرة الرسائل ترهقني أكثر»، وتابعت رسالتها تقول: «أعرف يقينا أن الناس قلوبها معي وتريد الاطمئنان على حالتي، أفهم حبهم وأقدر ذلك، ولكني أطلب منهم في الفترة الحالية عدم الإرسال، فقط امنحوني فرصة، وكل طلبي من الجميع الدعاء الصادق لي، وهذا خير ما يقدمونه لي، فلا ينتظر أحد مني الرد حاليا، لأنني، قسما، لا أستطيع، فليسامحني الجميع، وحين أبدأ خطة العلاج بإذن الله وتستقر الحالة سأقوم بالرد على الجميع بإذن الله».

بعد ذلك زارني الإعلامي قصي منصور في مكتبي بمركز الدراسات والبحوث -سابقا- وأجرى حوارا مصوّرا معي لإذاعة (هلا أف أم) إلى جانب نخبة من المقرّبين من نجمة عمان، بعثنا من خلاله رسائل إليها لرفع روحها المعنوية، وهي تصارع مرضين شرسين، وجاءت النتيجة كما تمنّينا، فصمدت بوجه الوباء، وتعافت منه، بينما ظلّت تصارع السرطان بشجاعة، حتى انتصرت عليه، بعونه تعالى.

أمومة في التراب

يقولـون ليلـى بـالعراق مريضـةٌ فما لك لا تضنى وأنت صـديقُ
شفى الله مرضى بالعراق فإنني على كلِّ مرضى بالعراق شفيقُ

قيس بن الملوّح

عنـدما قـادني الفضـول لجسّ نـبض الشـوارع، أعـددت العـدّة لمـن يستهجن مغادرتي البيت، وكسري قرار الحجر المنزلي بكون خروجي من البيت يتّسق مع متطلبات اشتغالي في الصحافة، ولم يستوقفني أحد، لأنّني بقيت أتجوّل ضمن محيط بيتنـا، وشـارعنا الـذي كـان يخيّم عليه صـمت ثقيل جثم على صدري، لذا سارعت للعودة إلى البيـت، بعـد ذلـك جاءني اتّصال من صديقي المخرج السوري سعيد عامر، كـان صـوته حزينـا ينـذر بحدوث مكروه، سألته عـن الخطـب، أجـاب: محمّـد ابـن صـديقنا الفنـان يوسف البلوشي رحل بعد إصابته بـ(كورونا) قلـت لـه: متى حصـل هـذا؟ أجاب: حدث الأمر بشكل سريع، وكان الراحل الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره، قد شاركنا مع والده قبل أيام من رحيله في فاصل توعـوي حـول (كورونا) ضـمن مبـادرة «حصّـن عقلـك»؟ كلّمـت والـده معزّيـا، سـمعت صوت بكائه يأتيني عبر الهاتف، وبعد ذلك قال: «الأمر لـم يسـتغرق أكثـر من 12 ساعة بين شعوره بالحمّى، وذهابنا للمستشفى، ومكوثه به على أن

يلتحق بي بعد الاطمئنان على سلامته، إذ تمّ تشخيص إصابته بالربو دون علمه، لكنه التحق بالباري»، وكم كان من المحزن أن أقرأ منشورا للفنان العراقي مهدي الحسيني في (تويتر) يتحدث عن شعوره بالضيق، وعدم القدرة على النوم، فسألته عن ذلك، فطمأنني أنّه مريض لكن بغير (كورونا)، ومع ذلك سيتأكّد، وراجع المستشفى، في بغداد، فحصوه، وحوّلوه إلى مستشفى مختص بـ(كورونا) حتى ظهور نتيجة الفحص لكنه لفظ أنفاسه في الطريق، واتّضح فيما بعد أن النتيجة كانت سلبيّة، وسبب الوفاة تعرّضه لأزمة قلبيّة، لكن ظلّ دمه معلّقا برقبة (كورونا)!!

بعد وقت قصير، فقدنا كاتبا وصديقا عزيزا هو الدكتور شفيق مهدي المتخصّص بالكتابة للطفل، وأوّل مدير تحرير عملت معه محرّرا في مجلة (مجلّتي) 1980، وكان قبل رحيله متأثرا بـ(كورونا) طلب مني كتابة مقال عن عملي بدار ثقافة الأطفال، لإدراجه ضمن كتاب يعمل عليه، وبالفعل كتبته، وبعثته له، لكنّ الفيروس حال دون أن يرى الكتاب النور.

أمّا عائلتنا ببغداد فلم تسلم من هجمات (كورونا)، فقد بلغني خبر إصابة ابنة شقيقي الأكبر د. حاتم، الطبيبة (كوثر)، التي تفخر دائما بكونها من (الجيش الأبيض)، وبعد تلقّيها العلاج في المستشفى، تعافت، تبعها شقيقها د. أحمد وزوجته، وأمّه، وشقيقاته، وأخي الأكبر، وشقيقتاي وأخي د. عادل، وتفرّع من (الجروب العائلي) جروب جديد حمل اسم (جروب المكورنين)، وكان كلّ مصاب يعرض حالته، ويُطلع المصابين

الآخرين بالمستجدّات التي تحصل له، وصاروا في كلّ يوم يستقبلون أعضاء جددا! وحتّى طبيعة أسئلتنا تغيّرت، فلم نعد نسأل عن الفاحصين إن كانت نتيجتهم (إيجابية) أم (سلبيّة)؟ بل صارت: من أضيف للجروب؟ ومن خرج منه؟ محاولين بذلك التغلّب على الداء بالمرح، و«شرّ البليّة ما يضحك! لكنّ (الجروب) من جانب آخر، خفّف كثيرا من شعور (المكورنين) بالوحدة التي يعيشونها داخل غرفهم المنعزلة، ومن الطريف أنّ أخي الأكبر عندما علم بإصابة زوجته، وابنته، خرج من غرفة العزل، وصار الثلاثة يتخالطون، ويتحرّكون بحريّة في المنزل، بينما عزل ولده السليم نفسه خوفا من الإصابة وصار حبيسا، فانقلبت الآية! وصار أكثر رعبا، تذكّرت حكاية السجين الذي ينام هادئا، بينما لا يغمض لحارس السجن جفن، ليصبح سجين الخوف والقلق من هرب السجين! مفارقات، وتبادل أدوار، وإرباكات أضفتها (كورونا) على وجه الحياة.

وقبل أن ترحل
أخبرني أين يُباع النسيان؟
وأين أجد ملامحي السابقة
وكيف لي أن أعود لنفسي

محمود درويش

وبعد انقضاء المدّة المقرّرة، تعافى الإخوة، والأخوات بحمد الله، لكنّ وقع (كورونا) على عمّتي السبعينيّة (أمّ حسن) كان ثقيلا، فأدخلت غرفة العناية المركّزة بعد أيّام قليلة من إصابتها، وتفاقمت مع معاناتها مع مرض

ارتفاع ضغط الدم، وبقيت أتابع أخبارها، وبعد ذلك تحسّنت حالتها كما تهيّأ للجميع، فنقلوها إلى مستشفى الكاظمية، لتغادر منه إلى بيتها، لكنّها، لم تعد للبيت، بل حملوها إلى المقبرة، كنت أتابع الأخبار من خلال اتصالاتي بالأهل، الذين نقلوا لي وصيّتها بأن تدفن إلى جوار أمّها في مقبرة أسرتنا بـ«وادي السلام»، أكبر مقبرة في العالم، وتقع في النجف الأشرف، قلت لهم: عمّتي (أم حسن) لم تمت، بل عادت طفلة تنام بحضن أمّها، ووجدت نفسي أدوّن نصا حمل عنوان:

«أمومة»

قبل أن تغمض الجدّة
عينيها في شوطها الأخير
أوصت المشيعين
أن تنام بحضن أمها
وبدون قناعة كاملة
حفروا لها ثقبا
مناسبا لنزوة ميّتة
وأهالوا التراب على شيخوختها
وتفرّقوا
في كلّ فجّ عميق
في تلك الليلة
نامت الجدة بحضن أمها

ونامت الأم

مطوّقة بيديها المهشّمتين ابنتها

وسط دهشة الأرواح الجائلة

في محيط المقبرة

ولم تعد الجدّة جدّة

ولم يعد للتراب معنى..

لا سيّما بعد أن بدأ كائن ما

يحبو تحته...

واستعادت الأمّ

أمومتها المفقودة

حتى الحليب

تدفّق كشلّال حنان

من صدرها

شربته الجدّة

على عجل

وأسندت رأسها

على أضلاع أمّها العتيقة

ثمّ نامت للأبد!

حين نشرت هذا النص بصفحتي بالفيس بوك، لفت نظر أخي الكاتب علي جبّار عطية تمجيد الأمومة، وتطويع حدث الفقد الحزين إلى مناسبةٍ

للاحتفال باللقاء بعد غياب، وكتب الصديق الناقد جبار ونّاس تعليقا لامس أعماق النص بقوله: «تماهى مع أجواء الجدّات، وما كان يدور من تصوّرات، وحكايات، سيّما، أنه دار حول موضوعة إنسانية كبيرة هي موضوعة الاحتضان، والأمومة، والتواصل معهما بعاطفة الانتساب الحي».

وقبل دفنها، كما قال لي الأهل، أمضى ابن عمّي «ناظم ونيس» الذي كان في أواسط عقده الثالث من عمره وقتا طويلا، يقرأ القرآن عند رأسها، وبعد انتهاء العزاء لحق بها متأثرا بسكتة قلبيّة، ومن لم يمت بـ(كورونا) مات بغيره!

وظلّ منجل الموت يواصل حصاده للأرواح في موسم الجائحة بشراسة أكبر!

هل الموت أسوأ ما يحصل للإنسان في أزمنة الأوبئة والحروب؟ أم الألم الذي يسبق كلّ ذلك؟

«كيف لقلبي أن يتّسع لكلّ هذا الألم؟» يتساءل جلال الدين الرومي، لكنّ الألم الذي تعقبه نجاة من الوباء يمكن أن يتحمّله الإنسان، ويتّسع له الجسد، لكنّ الألم الذي ينتهي برحلة أبديّة يجعل الألم تعذيبا، ويصبح الموت إطلاقة رحمة!

(الأب)، وعيده، في الحجْر

ليت الآباء لا يشيبون، ولا يمرضون،
ولا يحزنون، ولا يرحلون.

غابرييل ماركيز

مرّت بنا، عدّة مناسبات، وأعياد عالميّة، ونحن عاكفون في منازلنا، لعلّ أبرزها يوم الأمّ، ويوم الشعر، وعيد نوروز، وعيد الأب، وكلّها تستحقّ منّا وقفة، لكنّني في هذه المساحة اخترت الأخير، لأننا نعيش ظرفا استثنائيّا يساهم الجميع في تشكيله، والمشاركة في تجاوز الخطر المحدق في العالم بفعل هذه الجائحة، ومن بينهم الأب، فخصّ بعيد عالمي منذ عام 1910م لتكريمه، وتقدير دوره في الأسرة، كما خطّطت الأمريكية سونورا سمارت دود حين أرادت تكريم والدها الذي كان يُشرفُ على تربيتها هي وإخوانها الخمسة بعد وفاة والدتها فطالبت بذلك، واقترحَت أن يكون يوم عيد ميلاد والدها يوم تكريم الأب، فكان لها ما أرادت وسرعان ما انتشر عيد الأب في العالم، واختارت بعض البلدان تواريخ مختلفة، لكن الثابت هو تخصيص يوم لتكريم الأب الذي كرّمه ديننا الحنيف بالكثير من الآيات التي تدعو إلى الإحسان للوالدين والبرّ بهما، ونقرأ في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿**قالوا يا أيها العزيز أن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا**

مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ (سورة يوسف: 78) هذه المكانة الرفيعة للأب نجد لها تطبيقات في الكثير من تراثنا، ومن ذلك سئل عمر بن زيد:كيف برّ ابنك بك؟؟ أجاب: ما مشيت نهارا إلّا وهو خلفي، ولا ليلا إلّا مشى أمامي، ولا رقي سطحا إلّا وأنا تحته»، وكم كان د. أحمد خالد توفيق دقيقا عندما قال «أنت تشيخ عندما تشبه أباك، تبدأ في الموت عندما يموت أبوك»!

ويقول الشاعر نزار قباني:

وعينا أبي.. ملجأ للنجوم

فهل يذكر الشرق عيني أبي؟

بذاكرة الصيف من والدي

كروم وذاكرة الكوكبِ

حملتك في صحو عينيّ حتّى

تهيّأ للناس أنّي أبي

وقد كتب قباني هذا النص يرثي به والده الذي افتقده بعد رحيله، مثلما فعلت الكاتبة الأمريكية إيرما بومبيك عندما تساءلت: لم يكن أبي يفعل شيئا، فلماذا افتقدته إلى هذا الحد؟ لكنه مثل الكثير من الآباء يمضي جلّ يومه خارج المنزل، بل إنّها تشبهه بمصباح الثلّاجة «ففي كلّ بيت مصباح في الثلاجة، لكن لا أحد يعرف تماما ماذا يفعل حين ينغلق باب الثلاجة، كان أبي، والكلام للكاتبة، يغادر البيت كلّ صباح، وكان يبدو سعيدا، برؤيتنا ثانية حين يعود مساء».

وقد مرّ عيد الأب بنا بأكثر من صورة، من بينها تلك الصورة المثاليّة لأب يجالس أولاده، ويساعدهم في دروسهم التي تعطى لهم عن بُعد عقب قرار إيقاف الدوام في المدارس للحدّ من انتشار فيروس «كورونا»، ويتحدّث إليهم، ويقترب منهم، فإذا كانت فكرة عيد الأب جاءت لتكريم الأب، وإظهار دوره في الأسرة، ورعاية الأبناء، فإنّ الأب بجلوسه إلى أولاده هو تعزيز للعلاقة الأسريّة، فيظهر حبّه لهم، ويظهرون حبّهم له، كونه قدوة ليست فقط لهم، بل للمجتمع، وفي ذلك يورد الشاعر العربي حكاية طريفة، حين قال:

مشى الطاووس يومًا باعوجاج
فقلّد شكل مشيته بنوه
فقال علام تختالون قالوا:
بدأت به ونحن مقلّدوه
فخالف سيرك المعوجّ واعدل
فإنا.. إن عدلت معدّلوه
أما تدري أبانا كلّ فرع
يجاري بالخطى من أدّبوه
وينشأ ناشئ الفتيان منّا
على ما كان عوّده أبوه

وهكذا تنتقل العادات من الآباء إلى الأبناء، وهذا لن يكون إلّا بالجلوس مع الأبناء. وفي ظلّ تعقيدات حياتنا المعاصرة، وكثرة

المشاغل، الجلوس مع الأبناء يحتاج إلى توفير ظروف كاملة، خصوصا بالنسبة للآباء الذين يعملون طوال ساعات النهار، ويمضون جلّ أوقاتهم خارج المنزل، والبعض يعملون في أماكن بعيدة بحسب متطلّبات العمل، لذا تألّمت للصغيرة «مريم» ذات السنوات التسع، عندما افتقدت والدها الذي يعمل في إحدى شركات الطيران الخليجية، لاضطراره البقاء في مكان عمله بعد التطورات الناتجة عن انتشار (كوفيد19) بتطبيق الحجر الصحي على جميع القادمين إلى السلطنة، وشمل في تلك الأيّام المواطنين والمقيمين، لكنّ أمّها شرحت لها سبب غيابه، وتفهّمت أسباب غيابه، مثلما شرحت لها الواجبات البيتيّة -البيتيّة، فالمدارس في زمن (كورونا) صارت تأتي إلى البيوت، فكلّ شيء تغيّر في هذا الزمن الوبائي.

تحوّلات وموازين مقلوبة

شيء يسير بشكل مقلوب وكل الناس يرونه سويًّا.

واسيني الأعرج

صار من الواضح أن الفيروس تسبّب في أزمة صحّيّة، وإنسانيّة عالمية تعدّ الأكبر بعد الحربين العالمية الأولى والثانية وتفشي مرض انفلونزا الاسبانية، ونتج عن ذلك تعطيل الحياة والأنشطة الاعتيادية في جميع أنحاء العالم، وذات يوم تواصلت معي أ. مرفت العريمي مديرة مركز الدراسات والبحوث بوزارة الإعلام، وكنّا يومها من المنتسبين للمركز، وذلك في منتصف يوليو 2020، وناقشنا فكرة إعداد تقرير حول آثار الفيروس الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، وقامت بتشكيل فريق عمل من العاملين بالمركز، لجمع المعلومات والبيانات، وبعد حوالي عشرة أيام، تمّ انجاز التقرير الذي بدت أرقامه مخيفة، فالتحولات التي صنعها «قلبت موازين المجتمعات، وأحدثت تغيرات حتى في تركيبها الديمغرافي، وتتوقع الأمم المتحدة أن ما يقارب نصف سكان العالم قد يفقدون وظائفهم بسبب الاقتطاعات، والتسريح، والآثار الاقتصادية الناجمة عن الوباء، وأشار صندوق النقد الدولي إلى أن العالم دخل في ركود اقتصادي بمستوى ركود عام 2009، وقد يكون أسوأ»، فالجائحة نجحت في

«إحداث ضعف في اقتصاديات الدول خصوصا النامية، والناشئة نتيجة توقف تدفق رؤوس الأموال والاستثمارات من جراء الإغلاق العام، وتوقّف حركة السفر، والتنقل، وممارسة الأنشطة السياحية. هل ينبغي علينا إزالة حلم السفر؟ كيف نعود إلى حياتنا السابقة قبل الجائحة؟ لا مهرجانات، لا دعوات، لا سياحة، تقول الكاتبة غادة السمّان: «أمشي وحيدة على أرض المطار، لم يودّعني أحد في المطار السابق، ولا ينتظرني أحد في المطار الآتي»، وإذا ما عادت حركة السفر، هل ستعود مثلما كانت؟ أم سترتفع أسعار التذاكر بسبب قلّة إيرادات شركات السياحة؟

أما البنوك، فالبنك الدولي يتوقّع تراجعا في التحويلات العالمية بنحو 20٪ عام 2020 بسبب الأزمة الاقتصاديّة الناتجة من الوباء نتيجة انخفاض أجور العاملين المهاجرين، وفقدان أكبر للوظائف وزيادة في نسبة تسريح العاملين نتيجة إغلاق المؤسسات المؤقت وإعلان إفلاسها، ومن المتوقع أن تنكمش تدفقات الاستثمار العالمي بنسبة 40٪ نتيجة تأثّر نسبة كبيرة من الشركات متعددة الجنسيات بسلاسل التوريد المتقطعة، وانخفاض المبيعات وفقا لتقرير الاستثمار العالمي، ونتيجة للقيود المفروضة على السفر، فقد انخفضت أنشطة السياحة الدولية ما بين 45٪-70٪ في عام2020 وفقا لتقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، مما يسبّب تباطؤا في النمو الاقتصادي، وزيادة معدلات الفقر، وانخفاضا في متوسط دخل الفرد، الأمر لا يتوقف عند هذا الأمر مع استمرار تفشّي الجائحة، فمن المتوقع أن الملايين من البشر معرضون

للتسـريح، وذكـرت مؤسسـة مـوديز أن مـن أكثـر القطاعـات عرضـة للمخاطر السياحة، والصناعات الغذائيـة، والخـدمات المحليـة، وقطـاع السيارات، والملابس، والألعـاب، والكيماويـات، والصناعة التحويلية، والإعلام، والتنقيب، والمعادن، والنفط، والغاز، وخدمات حقـول الغـاز، والتطـوير والزراعـة، وشـركات الخـدمات، وصناعة الصـلب، والأجهـزة التقنية، وقاعات العروض السينمائيّة، والمسارح، ومعـارض الكتـب، أمـا القطاعات التي قد تنتعش قليلا فهي شـركات خـدمات الإنترنـت، والبيـع بالتجزئـة عـن بعـد، والتنقيـب عـن الـذهب، والمنصّـات الإلكترونيـة لبيـع الكتب، والمواد الطبيّة، و«مصائب قوم عند قوم فوائد»!

الرهانُ الذي علينا كسبه

في اللحظة التي نؤمن فيها بأنّ شيئا ما قد انتهى يكون ذلك الشيء قد بدأ لتوّه.

فاضل العزّاوي

يمكن لتجربة نخوضها مكرهين، أن تحدث انعطافة في حياتنا، من ذلك ما جاء بمقال للكاتب عصام أبو القاسم عن المسرحي زكي طليمات الذي دخل الحجر الصحي مع والدته التي أصيبت بحمّى التيفوئيد، فطلبت منه إدارة معهد التربية الذي كان يخطط للعمل به معلّما أن لا يعود إلا بعد مرور أكثر من شهر على شفاء والدته، لئلّا تنتقل العدوى لطلّاب المعهد، فاضطر للبقاء في المنزل، ولما لم يكن لديه ما يعمله شرع في كتابة نص مسرحي أُعجبت به فرقة جورج أبيض وقبلت تنسيب كاتبه بعضويتها، بعدما كانت متردّدة في قبوله، لم يرجع طليمات بعد شفاء والدته إلى المعهد بل واصل في المجال المسرحي، وهذا ما جرى معنا خلال الحجر المنزلي.

فكلّنا نحتاج فترات خلوة مع النفس، وأذكر أنّ أحد الأصدقاء الفنّانين العراقيين اعتاد أن يختفي بين وقت وآخر دون أن نعرف شيئا عن سرّ اختفائه، حتّى سألته ذات يوم، وعرفت أنّه يذهب إلى مكان منعزل في أحد الجبال، ليختلي بنفسه، ومن شروطه عدم سماع صوت، حتّى الطعام يدخله إليه

القائمون على ذلك المكان المعدّ لذلك الغرض من شقّ في أسفل باب صومعته، ولا يتعدى ذلك الطعام الخبز والماء، ويمكث هكذا أيّاما، يتأمل، ويقرأ القرآن الكريم، ويسبّح، وعندما يشعر بالاكتفاء الذاتي ينهي خلوته، ويغادر صومعته، ويعود إلى صخب المدينة بعد أن نقّى أحاسيسه، وجدّد طاقته الروحيّة!

في الأدب لدينا نماذج كثيرة، فبطل رواية «القلعة الخامسة» للشاعر فاضل العزاوي، عزيز محمود سعيد القادم من كركوك لبغداد، يعتقل مصادفة لجلوسه في مقهى مشبوه، فسُجن، وفي داخل السجن يحدث تطور نوعي في شخصيته، ورغم الظروف القاسية التي مرّ بها البطل اكتسب تجارب جديدة في الحياة، فالشخصيات التي تعرّف عليها في سجنه نقلت شخصيته إلى آفاق لم يكن يصل إليها لو لم يتعاط مع تلك التجربة القاسية بروح إيجابيّة.

وفي قصة «الرهان» التي كتبها أنطوان تشيخوف سنة 1889 يدخل أحد المحامين رهانا مع صيرفي، بدأ بسؤال هو: هل عقوبة الإعدام أفضل من السجن المؤبد؟ أم العكس؟ فيرى الصيرفي أنّ الإعدام أكثر إنسانية من السجن المؤبّد، فيخالفه المحامي الرأي، ويرى أنّه يفضّل السجن على الموت، فيدخل رهانا معه، ويقبل المحامي سجن نفسه خمس عشرة سنة، مقابل أن يدفع له مليون روبل، وبعد أن تمّ الاتفاق بينهما حبس المحامي نفسه في غرفة صغيرة بحسب الاتفاق، فشعر بادئ الأمر بالوحدة والاكتئاب، وفكّر عميقا، ووجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن يتعايش مع الظرف الذي وضع نفسه به، وإما أن يخسر الرهان، فاختار الأول، وبالطبع

شعر في الأيّام الأولى بالضيق، ولكي يخرج صاحبنا من دوّامة الفراغ والضيق، بدأ يزجي وقته يدراسة اللغات، ثمّ قراءة مختلف العلوم، وكان كلّما يقرأ يزداد شغفا، فالكتب تغريه بقراءة كتب أخرى، حتى أنهى 600 مجلد خلال أربع سنوات، ولأنّه كان في بداية مشواره، طوّر مهاراته وهواياته، فتعلّم العزف على البيانو، والكتابة، ودرس العلوم الطبيعية، والفلسفة، وهكذا أمضى بقيّة السنوات، حتّى شارفت المدّة المقرّرة على الانتهاء، وهو سابح في فضاءات معرفيّة واسعة، وقبل ذلك بيوم واحد، قرّر الصيرفي قتل المحامي في غرفته، لأنّه خلال تلك السنوات خسر ثروته على لذّاته، ولم يبق معه إلّا القليل، وخشي من الإفلاس، فيما لو خسر الرهان، وبالفعل ذهب إليه، ولكنه قبل أن يفعل فعلته، فاجأه المحامي برسالة كتب فيها أنه تعلّم من عزلته أن يحتقر الماديات، وعرف أنّ المعرفة أهمّ من المال، لذا يتنازل عن مال الرهان للصيرفي، ولكي يسقط حقّه في الرهان، خرج قبل ساعات قليلة من الموعد المتفق عليه، ليخسره، ويحفظ ما تبقى من أموال المصرفي، لأنه كسب شيئا أهم من المال هو استثماره لوقته في تطوير الذات، وبذلك كسب الرهان بطريقة أخرى.

وأفضل ما يفعل المرء في ظلّ الظروف الحالية مراجعة الذات، والخلوة إلى النفس والقراءة. يقول أحمد بن عطاء الله السكندري: «ما نفعَ القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة» فالفكرة برأيه «سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له» وحين تنتهي الأزمة، نكون قد كسبنا رهاننا مع أنفسنا.

ربيب العزلة

سأقرأ كتبي
سأشرب قهوتي
سأستمع للموسيقى
وسأغلق الباب.
سالينجر

يوما بعد آخر، بدأنا ننتبه للعادات الصحية الخاطئة فنتجنبها. وبدلا من السفر من مكان لآخر صار سفرنا إلى عوالم الذات والروح، وتحرّرنا من الزوائد، وصار تركيزنا على الأساسي، والجوهري في الحياة، وبدأنا بفرز الهام في الحياة عن الكمالي، والعابر من الأصدقاء عن المعارف، وبالنسبة لي كما قلت في حوار صحفي، جعلتني الجائحة أعيد النظر في أمور كثيرة بحياتي، والاعتماد على النفس في تسييرها في غياب الأصدقاء والمعارف، وأحيانا العمّال الذين يقومون بتقديم الخدمات، وهناك أمر هام، وفّرته لنا الجائحة، نحن المغرمين بالوحدة، وهو فرصة العزلة، بعد أن فرض على الكون «إقامة جبريّة»، رغم أنها لاتندرج ضمن باب العزلة السعيدة التي ألحقها الحكيم بتعريفه أن «السعيد من خلا بنفسه»، والسيد المسيح (عليه السلام) الذي يرى أن ثلاثة أرباع السعادة في اعتزالك الناس، فقد كانت أشبه ما تكون بعزلة سجين محكوم عليه بالمكوث في مكان واحد

دون ذنب، سوى أن خطرا يترصّده خارج «سجنه»، وقد يقضي على حياته! وحين لمع الضوء في أفقي وجد قلبي في انتظاره، لذا كنت سعيدا بسطوعه، فالشاعر «ربيب العزلة»كما يرى الشاعر عبدالقادر الجنابي، «وفي شسوعها تصل رؤياه سدرة اللامرئي» بل يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله: «العزلة الشرط الأساسي للشعرية»، وهذا ما لمسته خلال تلك الأيام، فبعد مرور أيام قليلة من العزلة الإجبارية أحسست أن ماء الشعر بدأ يتدفّق مجدّدا في روحي، بعد يباس مؤقت بسبب انشغالات الحياة والعمل، وكأن صخورا كانت تعترض طريق ينبوع الشعر أزيحت، فقابلته بحفاوة بالغة، وواصلت اشتغالي على مخطوط ديواني «شياطين طفل الستّين» الذي كنت قد خطّطت لنشره العام 2021 من باب الاحتفاء الشخصي والشعري بمناسبة بلوغي الستين، وهي شياطين «تختلف عن شياطين البشر الآخرين» كما وصف د. علي جعفر العلّاق لأنها «شياطين شعرية بامتياز، لا تؤذي، ولا تشيخ، ولا تكدر الخاطر»، وكانت الثيمات التي حدّدتها للديوان تتمثّل بثلاث ركائز (الشعر، الطفولة، الزمن)، وهذه الركائز كانت تحتاج إلى تأمّل عميق، وحفر في الذاكرة، تقول الشاعرة لويز غليك (نوبل 2020) «كلّ من يكتب يستمد قوته ووقوده من أكثر الذكريات قدما»، والعثور على الذكريات لن يكون إلا بعد تنقيب، وبحث، وحفريّات، ومحفّزات خارجيّة، وهذه تحتاج عزلة، وفي خضمّ ذلك، وفي لحظة صفاء ذاكرة، وروح حقيقيين، وقفت أمام عيني صورة ثلاثة تلاميذ يذهبون إلى مدرستهم الابتدائية وسط تساقط الأمطار، وهم

يردّدون أغنية للمطربة مائدة نزهت، كلمات:ذياب كزار (أبوسرحان)، وألحان:كوكب حمزة، كانت يومها جديدة (1970)، يقول مطلعها «همّه ثلاثة للمدارس يروحون»، وظلت تلك الصورة لا تبارح ذاكرتي، حتى كتبت نص «دروب التبّانة»:

بدروب طفولتهم
كانوا يمشون
إلى مدرسة العشق الأوّلْ
الوطنِ الأجمل
يمسك كلٌّ منهم
خوف التيه
أصابع صاحبه
وتلابيبَ المستقبلْ
ولأنّ الدربَ طويلْ
وبلا أشجارٍ
وظلالِ نخيلْ
كانوا
يزجون الوقت
يغنّون
معا:

«همّه ثلاثه للمدارس يروحون

همّه ثلاثة للمدارس يروحون»

وإذا بسيل جارف من الذكريات، والصور الشعرية، حتى اكتمل الديوان، فكان من ثمار العزلة الكورونية، وفي أوقات استراحاتي الشعريّة، كتبت عدّة نصوص مسرحيّة، كان أوّلها نص «ترتيش- مونودراما» بطلب من الفنان محمد هاشم في لقائنا الأخير بمهرجان «الفجيرة للفنون» في الأيام الأخيرة قبل تفشّي الجائحة، وتواصل معي مكرّرا طلبه، متمنيا أن يكون البطل شخصيّة هامشية مسحوقة، فاستحضرت من طفولتي شخصيّة «حسن» المصوّر الفوتوغرافي الذي كان مثالا للاستقامة والأخلاق وحسن السلوك في النهار، لكنّه حين يحلّ المساء، ويحتسي بضعة كؤوس من الخمر المحلي، ينهض المارد من مخبئه، ويتحوّل إلى شخص عدواني، يحاسب الجيران على ما اقترفوه بحقّه في نهار ذلك اليوم! والغريب أن هذا المارد الذي ظلّ مختبئا في ذاكرتي لأكثر من نصف قرن، خرج من قمقمه أيام الحجر المنزلي، مع مردة آخرين، ربّما، لأنني على مدى عقود لم أختلِ بنفسي خلوة طويلة، كما جرى في زمن (كورونا)!

الليل يستردّ هيبته!

لا يزال الليل ليلا أكثر من اللازم.

كافكا

مع بدء حظر التجوّل الليلي، في مسقط من السابعة مساء، وحتى السادسة صباحا، خلال الفترة من 25 يوليو لغاية الثامن من أغسطس 2020، وشمل الإغلاق التام بين محافظات السلطنة كإجراء احترازي، أقول: بدأت أنظر للنصف الممتلئ من الكأس، فمع الحظر عادت لليل هيبته التي فقدها بفعل الحركة اليوميّة المتواصلة في الشوارع على مدى 24 ساعة، مع أنها تخفّ ليلا عمّا تكون عليه في ساعات النهار، فقد خصّ الله تعالى الليل بالسكون، والركون إلى البيوت بقوله جلّ جلاله ﴿**وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا**﴾، وجاء في تفسير (الطبري): «وجعلنا الليل لكم غشاء يتغشّاكم سواده، وتغطّيكم ظلمته، كما يغطي الثوب لابسه لتسكنوا فيه عن التصرّف»، لكنّ الليل لم يعد في العقود الأخيرة، كما كان، إذ تعرّض للانتهاك، وهذه نتيجة طبيعيّة للتغييرات التي أحدثتها المدينة في حياة الإنسان، وقد أسهم التطوّر التكنولوجي في تعزيز ذلك، فصارت بعض محلّات البيع الكبيرة، تتباهى بأنّها لا تغلق أبوابها على مدى ساعات اليوم، ولو جرّبنا وقمنا بزيارة لها في ساعات متأخّرة من

الليل لوجدنا فيها العديد من الزبائن، وهو أمر متوقّع، فلولا ذلك لما فتحت أبوابها، وجعلت عمّالها ساهرين حتى مطلع الفجر الذي تبدأ معه دورة عمل جديدة مع عمّال شبعوا نوما، وأحلاما في بيوتهم، وقاموا مبتهلين إلى الباري، وعلى شفاههم أدعية الصباح: «اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه»، عائدين لمقارّ عملهم لمواصلة نشاطهم من حيث غادر زملاؤهم، ليناموا ساعات النهار، فينقلب نهارهم ليلا، وليلهم نهارا!

أستحضر نص الشاعر بدر شاكر السيّاب:

مات الفضاء سوى بقايا من مصابيح الطريقْ
مبهورة الأضواء تنصبُّ في جداول من بريقْ
صفراء تخنقها الظلال على فم الليل العميقْ

وكلّ هذا يحدث، لأنّ المدينة فرضت أسلوب حياتها على ساكنيها، ومع ذلك هناك دول ما زالت تحافظ على هيبة الليل والعتمة، فتفرض نظاما على المحلات، فتجبرها على الإغلاق بعد غروب الشمس في الظروف الاعتياديّة، وتشترط أن تكون الإنارة خفيفة جدا لمن يتطلّب عمله ذلك، كالصيدليّات، والفنادق، والمطارات، ومراكز الشرطة، وتُتّخذ كلّ تلك الإجراءات من أجل أن يشرق ضوء الأعماق، انسجاما مع مقولة شمس الدين التبريزي «لكلّ ليل قمر حتى ذلك الليل الذي بأعماقك»!

ويوما بعد آخر، صارت تلك الإجراءات نظام حياة، كما هي الحال في الصين، فالمطاعم تبكّر بتقديم وجبة العشاء، فالحركة تهدأ بعد غروب الشمس في الشوارع، بينما تعود بصخبها مع كلّ اشراقة شمس جديدة!

هذه الحالة نجدها بشكل واضح كلّما ابتعدنا عن المدن، وذهبنا إلى القرى، والمناطق الصحراويّة، كما اعتدنا أن نفعل بين حين وآخر، مع عدد من الأصدقاء الذين يشاركوننا هذا الشغف العارم بالطبيعة، ففي المناطق الصحراويّة والقرى نعثر على فردوسنا المفقود، فهناك ما زالوا ينعمون بليل «كموج البحر يرخي سدوله» على الأرواح، فنستمتع بمرأى النجوم التي تلتمع في الأفق، والقمر الذي يرسل أشعّته الناعمة للسواقي وأطراف الأشجار، فتنام الكائنات مع الشمس، لتصحو من جديد مع شمس جديدة تضيء سماء الكون والأرواح.

وبهدف استثمار ضوء النهار، انبثقت فكرة التوقيت الصيفي الذي تتبعه بعض البلدان التي ترى أن السهر على أضواء المصابيح هو إسراف لا ضرورة له، بينما النهوض المتأخّر هو «تبذير بضوء النهار»، لكنّ البعض يحبّ التسوّق والحركة في الليل تخلّصا من الزحمة، ويرى أنّ استثمار وقت الليل في العمل يخفّف من شدّتها، ويمكن أن أتفهّم هذا الكلام في مدن صناعيّة كبيرة، ومكتظّة بالسكّان، يشعر فيها الإنسان في ساعات الليل بالغربة:

عدنا غريبين

والليل ثالثنا

هكذا وشوشت قهوتي

لرذاذ سكّرها

أسماء الشرقي

لكنّنا في «مسقط»، ننعم بالعيش في مدينة هادئة، قليلة السكّان قياسا إلى عواصم الدول الأخرى، ماذا سيقول لو عاش في عاصمة كبكّين يتجاوز عدد سكانها (21) مليون ونصف، ومع ذلك تحافظ على أسلوب حياة هو أقرب ما يكون إلى أسلوب سكّان القرى عندنا؟!

كرتنا الأرضيّة تقاوم عزلتها

الغناء الجماعي يُحسّن الصحّة النفسيّة،
والحالة المزاجيّة، ويساعد في الشفاء.
دراسة بريطانيّة

إذا اعتبرنا أنّ أكبر تجمّع بشري بوقت واحد تحقّق أمام شاشات التلفاز لتسعين دقيقة أوأكثر في المباراة النهائية لكأس العالم بكرة القدم، وآخرها التي أقيمت في روسيا 2018، وقد بلغ 1.12مليار مشاهد من أنحاء العالم كما ذكر الاتحاد الدولي لكرة القدم (فيفا) وفازت بها فرنسا على حساب كرواتيا، فإن «كورونا» ضرب رقما قياسيّا في لملمة شتات بني آدم في بقاع المعمورة، البالغ عددهم 7.5 مليار نسمة، وأخرجها من الأماكن العامّة، والساحات، والشوارع، والمؤسسات، والنوادي، والمقاهي، والمطاعم، والمحلّات، وأجلسها في بيوتها، لوقت غير محدّد!

أحتاج عمر الليل كي
أصف انطفاءاتي وذعري
أحتاج كم وطنا! وكم
حضنا! وكم أمّا لصدري!

بسام صالح مهدي

وهـذا يكشـف لنـا كـم هـو جبـار هـذا الفيـروس الـذي لا يـرى بـالعين المجـرّدة! ولكـنّ الإنسـان، سيّد الأرض، يقـول تعـالى: ﴿**إنّـي جاعـل في الأرض خليفة**﴾ (البقرة:30) يظـلّ أقـوى، وأكثـر جبروتـا منـه، فلـم يقـف مكتـوف الأيـدي إزاء هـذا الوضـع الاسـتثنائي، والامتحـان العسـير الـذي وجد نفسه يسبح في دوّامته، إذ تواصلت جهود العلماء في إنقاذ البشريّة من هذا العدو الذي جعل الأخضر يباع بسعر اليابس!! وخـلال ذلـك سـعت شعوب العالـم إلى كسر جدران عزلتها، مستنهضة قواهـا، واقفـة في وجهـه بصـلابة، ومثـال ذلـك الصـور، والفيـديوهات التـي تصـلنا عـبر مواقـع التواصل الاجتماعي، وترينا كيف مدّت الجمـوع أعناقهـا مـن النوافـذ، في أوروبـا، ملـوّحين لبعضـهم الـبعض، مطلقـين الصـفير، ليشـعر الآخـر في البنايـات المجـاورة أنّهـم بخيـر، يبتسـمون، ويمارسـون حيـاتهم الطبيعيّـة داخل شرانق الذات، والعزلة الإجباريّة، ويحيّون الطواقم الطبّيّة، فرسـان الزمن الكوروني الباسلين، ويطلقون أناشيد جماعيّة ترفـع روح الحمـاس فيها. وهذه الأغاني هي أقرب ما تكون إلى أغـاني الحصـاد الجماعيّة التـي يؤدّيها المزارعون خلال عملية الحصاد، وأغاني العمـل المعروفـة في دول العالـم كلّهـا بهـدف زيـادة الكفـاءة في الإنتـاج وطـرد الملـل والتعـب، ومـن أبرزها أغاني العمل اليابانية، وأغاني عمال المناجم، وحتى المحكومون في السجون يؤدون عددا من الأغاني خلال إسناد بعض الأعمال لهم من قبـل سجانيهم، أمّا أغاني البحر، فهـي معروفـة في تـاريخ المنطقـة الغنـائي، وقـد وثقت علاقة الإنسان الذي يمضي أيّاما في رحلات الصيد والغـوص بحثـا

عن اللؤلؤ بالبحر، والهدف منها دفع الخوف والوحشة عن البحّارة، ورفع وتيرة الحماس، واشتهرت تلك الأغاني، وأدرجت ضمن تراثها الشعبي لمنطقة الخليج العربي، إذ تناقلت تلك الأغاني الأجيال المتعاقبة، وكلنا نتذكر أغنية شادي الخليج «هانحن عدنا، ننشد الهولو على ظهر السفينة»، وكثيرا ما تتردّد في مسامعنا:

«توب توب يا بحر

ماتخاف من الله يا بحر».

وكلّ تلك الأغاني تعبّر عن الروح الجماعيّة وتذكيها، وقد ابتكرها الإنسان لعدّة أهداف يقف في مقدّمتها توفير الدعم المعنوي لروح الفرد، فتمزجه بروح الجماعة، وهذا مانجد له شبيها في الوقت الراهن، وقد قرأت مؤخّرا تقريرا بثّهُ موقع «سكاي نيوز عربية» الإخباري، حول إحياء الشعب الدنماركي أحد التقاليد الغنائيّة التي تندرج ضمن الغناء المشترك، وهذا التقليد يظهر فى أوقات الأزمات، ويذكر التقرير أنّه يعود إلى الحرب العالمية الثانية، وظهر تحديدا فى مدينة ألبورج فى 4 يوليو 1940 بمشاركة ما يقرب من 1500 شخص، بعد ذلك «انتشرت ثقافة (أغنية المجتمع)، أو ما يسمّى الغناء المشترك السريع، مما أظهر الوحدة والشعور الوطني ضد الاحتلال النازي، ثمّ توسّعت لتشمل مئات الآلاف فى مختلف أنحاء البلاد، ومؤخّرا أطلق التلفزيون الدنماركي، دعوة حثّ من خلالها المواطنين على إحياء موروث «غناء المجتمع»، فاستجاب الدنماركيون، ومعهم رئيسة الوزارء مته فريدريكسن، إذ أدّت من مطبخها

برفقة ابنتها أغنية محلّيّة، عندما تمّ عرض البرنامج على المحطة الدنماركية».

إنّ إحياء الأغاني الجماعيّة هو نوع من محاولة كسر العزلة الفرديّة الإجباريّة، التي فرضها الفيروس، فالتباعد الاجتماعي لا يمنع الحناجر من أن ترفع عقيرتها بالغناء من أماكن متفرّقة لتنشد أغنية واحدة يقاوم من خلالها إنسان الكرة الأرضية الحصار المفروض عليه.

لم يكن أمام إنسان الكوكب سوى أن يقبع في بيته بانتظار انجلاء الجائحة.

حمّى البحث عن الرصاصة الفضّيّة

سنمضي أبعد مما نعتقد.. سنبحث عن المكان الذي تولد فيه نجمة الصبح.. وسنفاجأ لدى وصولنا، بأن الأمر كان أسهل مما تصوّرنا.

باولو كويلو

لا أحد يحبّ لغة الطلقات، ولا أصواتها المفزعة، وبالنسبة لي، لا أرغب سماعها حتّى في السينما والمسرح والدراما التلفزيونيّة التي يلجأ إليها بعض المخرجين لتصعيد الإيقاع دراميا، لكن الجواب المحبط لرئيس منظمة الصحة العالمية بخصوص مستجدّات اللقاح المرتقب لعلاج كورونا، وتصريحه بعدم وجود طلقة فضّيّة في ذلك الوقت (17-12-2020)، أصاب رأس الأرض بدوار!!

وتساءل البعض يومها عن سبب استخدامه تركيب «الرصاصة الفضّيّة» كناية عن عدم التوصّل للقاح الذي سيلوي عنق (كورونا)، فحسب المعتقدات الشعبيّة، الرصاصة الفضية هي السلاح الوحيد الذي يقضي بشكل نهائي على الوحش، ويعود أصله إلى حكاية تتحدّث عن ذئب ضخم على شكل وحش يقتله أحد الصيّادين بواسطة بندقية محشوّة برصاصات فضية، وفي أحد الأغاني الشعبية يدّعي أحد المتمرّدين بأنه

لا يتأثر بالأسلحة العاديّة، فيصنع أعداؤه طلقات فضية للتخلّص منه، وعندما تفشّى الفيروس، ظلّ العالم ينتظر تلك الطقات التي ستجعل الحياة آمنة، وظلّ الحديث حول تجارب يجريها العلماء لإنتاج لقاح يكفينا شرّه مستمرّا، وكنا نأمل ألّا يطول ذلك الانتظار، لكنّ النتائج كانت مخيّبة للآمال، ووقف الطبّ عاجزا عن ذلك، لذا لجأنا إلى مراعاة التباعد الاجتماعي، واستخدام المعقمات والكمّامات ورفع المناعة كحلول مؤقّتة، باعتبار أن «الوقاية خير من العلاج» طالما أن الأخير غير متاح في ذلك الوقت، لكن عيوننا ظلّت تنظر إلى اللقاح، نظرتنا للسيارة البيضاء التي كانت تقف بباب مدرستنا الابتدائية بين وقت وآخر، وينزل منها أطبّاء ومضمّدون، يدخلون غرفة المدير، وتسود حركة غير معتادة في المدرسة، ثم يأتي المعلم ليقود طابورنا إلى غرفة المدير، ومعنا حقائبنا، فنرى ضيوف المدرسة قد تصدّروا المكان بصدرياتهم البيض، ورائحة الديتول والحقن، وهنا ينطق المعلم قائلا بلغة يؤطّرها دلال مفاجئ: «سنعطيكم لقاحا ضدّ المرض الفلاني» -بحسب المرض المنتشر يومها، وكنا نعيش مرحلة شهدت سريان العديد من الأمراض كالجدري، والتيفوئيد، والكوليرا، والسلّ الرئوي- «وتخرجون للبيوت، وغدا إجازة» ثمّ يكمل قائلا: «ليجهّز كلّ منكم ساعده، ليأخذ اللقاح» ثم يلوّح بعصاه الغليظة: «ومن يرفض ذلك، ستجعله العصا يمدّها طائعا» عندها نستسلم للأمر الواقع، ولم يكن الأمر بالبساطة التي نظنّ، فقد كنا نشعر بانتفاخ المنطقة التي تغرز بها حقنة اللقاح، وغالبا ما تكون مصحوبة

بارتفاع درجة الحرارة، وشيئا فشيئا نتعافى، لنستمتع بإجازة لم تكن تطرأ على البال، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحدّ، بل تتكرّر تلك الزيارة بعد أسابيع مع انتشار مرض جديد، لكن انتظارنا اليوم للقاح ضدّ كورونا طال، حتى بدأت الشكوك تظهر حول جدّيّة الدول الكبرى في ذلك، فمع تفشّي الوباء بدأت الشائعات المرافقة لأخبار اللقاح تكثر، وظلّت تجارب الاختبارات مستمرة، وعمل شركات الأدوية على قدم وساق، وانطلقت حملات توعويّة لتحضير أذهان الناس لتقبّل فكرة اللقاح، فالبعض يخشى الأضرار الجانبية، مثلما حصل مع أحد المتطوعين الذين زُرقوا بجرعة من لقاح جامعة أكسفورد البريطانية، «فتعرّض لأضرار جانبية خطيرة، لدرجة أن الفريق الطبي المشرف على التجربة، قرّر إيقاف العمل به»، ومع ذلك لم يتوقف تدفّق المتطوّعين الجاهزين لتلقي جرعات اللقاح، وقد تزايدت أعدادهم حتى بلغت الآلاف، كما تنقل وسائل الإعلام التي حين تتساءل عن إنتاج اللقاح والمراحل التي قطعها، يأتي الجواب «إنه ليس محتملا، لكن ليس مستحيلا» كما قال كبير خبراء الأمراض المعدية في الولايات المتحدة د. أنتوني فاوتشي، نقلا عن البي بي سي العربية، وهو جواب لا يشفي غليلا، ولا يسمن، ولا يغني من جوع، وجاء خبر رويترز بموافقة الحكومة الإماراتية» على الاستخدام الطارئ للقاح يخضع حاليا للمرحلة الثالثة من التجارب، ليتاح لأفراد خط الدفاع الأول توفير كافة وسائل الأمان لهؤلاء الأبطال وحمايتهم من أي أخطار، لينعش الآمال.

ويظلّ الاقتصاد طرفا في معادلة اللقاح، أمّا بقية الأطراف، فقد تقاسمتها السياسة والتحالفات الدوليّة والاستعراضات الإعلاميّة وإفراد العضلات العلميّة، خصوصا أن الفيروس لم يستثن أحدا، وكم كانت الصدمة كبيرة عندما أعلن الرئيس الأمريكي السابق عن إصابته وزوجته، كما نقلت إذاعة البي بي سي العربية. وجاء ذلك بعد الإعلان عن إصابة هوب هيكس، إحدى أقرب مساعديه، بالفيروس، يومها تساءلت مع نفسي:

يا ترى،
من يحكم كوكبنا؟ ترامب أم كورونا؟
الرجلُ الأحمرُ
في البيت الأسود
حين اعتل
داخ الناس
بعالمنا
ومضى الكل
يضربُ بالأسداس
الأخماس
ويسألْ:
مَنْ يحكمُ كوكبنا الأدردْ؟
هلْ

في حضرة (كورونا)

نجد الحلْ؟

وسرعان ما تعافى من الإصابة، وعاد إلى البيت الأبيض يوم 6 أكتوبر 2020، وبعد أربعة أيام ظهر بدون كمامة لأنصاره معلنا أنّه في «حالة رائعة»، مؤكدا «أن بلاده تمتلك أدوية وعلاجات لمكافحة كورونا، وقد أنتجنا لقاحات سيتم طرحها قريبا»، وبذلك جرى إطلاق أول رصاصة فضّيّة على الوباء.

أعراس ومآتم

في السماء، لن يسألنا الله عن السبب في أننا أخطأنا،
ولكنه سوف يسألنا: لماذا لم نتب؟

البابا شنودة الثالث

حين قرأت بيت الشاعر أحمد شوقي:

وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها عرسا أقيم على جوانب مأتم

للوهلة الأولى، لم أفهمه، ليس لأنني كنت يومها في المرحلة الابتدائية، بل لأن الشطر الثاني يجمع المأتم، والعرس في مكان واحد!

وبدت الحيرة واضحة على وجوهنا، فبذل المعلّم الذي كتبه على السبورة بخطّ جميل في مادة الخط العربي، جهدا ليس بالقليل، لكي يقرّب المعنى لأذهاننا، قبل أن يطلب منّا رسم البيت بدفاترنا، مثلما رسمه على السبورة بخطّ الرقعة، وتكرار ذلك عدّة مرّات، إلى نهاية الصفحة، وفي كلّ مرّة يكبرالسؤال. وبعيدا عن الأثرالسلبي الذي يمكن أن يتركه هذا البيت في نفس طفل ينظر للحياة بعين مليئة بالفرح، كنت أجد صعوبة في استيعاب جمع النقيضين، وقبل أيام وأنا أقرأ خبرا بثته الوكالات عن عرس خلّف مآتم كثيرة تذكرت ذلك البيت المحفور في ذاكرة الطفولة، ففي الخبر الذي بثّته وكالة الصحافة الفرنسية، اجتمع العرس بالمأتم، وتمخّض عن مآتم على جوانب عرس واحد، ليقلب المعنى منسجما مع وقائع الخبر الذي

يتحدّث عن حفل زواج أقيم في الهند، انتهى بوفاة العريس بعد الحفل بيومين، لكونه كان مصابا بفيروس «كورونا»، دون أن يعلم، تلك المأساة لم تتوقف عند تلك الفجيعة، بل تعدّت ذلك إلى إصابة العشرات ممن حضروا حفل زواجه الذي شارك به أكثر من 400 مدعو، ولم تتوقف الإصابات عند هذا الحدّ، بل حضر200 شخص جنازته ومأتمه، ويمكننا تخيل حجم الكارثة التي حصلت في ولاية بيهار الهندية!! والسبب أنّ الجميع لم يتّبع آليّة التباعد الاجتماعي، ولم يتّخذ الاجراءات الواجب اتّباعها في حالة اضطراره للخروج من البيت كوضع الكمامات، والمحافظة على مسافة الأمان، وتعقيم اليدين، وتجنّب المصافحة، والعناق، وهذه أصبحت من الأمور المسلّم بها، لكثرة تأكيد الجهات المسؤولة والأطباء ووسائل الاعلام على ضرورة ذلك، لا سيّما، ونحن نعيش ظرفا حرجا شهد تزايد أعداد الإصابات بالفيروس، والحالات المنوّمة بالمستشفيات والوفيات، بما يوحي أنّنا نعيش ظرفا أشبه ما يكون بظرف حرب! فلا يكاد يمرّ يوم دون أن نقرأ أخبارا في مواقع التواصل الاجتماعي عن فنانين، ورياضيين، وأدباء، وأفراد من عامّة المجتمع، فقدوا حياتهم بعد إصابتهم بالفيروس القاتل، وهذه المواقع صارت تحمل لنا صورا مؤلمة عن موارة جثامين الراحلين، وكم كان من المحزن مشهد حمل الفنانة الراحلة رجاء الجداوي بتابوت حديدي، بخطوات حذرة، وبدون تشييع!

ونحن هنا لا ندعو إلى إيقاف حركة النشاط الاجتماعي، فقانون الحياة هو الاستمرار، لا شيء يعترض عجلة الحياة، ولكن لئلا تحصل مأساة كالتي حصلت للعريس الهندي الذي تحوّل عرسه إلى مأتم جماعي!!

مراسلات وحكايات للنجاة

في الحياة نعمتان:
الكتب والأصدقاء
وعلى المرء أن يمتلكَ هذين الشيئين على نحو مختلف:
أكبر عددٍ من الكتب وقلةٌ قليلةٌ من الأصدقاء.
الكاتبة التركية إليف شافاق

في خضمّ عزلتي أعجبني اقتراح نشرته الكاتبة روعة سنبل عنوانه «الديكاميرون 2020.. نحكي لننجو»، وقد مهّدت لمقترحها بقولها «في (الديكاميرون) كتاب الإيطالي بوكاشيو الذي ألفه في القرن الرابع عشر، يهرب ثلاثة شبان وسبع شابات من فلورانسا- إيطاليا في زمن الموت الأسود، ويتجهون نحو منطقة ريفية هربًا من الطاعون الذي كان يجتاح أوروبا في تلك الفترة، في كل ليلة يتم اختيار واحد من هؤلاء العشرة ليكون ملكًا، من حقّه أن يحدّد في بداية الليلة موضوعًا للحكايات، وهكذا ومع الصباح ستكون الحصيلة عشر حكايات، فحكى أبطال بوكاشيو مئة حكاية في عشر ليال، كي يبعدوا شبح الموت، وكي يقتلوا الوقت في عزلتهم، وكي يبتعدوا عن أخبار الفظائع التي يصنعها الوباء، وتضيف: «نحن نحكي لننجو، هذا ما أراد بوكاشيو قوله، وهذا ما قاله كتاب (ألف ليلة وليلة) قبله، ويتلخّص مقترحها بأن يختار «أحدنا كل يوم ثيمة معينة

لحكايات اليوم، لن نكتب، بل سنجمع، أي سنحدد الثيمة، ونجمع طوال اليوم القصص القصيرة التي تحكي عن هذه الثيمة، وننشرها مرفقة بهاشتاغ معين، يمكن لمن يرغب في القراءة أن يعود له. يمكن للشخص أن يضع قصة من أحد كتبه هو، أو قصة قرأها في مكان ما، لا يهم إن كانت عربية أو مترجمة، لا يهم إن كانت قديمة أو معاصرة، المهم فقط أن تكون حول الثيمة نفسها».

ولا أعرف هل راقت الفكرة للأصدقاء، وهل جرى تنفيذها؟ وفي كل الأحوال كان الجميع يبحث عن هراوات يكسر من خلالها طور عزلته، ولو بالكلمات.

أمل يتأرجح

كلّ شيء سيتحقّق في أوانه لمن يعرف كيف ينتظر.

ليو تولستوي

استثمر الكاتب واسيني الأعرج فترة الحجر المنزلي خير استثمار، فأنجز عدّة أعمال، بدأها بروايته «رمادة.. كائنات كوفيلاند اليتيمة»، التي صدرت عن دار الآداب، العنوان يحيلنا إلى عام الرمادة الذي حدث في خلافة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، وهو عام مجاعة جعلت الخليفة يوقف العمل بحد السرقة حتى نهاية عام الرمادة، الذي يحدّده المؤرخون في أواخر سنة 17 هـ وأول سنة 18 هـ، وكان الأعرج ينشر فصلا من روايته في صفحته بالفيسبوك، في كلّ خميس من كل أسبوع، ويطرحها للنقاش، مع المتابعين، وكان يأخذ بملاحظاتهم، كما قال لنا في حوار افتراضي، فكانت مهربا بالنسبة له من الخوف والقلق مع ارتفاع أعداد الوفيات في فرنسا حيث يقيم، فالكتابة تمدّه بالقوّة ليواصل الحياة، وقد أشرك الكاتب قراءه في وضع نهاية الرواية الاحتمالية كما أسماها، وبذلك يمكن القول إنها كانت تجربة في كتابة رواية تفاعلية.

وتحت عنوان «أغلفة العزلة» كتب الدكتور حاتم الصكر في ناشفل-تينسي الأمريكية حيث يقيم «يوميات الجائحة» في مارس2020: «بين

الوقاية والعلاج يتأرجح الأمل، ولا جديد يطمئننا، وتظل أسئلتنا كقلقنا.. كخوفنا في مهب الريح العاتية.. التسوّق هو الآخر صار فعلًا محفوفًا بتداعيات الفراغ الكوروني المفاجئ.. العربات الطافحة بالمواد شيء لم أعهده في أسواق مدينتي والحي الذي أعيش فيه منذ تسعة أعوام.. كنا نتندر إذ ينتقي المتبضعون حبّات مفردة من الأشياء، ويمضون خفافًا دون عناء.. وهاهم اليوم يتسابقون كما في ميدان تنافس ليحصلوا على ما هو متاح.. عربات التسوّق المثقلة، الأيدي الناعمة والأرجل المرتبكة، وتترك دلالة الشراء علامة على زيارة السيدة المتطفلة (كورونا)، تصاحب حمّاها حمّى التبضع والخزن بآلية الخوف الذي أعاد الإنسان إلى طبعه لا تطَبّعه، مثل سنورات (قطط) الحكاية الشعبية اللائي ألقين الشمع المدرّبات على حمله في مجلس الوزير تأدبًا، وتراكضن ليصطدن الفأر الملقى بحيلة خبيثة أمامهن.. وعدْنَ قططًا فحسب، يلقين شموع الأناقة والتأدب؛ ليصطدن ما يحسبنه للقادم من أيام العزلة».

الاعتصام بالجدران

أنا في وحدتي بلد مزدحم.

روفائيل البرتي

عدد من الشعراء والأدباء دأبوا على نشر يومياتهم في صفحاتهم بمواقع التواصل، وقد تابعت يوميات الشاعر شوقي عبدالأمير الذي ذهب إلى العمق بعيدا، فجاءت يومياته على هيئة نصوص فلسفية عميقة. يقول في يوميات الحَجْر المنشورة بصفحته الشخصية يوم 31/ 3/ 2020: «أدخلُ غُرفتي الآنَ، إنها الجدرانُ التي تَعْصمُني، فيها سأجدُ حُرّيتي، الحرّيةَ العاريةَ التي كنتُ أخافُ رؤيتَها، الحريّةَ التي تحُيلُ الخارجَ قناعًا جسدًا لروح خفيّ، الحريّةَ التي عبرها أرى الغابةَ كما أريدُ أنا لا كما تُريدُ هيَ أي أنْ أخرُجَ من سَطوتِها لأنظر إليها من الأعلى، أو من الأعمق.. لن أتضاءلَ ولن أُهادنَ قامات أشجارها ولن أترك صريرَ جُداجُدِها يستحوذُ على صمتي، غابةٌ أُعرّيها بخريفي وأُلبسها ربيعي أنا.. أو أنْ أدعو أصدقائي إلى مائدة وأراهم كما هم بعيدًا عن مشاهد اللياقةِ والجمل الجاهزة التي أسمعُها قبل النطقِ بها.. أفهمُ الآن صاموئيل بيكيت الذي قال لي يومًا إنه كان يقضي مع صديقهِ جيمس جويس ساعات في النزهة لا يتبادلان أثناءها كلمةً واحدةً.. كان كل واحدٍ بين جدرانهِ وهما يتحاوران، تعَلّمتُ

من حبيبتي الغائبةِ عنّي كيف أجدُ أعظم الاشياء بيني وبيني وأنّ الفقْدَ هـو أوهى الأغشية التي تُغلّفُ الحقيقة سيقولُ المؤمنون إنه اللهُ والصوفيّون إنه بئرُ الأنا التي لاتُحدُّ.. اعرف كلّ هذا وهو ما يجعلني أدّعي على فيزياء الجدران قُدراتٍ خارقةً، لكن لا يصلُ بي الأمرُ إلى أنْ أربُتَ على كتفِ حائطٍ أو أنْ أضع خدّي علي بتلاتِ زهراتِ اللوتس ولو أنّ صديقي غيّوفيك كان يقول: «عندما تَهبُّ العاصفةُ أحتمي بمزهريّةٍ من فخّار»، لكنّي سأتركُ دموعي تتساقطُ انتشاءً..».

الداء والأصدقاء

لا يتسنى للإنسان أن يجد، أو يكوّن له إخوة، أو أصدقاء حين يرغب، أو كما يريد، لأنّ هؤلاء لا يكوّنهم إلّا الزمن.

عبد الرحمن منيف

وسط تلك الدوّامة من الخوف، والقلق، وإصابة أصدقاء فنانين، ومن بينهم صديقي المخرج وديع نادر الخزرجي، نقل الخبر لي صديقي الإعلامي علي الكناني، وبعد أسابيع، أصيب الكناني أيضا، وصديقي عبد العزيز النجدي المقيم في باريس مع أفراد عائلته، وأصيب أصدقاء آخرون، وأمضى الإعلامي اليمني الصديق وليد جحزر أسبوعين في العناية المركّزة!

ورسمت الشاعرة، والتشكيليّة التونسيّة الصديقة أسماء الشرقي بالكلمات صورة للوباء حين يغرس أنيابه في جسد ضحيّته، وتقول إنّها بهذا النص النثري دوّنت أحاسيسها بعد معاناة مع المرض، رغم أنها لم تراجع مستشفى، ولم تتأكّد من إصابتها، لكنّها عزلت نفسها، وخضعت لتعليمات زوجها الطبيب حتى تعافت: «أرى الوباء هذا الكائن الشفاف الذي أشعر بحدسي البدائي أنه يتجوّل في دمي منذ أسابيع.... يلهو كطفل

مشرّد حافي القدمين وبين يديه مشرط حاد، يقتطع به بين الفينة، والأخرى حبال أنفاسي البالية فيحدث في أرجائي رجّة الغريق العالق بين موجة وموجة.... ثم يدرك هذا الطفل العاق... فيصعد مهرولا صوب صدغي، ويغرس أظافره الصغيرة الملونة بدماء قلبي، عندها فقط تنتابني صرخة الغياب عن مداخل الإدراك وأسلم جسدي الخاوي لقطرات العرق التي تعتصر ثيابي، يتبدد الوقت كدخان البراكين وأحتكم مجددا لمنطق القوة التي زرعت فينا رغم وهن هذه المادة الشفافة التي ترتدينا، أكابد أوهامي الحقيقية، وأدندن بأعلى حلقي المبحوح: الأحلام أدعية مستجابة من قلوب تؤمن بقدرة الخالق، ثم استجيب لسباتي، والطفل التائه يواصل جولته المجنونة».

ويا لها من جولة، وخطى ثقيلة تركت آثارا لا تمحى على النفوس!

وبقيت على تواصل مستمر مع الأصدقاء، لكنّ التواصل انقطع مع الكاتبة السورية جيهان رافع التي وافتها المنية يوم 23 أبريل 2021 في مسقط، بعد أكثر من 7 سنوات من الإقامة فيها، وكان آخر إصداراتها رواية «موت في حياة ما»، ضمن منشورات الجمعية العمانية للكتّاب والأدباء، وكأنّها في اختيارها العنوان كانت تشعر بدنوّ أجلها! وقبل ذلك كلّمني الصديق الشاعر فضل خلف جبر المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، بصوت متهدّج يغصّ بالكلمات، لينقل لي خبر رحيل شقيقه الأكبر الحاج هاشم، ولتوقّف حركة السفر والطيران، وعدم قدرته السفر إلى العراق حيث توفّي ودُفن، فقد كان وقع الخبر أليما. بعد أن عزّيته

وأغلقت الهاتف استحضرت جلوس الراحل الذي عصفت بجسمه أمراض الشيخوخة في باب (الديوان)، في زياراتي المتكرّرة لسكن الشاعر فضل خلف جبر في الناصريّة، في ثمانينيات القرن الماضي، وكان يهشّ عند استقبالنا، وعلى الفور، يأخذ مكانه من (الديوان) قرب الباب وسط دلال القهوة، ليعدّها بنفسه، بعد أن يطحن حُبيباتها بالهاون ويشعل الموقد، كلّ ذلك يجري بهدوء، قبل أن تملأ رائحة القهوة المكان، وبصمت حكيم، كان يصغي لحكاياتنا عن الحياة، وأحلامنا البيض العريضة، الشعر، ويبتسم، كان كمن يستعيد شبابا أمضاه على ضفاف الأهوار، والفلاحة، وصيد الأسماك، والطيور في (الفهود)، ولن يعلّق إلّا إذا اقتضت الضرورة أو سألناه، إذ يجيب باقتضاب يتخلّله صمت تؤثّثه حكمة رجل عركته الحياة، ثم يستعدّ لاستقبال من يطرق باب الديوان، وهل كان لديوانه باب؟ لقد كان مفتوحا للصغار، والكبار، في صفحته كتب الشاعر فضل:

عجبتُ لبحر صبرك أن يسجّى ... على نعش، وشمسك أن توارى
وكنت القلب، خفّاقا حنونا ... وكنت الروح مفترشا ودارا
جُزيت عن الأخوّة كلّ خير ... فمثلك لا يُعاب ولا يُجارى

لقد كان «محضر الخير» كما أسماه الصديق الشاعر جواد الحطاب الذي أبلغني بعد حين أنّه أصيب بالداء مع أفراد من عائلته، وأوصاني بالتكتّم على الخبر لعدم قدرته على الردّ على استفسارات الأصدقاء والمحبّين، فلم أنشره، لكنّني اكتفيت بإبلاغ الدائرة القريبة من الأحبّة

لشعوري بحاجة الإنسان لأخيه الإنسان حينما يكون في مثل هذا الظرف الصعب، فالصديق يمكن له أن يحدث فارقا في مواجهة المرض، فيقف حجر عثرة في طريق الداء الذي وضعه الشاعر أبوالقاسم الشابّي في صفّ الأعداء حين قال:

سأعيش رغم الداء والأعداءِ كالنسر فوق القمّة الشمّاءِ

ويمكن أن توصف مقاومة الجسم للعدو (الداء) بالمعركة التي يحمى وطيسها كلما كان العدوّ شرسا والجسم صامدا في المواجهة، وحين يشعر الجسم بالضعف يستعين بما يقوّيه ويعزّز قدراته، وإذا كانت الأمصال تنفع الجسم في اليوم الأسود فمن للروح الملتاعة التي تراقب نتائج تلك المعركة الشرسة بقلق غير يدٍ حانية، تمتدّ لتخفّف أوجاع الروح، وتطمئنها، غير الدائرة القريبة من الأهل والأصدقاء؟ لذا يلجأ المريض إلى المقرّبين منه لكي يستند عليهم معنويّا، ومن هنا فكلامهم، يصبح العصا التي يتكئ عليها، لينتصر على الداء، وهكذا انتصر الكثيرون عليه بفضل مساندة الأصدقاء، يقول الإمام الشافعي:

جزى الله الشدائد كل خير وإن كانت تغصّصني بريقي
وما شكري لها حمدا ولكن عرفت بها عدوي من صديقي

وفي مثل هذه الظروف لا نجد سوى الأصدقاء المقرّبين لنبوح لهم، وزادت جرعة تواصلي مع أصدقائي المتناثرين في شتى بقاع الأرض: عدنان الصائغ، فضل خلف جبر، جواد الحطاب، د. سعد محمد

التميمي، ، د. أحمد الدوسري، د. صادق رحمة، محمد البريكي، وفي مسقط وسام العاني، وسعيد الصقلاوي، الذي حال (كورونا) دون لقائنا اليومي المعتاد، فاكتفينا بالتواصل الهاتفي، مثلما تحوّلت اللقاءات إلى اتصالات مع الأصدقاء، وحين كلّفني الدكتور صادق رحمة بكتابة رسالة لصديق يدرجها ضمن كتاب (رسائل كورونا) وجّهتها للصديق الشاعر عدنان الصائغ، لأنّني كنت في فورة انغماسي بمراجعة مخطوط كتابه «نرد النص»، وحين انتهيت من قراءته، طلب منّي كتابة ملاحظات، فوجدت في دعوة الدكتور صادق مناسبة لتدوينها، رغم أن الصائغ تراجع عن طباعته، ليضيف له صفحات عن (كورونا)، كونه في (نرد النص) انعطف على وقائع كثيرة جرت في ربع القرن الأخير، ولا بدّ أن يفرد مساحة لـ«مالئ الدنيا وشاغل الناس»... كورونا!

رسالة إلى الشاعر عدنان الصائغ

وأنا وأنت على الطريقِ

ظلّان منكسران

في الزمن الصفيقِ

إن جار بي زمني

اتّكأت على صديق.

الصائغ

تحية شعرية عطرة، وبعد

أرجو أن تكون والأسرة، والأولاد، والأحفاد، بصحّة جيّدة وأمان..

في البدء أبارك لك الانتهاء من كتابك الشعري الضخم «نردّ النص» بعد عمل شاق من الكتابة، والمراجعة، والتدقيق، والإضافات، والحذف، وأظنك ستضيف له فصلًا عن «كورونا»، وما أحدثته في حياتنا مثلما وثّقت الكثير من الأحداث التي عصفت بعالمنا خلال سنوات كتابته الـ(25)! وأوراقه التي تربو على الـ(1300 صفحة)! وكانت قراءتي لمخطوطته أوّل ما ابتدأ «زمن كورونا» بعد توقف الحركة، وسأذكر لك انطباعي الأوّل عنه بعد أن أطمئنك على أوضاعي هذه الأيّام، لا سيّما ونحن نعيش وضعًا استثنائيًا، يكفي أنّه أملى عليّ معاودة التواصل معك عبر لغة الرسائل التي كنا نتبادلها في بغداد الثمانينيات ومطلع التسعينيات، حين كان يعزّ علينا اللقاء، وتكثر الأزمات في

محيطنا الخارجي والداخلي أيضًا، ثم تطوّر الأمر بعد لقائنا الذي لم يدم سوى شهور قليلة في عمّان، بعدها شددتُ الرحالَ إلى «صنعاء»، بينما جمعت مسودّات وقصاصات مخطوطة «نشيد أوروك» ووضعتها في حقيبة صغيرة لا لتلتحقَ بي، أنتَ الذي كتبتَ لي في رسالة سابقة من «صنعاء» حين زرتَها في 1993: «لن تقرأ يا رزاق سطورَ التاريخ إذا لمْ تزرْ صنعاء». بل لتتّجه إلى دمشق، ومن ثم إلى بيروت، لينتهي بك المطاف في مالمو، وظلّت لغة الرسائل تقرّب تباعدنا، واليوم، ونحن نعيش زمن (كورونا) الملتبس، صار التباعد مفروضًا، فمكثنا في بيوتنا حفاظا على حياتنا المهدّدة على الدوام بالحروب، والانكسارات، والخسارات، والمجاعات، والأوبئة، لذا برزت حاجتنا للتحدّث إلى من نحب. أذكر أنني قرأت أنه في الألف الثاني قبل الميلاد وجدوا بيتا لشاعر فرعوني على هيئة سؤال يعكس شعوره بالوحدة، فيتساءل ذلك الشاعر المجهول: «إلى مَنْ أتحدثُ؟»، لكننا في زمن كورونا ألفنا الصمت الذي هو وقود الكتابة، وقد عبّر عنّا جلال الدين الرومي حين قال: «حين أصمت ثمة رعد يختبئ داخلي». هذا الرعد اشرأبّ عنقه، وجعلني ألجأ لكتابة رسالة إليك، محاولا الإجابة عن سؤال كنتُ أطرحه على نفسي هو: هل نجح فيروس (كورونا) في عزلنا اجتماعيّا؟ وصنع فجوات في علاقات بعضنا بالبعض الآخر؟

بالنسبة لي، أرى أنّ ما جرى لنا هو العكس، فقد قضى على الزوائد والطفيليّات التي كثيرًا ما شكونا منها، وتلك الطحالب الاجتماعيّة التي نمت على جلد حياتنا، واستهلكتنا، وشغلتنا عن أناس يستحقّون منّا اهتماما أكبر،

ولا أقصد محيط الأسرة والعائلة والأصدقاء الحقيقيين النادرين فقط، فهذا محيط أساسي محاط بهالة قدسيّة لا يمكن المساس به، بل أعني علاقاتنا في المحيط الأوسع، فمعظم تلك العلاقات تفرضها الاهتمامات والدوائر المشتركة، ويوما بعد آخر تتّسع، وتكبر الهوامش لتصبح هي المتون، فنفقد قدرتنا على السيطرة على امتداداتها، وندخل مناطق الأوهام، ونظنّ أن لا حياة لنا بدونها، بل من الصعب للحياة أن تستقيم وتمتدّ من غير أن تكون ضمن مشهدها العام، وجاء (كورونا) فارضا علينا استراتيجية «التباعد الاجتماعي» بدلا من التقارب، كوسيلة من وسائل مقاومته، لينقذنا من هذه الأوهام، وليضع كلّا في مكانه الصحيح، ويزيح الغبار عن الصورة لتتّضح ملامحها أكثر، وتعود الأشياء إلى نصاعتها وفي بداية سريان الحجر المنزلي، وتوقّف الأنشطة وجّه لي صديقنا الشاعر مخلص الصغير سؤالا ليدرجه ضمن ملف أعدّه لمجلة «الجديد»، السؤال هو: «ماذا تفعل في البيت، حاجرًا نفسك، ومحجورًا عليك...؟»، فكان جوابي له هو: «هذا الوضع ليس بجديد على أمثالي، ممن عاشوا في العراق أيام حرب الكويت عام 1991 حينما هجمت على بغداد أكثر من ثلاثين دولة تقودها أمريكا بهدف تحرير الكويت، فقصفت الطائرات الأمريكية بغداد، وقطعت الجسور، ومراكز الاتصالات، والكهرباء، وشلّت الحياة، وكنت يومها منتدبًا للتدريس، فتوقّفت المدارس، ومكثنا في البيوت (42) يومًا حتى خروج الجيش العراقي من الكويت وانتهاء القصف، فكانت أيام عزلة مطلقة عن العالم، بلا كهرباء، ولا اتصالات، وكنّا نتابع الأخبار من مذياع ترانزستور صغير يعمل على البطارية، فقد كان الحصار الدولي قد فرض

على العراق، فزاد ذلك من معاناتنا، لذا، اعتدنا العيش في ظلّ الأزمات، ثانيا: أنا من النوع الذي يحبّ البيت، وينفر من العالم الخارجي، ولذا انسجمت تماما مع الوضع الجديد، وأرى أن الكاتب يحتاج إلى ذلك، فقد كان (سيوران) يرغب في أن يكتب على باب منزله «كل الوجوه تقلقني، كل زيارة هي اعتداء عليَّ، ارحموني، لا تدخلوا رجاءً، ملعون من يدقّ الباب». لقد وفّرت لي ظروف الجائحة فرصة مناسبة للعزلة، فلا يمكنني اعتبارها عزلة كاملة، لأنّني غير منقطع عن المحيط الثقافي والاجتماعي، أتابع تطورات الحالة عبر وسائل التواصل، وأحاول أن أكون جزءًا من المشهد العام، أشارك في الحملات و«الهاشتاقات» التي تدعو لعدم الخروج من البيت والالتزام بالإرشادات الطبية الواجب اتباعها، من تجنب المصافحة، والخروج من البيت إلَّا للضرورات القصوى، والمحافظة على النظافة، وتعقيم اليدين، وتقوية المناعة، ومتابعة التطورات، وما يجري في العالم الخارجي، لذا شعرت أن هذا أفضل وقت يمكنني قضاؤه في القراءة والكتابة، فقد اتاح لي المكوث في البيت فرصة ممارسة الهوايات المحببة لدي، كالقراءة والكتابة وسماع الموسيقى، والمشي ضمن برنامج يومي، علما بأني أفعل كل ما ذكرت بمتعة عالية، ولا يوجد لدي شعور بأني سجين أبدًا، بل أشعر أن لدي حماية حصينة من العالم الخارجي الذي لن يستطيع الاعتداء على عزلتي، وسيتركني أترجم خططي الكتابية: الشعرية والنثرية، والقرائية الناقصة، التي كان السفر يؤجّلها، والتكليفات، ودعوات المشاركة في الندوات، والبرامج، والالتزامات الاجتماعية التي تخففنا منها بفضل منع التجمهر والخروج والتجمعات،

وكانت الحصيلة جيدة، فقد أنجزت مجموعتي الجديدة «شياطين طفل الستين»، والمجلد الثالث من أعمالي الشعرية، وكتبت أكثر من نص مسرحي، وراجعت كتبا، وأعمالا إبداعية، وواصلت كتابة مقالي الأسبوعي «هوامش ومتون» الذي اعتدت نشره في جريدة «عُمان»، ومقالي الشهري في مجلة «القوافي» إلى جانب مقالات أخرى، وحوارات، وقد أتاح لي الفضاء الافتراضي فرصة المشاركة، ومتابعة العديد من الجلسات التفاعلية.

أخي العزيز،

الآن أعود إلى ما بدأتُ به رسالتي، بما انتهيتَ أنتَ به من نتاج شعري سيكون تتويجًا لكلّ ما كتبتَ، وأعني كتابك «نرد النص» فقد وجدت به نصًّا طويلًا مفتوحًا على مصراعيه لدخول الدهشة، عبر نافذة تطل على الذات، والتاريخ الشخصي، والتاريخ العام، والثقافات، والأديان، والأساطير، والفكر، والشعر، والسرد، والبحث، والذاكرة الشعبية، والشفاهية، والمتداول، والغائص، والغاطس من الأحداث، والهامش الذي يصبح متنًا، والمتن الذي يتنازع مع الهامش ضمن إطار غرائبيٍّ مركَّبٍ قائم على لعبة تتمثّل بتقافزِ النرد على طاولة حياتنا وتاريخنا وأفكارنا وحتى ديننا، بدءًا من آخر أبياتِ نشيدكَ أوروك: «أمانًا بلادي التي لن أرى»، مرورًا بالمسكوت عنه في تراثنا وأدبياتنا، ومدوّناتنا، ومخطوطاتنا التي تراكم على صفحاتها غبار النسيان، وصراعاتنا، وتناقضات حاضرنا، وسرياليّته، وليس انتهاء بـ«التكتك»، وما قبلها وما بعدها، معتمدا على الأشكال بتلاوينها الصورية، وتكرار الحروف والكلمات، أو اللعب بها وتهشيمها حينًا بقصدية أو لا قصدية، فيدخل التشكيل عنصرًا في

رسم مشهدية بصرية مدهشة. وأصدقك القول إنني خلال قراءتي أبياته ومتاهاته، وأنا أقلب صفحاته، أحسستُ كأنني في حلم شعري متصل وإذ تتوفر مساحة واسعة لتداخل العوالم والأفكار والمشاهد والصور والهامشي والتابوهات، وما أنتجت الثقافة الشعبيّة من سرديّات، وحكايا، وألفاظ نابية، وأمثال، وأغانٍ، ومقولات، وفضاضات، وإيروتيكا تحت غلالة شفيفةٍ حينًا، وأحيانًا واضحة فاضحة صادمة لا يمكن تخيّلها، فلا يوجد في قوانين لعبة النرد الصائغية حسيب ولا رقيب، كما ولا حدود ولا أسلاك ولا ممنوعات، وخلال ذلك تقفز تهويمات، وإضاءات شعرية خاطفة تعلي أفق النص، وتسخّن اللعب! وهناك إطار سردي آخر هو الإطار المستعار من النص التراثي، خصوصا «ألف ليلة وليلة» مع شيء من التداخل والقطع واللصق بحسب مقتضى الحال، وسير النرد، فتتكرّر بين نهاية مقطع وآخر، لازمات من بينها:

وأدرك شهرزاد الرقيب

فسكتت عن الكلام المريب

وواضح أنك استفدت من بعض صفحات مخطوطة روايتك الشعرية التي بدأتها في الثمانينيات، ولم تكملها أو ضاعت منك، تلك التي تدور أحداثها عن فطم وعچوان، وأزقّة الكوفة العتيقة، وقد نجحتَ في توظيفها، وإذابتها في دورق نردِ نصِّكَ الذي من المتوقع أن يثير الكثير من الجدل، وردّات الأفعال لاعتمادك في نقل بعض الوقائع والأحداث من كتب إخبارية محط جدلٍ،

واخـتلاف، وكـذلك لتوغّلـك في منـاطق شـائكة جـدًا وخطـرة، في الماضـي، والحاضر على حدّ سواء!!

حتى ليخيَّل لي أحيانًـا أن النـرد كـان يفلـت مـن بـين يـديك ويـروحُ يتـدحرج فوق النصوص والرؤوس والمعاني والأشكال والإشكاليات على هـواه، دون أن تتمكن من إيقافه، لهذا امتد به الزمن مـن 1996 وحتـى2020، وهـرس مـن الأوراق الأطنان.

أتمنّـى أن أقـرأه مطبوعًـا، لتكتمـل سـعادتي بـه ورقيّـا، بعـد أن اسـتمتعت بـه وأتعبني إلكترونيّا.

ولكَ وافر الود والتقدير..

عبد الرزاق الربيعي

6 أيلول (سبتمبر) 2020

ردّ الشاعر عدنان الصائغ

صديقي الحبيب أبا الدجلة والإبداع والطيبة عبد الرزاق الربيعي..

وبعد، وبعد فيوضاتِ رسالتكَ عن الكورونا والعزلة وسوران، وما رأيتهُ من شياطينك الستينية، وعن نرد النصّ الذي توقّفَ بين يديك قبل ذهابه للمطبعة. وأيضًا عن مسيرته العجائبية كأنَّ قدره أن يمتد هكذا من 1996 حتى ليشهد زمن الكورونا اليوم.

نعم يا صديقي حروبٌ كثيرة ومريرة مرّتْ بنا وتبعتها حصاراتٌ ومنافٍ وفقْدٌ، ربما هذا ما منحنا والقصيدة قدرةً مضاعفةً على مواجهة الصعاب، لكن هذا الكائن متناهي الصغر الذي انسلَّ إلينا على غفلةٍ من عيون العالم وعقاقيره ومختبراته وتحصيناته، قلبَ الطاولة على الجميع، عقبًا على رأس.

نعم أقصد ذلك. فحتى اللغة قلبَها كما قلبَ حياتنا (وستجد ذلك في الإضافات الأخيرة لنرد النصّ كما توقعتَ أنتَ في رسالتك وفي اتصالاتنا الهاتفية)..

فمن مخاضات الحرب العالمية الثانية خرجتْ الدائدائية والغرائبيات، فما الذي ستخرج به مخاضات هذه «الحرب العالمية الثالثة».

أقول الحرب العالمية الثالثة؛ ففيها كانت الطبيعة في مواجهة البشرية جمعاء. وليس كما قبلُ: بشر ضد بشر يقودهم قائدان غبيّان. وحين يتعبان أو ينسحقان يغادران الرقعة، وكلٌّ يدّعي نصرًا ووصلًا بليلى.. وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا. كما في بيت مجنون ليلى.

نعم، الأمر مختلفٌ هذه المرّة فقد وقفتْ دول العالم كلّها بكل تحالفاتها وترساناتها الطبية والعسكرية، في مواجهة هذا الكائن الذي قُطرهُ اقلّ 1000 مرَّة من شَعرةٍ في جسم الإنسان. تصوَّر!

صار الصراع موجعًا أمامنا وداخل حيواتنا، ووجد الإنسان نفسه أعزلَ أمام الغامض.

النرد كان غامضًا أيضًا وهو يدخلني إلى مجاهيل لم أكن أتوقعها!

في هذه العزلة الاجبارية والاختيارية معًا، هنا بمنفاي اللندني، أنهيتُ للمرّة العشرين مراجعةَ مسوداته الأخيرة التي ملأت غرفتي وصناديق رأسي وحياتي وفاضتْ (أطنان من الورق والأفكار والأحلام). وسأذهب به قريبًا جدًا إلى دار النشر قبل أن يقضي عليَّ هذه المرّة.. وقد أخذتُ اللقاحين استرازانيكا. وأتوقع أن الانفراج لكلينا [النصُّ وأنا] سيكون قريبًا..

عام العزلة أو الحَضْر هنا تخللته مفارقات لا بد لي أن أذكرها لك..

لقد وقف الناس عند النوافذ والشرفات وحدائق البيوت في كل بريطانيا، في أحد الأيام (26 مارس)، وفي ساعة محددة هي الساعة 8 مساءً بتوقيت غرينتش، ليصفقوا جميعًا في وقت واحد، للعاملين في القطاع الصحي NHS تحت شعار «فلنصفق لمن يهتم بنا» (Clap for our carers) وشاركتْ به حتى ملكة بريطانيا بأعوامها الـ 94.

وعلى مدار أيام الجانحة والعزلة تواصلت فعاليات ثقافية عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وكنا نسمع أغانٍ حيّة وموسيقى لبعض الفرق والأفراد، في الشوارع والشرفات، تنتصرُ للحياة في بهائها.

وتطوع مجموعات من الشباب والشابات لإيصال المـواد الغذائيـة والأدويـة لمن يحتاجها من كبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة.

كنّا في عزلة شبه تامةٍ. تصوّر يا صديقي مرَّ عام لمْ نلتقِ زوجتي ماجدة وأنـا – إلا لفترات قصيرة وعن بُعد – بحفيدينا آدم وسام، ومهنـد وزوجتـه ايلـين الـذين يسكنون في منطقة ليست بعيـدة عنـا (أتتـذكر آدم الـذي حملتـه بـين يـديك بعمـر عشرة أيام. ها هو الآن دخل في السنة التاسعة).

أما مثنى وزوجته دانـة وطفلاهمـا: ليليـان وإليـاس، فمـا زالـوا في أبـوظبي ولا وسيلة للقائهم إلّا عبر الفديوات. وكـذلك الأمـر مـع أخـويَّ وأختـيَّ في السـويد وهولندا. فلا مطارات ولا حقائب سفر.

كذلك لم يكن لنا أن نلتقي بأصدقائنا هنـا في لنـدن، وحـين كانـت دار سيرين البريطانية توشك على اطلاق المختارات بالإنكليزية من «نشيد أوروك» تحت عنوان «اتركوني أقصُّ لكم ما رأيـتُ»، وكـان علـيَّ أن ألتقـي بصـديقنا د. صـلاح نيـازي حـول كلمتـه داخـل الكتـاب. التقينـاه وزوجتـه القاصـة سـميرة المـانع في الحديقة الأمامية لباب بيتهِ ترافقنا الكمامات.

وذلك ما حدث أيضًا في زيارتنا للفنان والكاتب د. فلاح الجـواهري بصـحبة الفنان عـلاء جمعـة. حـديثٌ عـبر الكمامـات أيضًـا. هـؤلاء كـل مـا التقيـتُ بهـم خلال أكثر من عام. تصوّر.

لمْ نجلسْ في مقهىً أو نستخدم باصًا أو قطارًا طيلة تلك الفترة.

أعـود فـأقول كمـا قلـتَ إن الكثيـر مـن الزوائـد قـد تقلمـتْ مجبـرةً أو مجبـراً. والزوائد كما تذكر مصطلح كان يشدد عليـه صـديقنا الشـاعر فضـل خلـف جـبر سنوات بغداد والشِعر والأصدقاء.

فكانت فرصة أيضًا لقراءة الكثير من الكتب المؤجلة، والتفكير بالمشاريع المؤجلة. وكما يقول الكاتب والروائي الارجنتيني البرتو مانغويل: «لقد أعطتني القراءة عُذرًا مقبولًا لعُزلتي، بل ربّما أعطتْ مغزىً لتلكَ العُزلة المفروضة عليّ». أنها تمامًا مثل تلك العزلة التي وضعتُ نفسي فيها بعد انتفاضة 1991 لأكثِّفَ عملي في «نشيد أوروك»، وعزلتنا الطويلة هذه الآن التي حشرتني بين مكتبتي وطاولتي لأنجز عملي المتعب المتشابك «نرد النصّ» آملًا أن يقع بين يديك مطبوعًا بعد أن كان قد وصل إليك مسوَّدات.

أخيرًا تقبل وافر الود، وهذه السطور الأخيرة مما لم ترْهُ في المسوَّدة:

«وعلى بعدِ مصطبةٍ منَّا، في حديقةِ النسيانِ. تجلسُ الحربُ. واضعةً ساقًا على ساقٍ، تتأمَّلُ مثلَنا الطريقَ المضَلَّلَ بالليلكِ والهمساتِ، غيرَ ملتفتةٍ لنا نحنُ أولادَها العاقِّين. الفارِّين منها. المنشغلين عنها. ثمَّ فجأةً تنتبهُ لأصابعِنا التي تشابكتْ كالغصونِ المتشابكةِ فوقَنا. فتنهضُ على عَجَلٍ. تفلُّ خيوطَ الوهجِ عن بعضِها. تلملمُ الليلَكَ والهمساتِ والمصطباتِ من ذاكرتِنا. ولا نراها. أو نشمُّها. كانتْ تمشي على شكلِ تاجٍ مهتاجٍ. في الطرقاتِ الخاليةِ. حربٌ وموتى ولا جيوشَ ولا قنابلَ.

وعابرًا شوارعَ مقفرةً لا أحدَ يُصافحُ أحدًا.. وحدَهما يَداكِ ظلَّتا عالقتين بأصابعي إلى الأبدِ...... ».

عدنان الصائغ

10/ 9/ 2020 لندن

مهرب مفعم بالمسرّات

لقد ساعدتني القراءة كثيرا، وحرّكت مخيّلتي وأمدّتني بالمسرّات، والآلام، وباستثناء القراءة ما كان لي من مهرب آخر أستطيع اللجوء إليه.

«مذكّرات قبو»، دوستويفسكي

حين اعتزل المفكّر الفرنسي ميشال دي مونتاني الناس عام 1571 لجأ إلى مكتبته، وقال: «ليس أجمل من القراءة والتفكير لزيادة معرفتنا، ولانتشال أرواحنا من الظلمة»، وفي عزلتنا الإجباريّة لم نجد أمامنا سوى قراءة الكتب التي تحتاج نفسا طويلا، وهذا ما لم نكن نوفّره وسط مشاغل الحياة، ودوّامتها، سوى الكتابة، وينقل ابن رشيق في كتابه (العمدة) عن الخليع (الحسين بن الضحّاك) قوله : «من لم يأت شعره مع الوحدة فليس بشاعر»، والجناح الثاني الذي حلقنا به هو القراءة، فقرأت الكثير، وكان أوّلها مخطوط «نرد النصّ» لصديقي الشاعر عدنان الصائغ ومع بدء التقييد الحركي، والحجر المنزلي، اتّسعت مساحة القراءة، ووقفت حائرا أمام الكتب التي بعضها لم يزل في أكياس دور النشر المشاركة في معرض مسقط الدولي للكتاب الأخير، وهناك كتب من معارض سابقة، وأخرى اصطحبتها معي خلال أسفاري، ومشاركتي، وكلّها كانت تنتظر القراءة، لكنّني اخترت أن أبدأ بالأحدث، وأشبعت نهمي

بقراءة الروايات، ومن بينها رواية «الصيرة تحكي» للدكتور سعيد السيابي، الذي رافقته في آخر مشوار لي قبل الإغلاق، وكان لوزارة «التراث والثقافة» سابقا، للقاء وزيرها السابق معالي سالم بن محمد المحروقي، والمستشار سعادة خالد الغسّاني، تلك الرواية صدرت عن دار «لبان لنشر المعرفة» التي ولدت بعد أن أغلقت مؤسّسة «بيت الغشّام» أبوابها، بسبب تداعيات اقتصاديّة أيبست الزرع، وجفّفت الضرع، فما كان من الكاتب محمد بن سيف الرحبي المدير العام لمؤسسة «بيت الغشّام» إلّا تأسيس دار نشر جديدة حملت عنوان «لبان»، وكانت «الصيرة تحكي» من أولى ثمارها، وابتداء من صورة غلاف الرواية، الذي يبدو فيه برج «الصيرة» الواقف على بحر عمان في ساحل قريات، نجد أنفسنا في قلب التاريخ، فنعيد تقليب صفحاته بعيون معاصرة، وننتقل إلى الفترة الواقعة بين عامي 1506 و1648، في منطقة المروحة الفيضية الواقعة بين قلهات، ومسقط. ولأن الرواية تستلهم أحداثها من التاريخ، يمهّد السيّابي لها بمقدمة موجزة يتحدث خلالها عن الظروف التاريخية التي جعلت البرتغال تمد أنظارها إلى عمان، فيقول: «لقد شجَّع سقوط مملكة غرناطة العربية على يد الإسبان ملوك البرتغاليين على التوسُّع ليلتفُّوا بحرًا حول إفريقيا، وصولًا إلى بحر عمان، والمحيط الهندي، لتحقيق ثلاثة أهداف في آن واحد، هدف تجاريٍّ بالحصول على خيرات البلدان التي يجتاحونها، واستعمارية توسعية، والأبرز ذلك الهدف الديني الذي جعلوه نصب أعينهم بالتبشير بالمسيحية، وتطويق العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وقارة آسيا. فكان لهم الأول

ممكنا.. إلى حين! والثاني صعبا جدًّا، إذ لا يبقى دوام حال لمستعمر، أما الثالث.. فهو المستحيل!!

ثم يقترب من المكان الذي تجري به الأحداث بلغة تمتزج بالفخر، بـ«الصيرة» البرج الذي جرى بناؤه فوق مجموعة من الصخور، وفي المقابل لهذا البرج الوحيد بنى البرتغاليون قلعة لكن الإمام ناصر بن مرشد أمرهم بتدميرها بأيديهم، كما ذكرت إحدى وثائق الرواية، وفي النهاية انهارت القلعة، وبقي البرج الصغير – الكبير في قيمته لقريات، وأهلها، وحين تحكي الصيرة، فالبرج يحكي، والمعلاة تحكي، الحاجر يحكي، وليس أمامنا سوى أن ننصت إلى تلك الحكايات التي يقف التاريخ العماني طرفا أساسيا فيها.

***

وحين انتهيت من رواية «الصيرة تحكي» ومرحلة الاحتلال البرتغالي لعمان عدت إلى السبعينيات مع رواية «حارة العور» للدكتورة غالية آل سعيد الصادرة عن دار نشر رياض الريس ببيروت، التي تجري أحداثها في «حارة العور» إحدى حارات مسقط القديمة، وعبر صفحاتها تجوّلنا في تلك الشوارع الضيقة المضاءة بقناديل المحبّة، بقوّة دافعة من حنين جارف، في حارة اختصرت تاريخ منطقة، وباستعادة المكان نستعيد الزمان، فكلاهما مرتبط بالآخر. يقول مارسيل بروست صاحب (البحث عن الزمن المفقود): «عندما يحنّ الشخص إلى مكان ما، هو في الحقيقة يحنّ إلى الزمن المرتبط عنده بذلك المكان، وعليه، فالحنين هو ليس إلى الأمكنة، وإنّما إلى الأزمنة»، لذا، فالكاتبة تهدي روايتها «لمن رحلوا من الماضي، ولكنّ الماضي لم يرحل عنهم»، مفصحة

عـن رحلـة داخـل الـزمن، في خضـمّ تحوّلاتـه، وتبدّلاتـه، في مجتمـع يخطـو خطـوات أولـى نحـو دخـول عصـر الحداثـة، كـالمجتمع العمـاني خـلال السبعينيّات، لذا استعان بمعلّمين ومعلّمات من دول عربيّة لتعليم أبنائه، وحين عادوا إلى بلدانهم، حملوا معهم ذكريات لا تُنسى، وهو ما يتّضح للقارئ، عندما يسقط نظره على الجملة الأولى من الرواية «أرجع بذاكرتي إلى الوراء، إلى أيام المدرسة، والجامعة، فألاحظ كم كنا غير مدركين ما يخبئه لنا القدر في مسيرة حياتنا». وحين نتوغّل في أحداث الرواية، نجد أنفسنا في قلب «مسقط» القديمة من خلال يوميات معلمة عربية اسمها«غنوة» ابنة مفتش اللغة العربية الذي حبّب إليها اللغة، إذ «كان يحثُّنا على التحدّث باللغة العربية الفصحى، أكثر من الحديث باللهجة العامية، لأنّها الأقوى تعبيرًا عن النفس»، وبهذا تلقي الكاتبة مفتاحا عن علاقة «غنوة»، الراوي العليم، بالكتابة، فهي لم تمتهن الكتابة، لكنها تحاول من خلال الكلمات التعبير عن ذاتها، رغم أنّ تلك العلاقة عادت وبالا عليها لاحقا، كما سنرى من خلال تسلسل الأحداث التي عاشتها «غنوة» في سلطنة عمان حين أقامت فيها منتدبة للعمل معلّمة في إحدى مدارسها، ولم تكن كأيّ معلّمة، لأنّ لديها مَلَكة الكتابة والتقاط التفاصيل التي تخصّ عالمها، فحين عرفت اسم «حارة العور» تقول «كأنه اسم لرواية قاتمة التفاصيل، ولم أستطع طرد اسمها من ذهني لغرابته، بدأ خيالي يصوّرها، كما يحلو لي، تخيّلت أناسها يمارسون طقوسهم اليومية من الأعراس والأتراح وغيرها، ولا يرون الحقيقة كاملة، عيونهم العوراء تحجب نصفها الثاني»، وفي تلك اللحظة تقرّر أن يكون اسم الحارة عنوانا ليومياتها، بهدف: «تعبير عن

محاولاتي لتغطية الحقيقة كاملة، ربما ليس من جميع جوانبها، لكنني لم أغفل شيئا مما رأيته أو اطلعت عليه. في النهاية، هي مذكرات عن أيامي في عُمان، وعن أناسها، وغالبًا ما يؤخذ اسم أي كتاب من البيئة التي كُتب عنها»، وبذلك أعطتنا الكاتبة مفتاحا آخر لدخول «غنوة» المجتمع العماني، الذي يبدو كجبل الجليد الغاطس في نظرها، فهي لا تريد أن تقول كلّ شيء، ولا تريد أن تدع ما شاهدته يمرّ بسلام، مكتفية بالنظر بعين واحدة، وهنا تبرز دلالة عنوان الرواية الذي هو أصلا عنوان اليوميات، وكلاهما في النهاية واحد، ففي تلك اليوميات ترصد تفاصيل دقيقة للحارة التي تبدأ خارطتها، جغرافيا كموقع للأحداث، من مركز العلم ومايحيط به، وقصر العلم، وانتهاء بباب المثاعيب، لكن لاحدود لذاكرة تجتاز الجغرافيا، وتنشر عطرها ليضوع في ثنايا المكان، وتعقّب أسراره، فتسلّط الكاتبة الضوء على العلاقات الاجتماعية التي لم يكن الحب دائما عنوانا عريضا لها، لكنها تبدو مبهورة ببساطة الحياة في «مسقط» التي كان الطلبة القادمون من عمان الداخل يجتمعون فيها للدراسة، وما يصاحب ذلك من تفاصيل يجدها الدكتور ضياء خضير من أساسيّات كتابة الرواية التي مهمّتها «التقاط التفاصيل اليومية، وإذكاء الوعي الجمعي عبر تسجيل مقطع، أو مقاطع من عالم الحياة المحسوس، وذبذبات الوجع الفردي، والوضع البشري الراهن في لحظة تاريخية معيّنة».

متاحف مهجورة

أبقِ عينيك على النور لتعبر كل هذا الظلام.

جلال الدين الرومي

في ضوء الجائحة واجهت المتاحف العديد من الصعوبات بسبب انخفاض عدد الزوّار، وتراجع العائدات المادية، فصارت مهجورة، وأغلقت أبوابها أسوة بالمسارح والقاعات التي صارت خاوية على عروشها!

وفي يوم المتاحف العالمي تلقّيت رسالة من الكاتبة شيخة الفجري جاء بها:

يطيب لي أن أبعث إليكم برسالتي هذه، للاطمئنان عليكم في ظل هذه الظروف السيئة التي يعيش فيها العالم، ومن جهتي، أحمد الله تعالى على فضله، فأنا وأسرتي بألف خير.

ثمة أمر يشغلني وأود منكم التنوير بشأنه، فأنا أعلم مدى اهتمامكم الواسع في العديد من المجالات في رسالتي هذه، سأحدثك عن المتاحف في بلداننا العربية، وتحديدًا في بلادنا «سلطنة عُمان»، فالمتحف ليس مكانًا مغلقًا تُجمع فيه التحف واللُقى ثم يأتي الناس للفرجة عليها، إذ إن أغلب ما يتم جمعه في المتاحف قد لا يكون بالضرورة يخص البلد الذي أقيم فيه ذلك المتحف، وهذا ما رأيناه في بلدان عدّة، فثمة آثار مسروقة من مصر المحروسة والعراق مهد الحضارات وعُمان التاريخ، وهي الآن معروضة في متاحف مختلفة في فرنسا وأمريكا وبريطانيا؛ ومن الآثار العُمانية في بريطانيا، توجد «... سقيفة

قبر... نقلت، بعد فترة من مشاهدة مايلز لها، إلى إنكلترا بطريقة غير قانونية، وهي الآن بمثابة سفير ثقافي عن حضارة المنطقة، وموجودة في متحف فكتوريا في لندن».

وهناك اهتمامٌ شعبي كبير بالمنجز المكتسب في الدول الأوروبية، وأمريكا، ودول الشرق الأدنى كالصين واليابان، حتى لو كانت هذه المكتسبات مسلوبة من الشعوب الأخرى في العالم، إنهم يفخرون بتاريخهم، حتى إن كان عمره أقصر من عمر الحضارات الأخرى، يمكن ملاحظة ذلك في الأعداد الغفيرة التي يمكن ملاحظتها في المتاحف الغربية، إذ شاهدت ذلك بأمّ عيني في عام 2013م، حين قُدِّر لي دراسة مواد في البيزنس واللغة الإنجليزية في جامعة ويسكانسون بالولايات المتحدة الأمريكية، كان هناك برنامج حافل لنا نحن الطلبة، منها زيارة متحف مستر PINE، كان مدهشًا ذلك التنظيم الذي يجعل من بيت بسيطٍ بُني في القرن التاسع عشر، مزارا لقطاع واسع من المواطنين والسياح في أمريكا، بينما تعج بلداننا بالمتاحف، ولا مقارنة في مستوى الإقبال على زيارة المتاحف بين بلداننا والبلدان الغربية؛ والملاحظة ذاتها وجدتها في واشنطن إذ تصطف خمسة متاحف بجانب بعضها البعض؛ وجميعها تكاد تختنق بالزوار.

وما يؤهل السلطنة لأن تكون متحفًا ثابتًا في الهواء الطلق، هو ما تكتنزه من موروثات مختلفة، منها: القلاع والحصون والأفلاج والأبراج والمساجد الأثرية.

بني بعضها منذ ما قبل الإسلام، مثل: قلعة بهلا، بل بني بعضها في القرن

الأول للميلاد، مثل: قلعة سلوت التي بنيت في عهد الملك مالك بن فهم، كما جرى الكشف عنها مؤخرًا في وسائل الإعلام العمانية، فقد كانت آثارها قبل ذلك مطمورة تحت التراب.

وترتبط هذه الآثار بالكثير من الأساطير التي تروي جوانب من كنهها وكينونتها، وما تحتاجه هو الترميم بالمواصفات العالمية العالية الدقة والمستوى، ليتم استغلالها بعد ذلك مزارات سياحية تكتنز الثقافة والحضارة، يؤمها الصغار والكبار، وتنسق لها زيارات الأطفال والنشء للتعرف على بلادهم وحضارتها، فتكون هذه الآثار درسًا تقرؤه العين ليستوعبه الدارس جيدًا، فما يراه المرء بعينه يستطيع استساغته وحفظه أسرع مما يقرأ عنه.

ودعني أخبرك ما تقوله إحدى الأساطير عن الأفلاج في عُمان: «نزل النبي سليمان (عليه السلام) في عُمان، وجدها صحراء جافة، فأمر الجن أن تشق ألف قناة»، وبهذه الأسطورة يستهل العُمانيون أي حديث عن تاريخ وجود الأفلاج؛ قنوات مائية تشق من أسفل الأرض لتمر بين الجبال حاملة الماء لأماكن بعيدة في عُمان، و يعود تاريخ آثارها إلى فترة ما قبل العصر الحديدي (حضارة أم النار2700ق. م)، ويُقدر عددها بـ4112 فلجًا، تروي ما يقارب 17600 هكتار، أي ما يقارب أكثر من ثلث المساحة المزروعة في السلطنة، وينضوي الفلج في عُمان على تنظيمات إدارية واجتماعية في مساحة الخارطة على توالي الأيام والسنين وتعاقب الأجيال، وينتج عنه تقاليد في الإدارة عبر وحدات تقليدية زمنية لنظام دوران المياه فيها ترتبط بأسماء النجوم الليلية؛ بالإضافة إلى نظام توزيع المياه بين المزارعين والقاطنين حولها.

ما نحتاجه في وطننا أن تكون مسألة زيارة المتاحف والقلاع والحصون والمزارات الثقافية والتاريخية في صميم المناهج الدراسية من طلاب الصفوف الدُّنيا في الابتدائية (الحلقات الأولى/ التعليم الأساسي) إلى طلاب الكُليات والجامعات، فهذا ما يحدث في الغرب ونحن أحوج إلى ارتباط أبنائنا بتراثهم وتاريخهم.

فهل يكفي برأيك كل هذا؟ أم أن لديكم أفكارًا أخرى؟».

وكان جوابي على رسالتها: وصلت إليّ رسالتك، وأنا في المكان المعتاد قبل أربعة شهور، الذي تعرفين: البيت، المألوف بالنسبة لي منذ عرف فيروس «كورونا» الطريق إلى رئات البشر، وكلّنا أمل أن تنتهي هذه الجائحة، ويعود السلام إلى الكون الذي شلّ هذا الفيروس غير المرئي حركته، وامتصّ نسغ حياته، وكاد أن يجعله خاويا على عروشه!

لقد وضعت يدك في رسالتك على قضيّة مهمّة، لا سيّما ونحن في اليوم العالمي للمتاحف الذي يوافق 18 مايو من كلّ عام، فالسلطنة معروفة بعمق إرثها الحضاري، وتاريخها العريق الذي يمتد مع عمق الزمن، وأذكر أننا قمنا بزيارة إلى منطقة العامرات، حيث الجيولوجيا العمانية البكر، والصخور، والتكوينات الرسوبيّة، حيث التاريخ غير المحكي النائم تحت الصخور، «فأحسسنا أنّنا نمضي برحلة عبر الزمن، مرَّت 4 مليارات ونصف المليار من عمر الكرة الأرضية كانت شاهدة على عمق تجذّر الإنسان العماني في أعماق التاريخ الجيولوجي قبل الإنساني، في العامرات وقفنا عند صخور يعود عمرها إلى 420–450 مليون سنة، وعلى بعد أمتار علمنا أنّ البحر اصطدم قبل

100 مليون سنة بالأرض في ذلك المكان، فالتوت الجبال» كما ذكرت في حديثي عن هذه الرحلة التي نظّمتها الجمعية الجيولوجية العمانية مع النادي الثقافي في كتابي«خطوط المكان، ودوائر الذاكرة»، وبذلك وجدنا أنفسنا أمام كنز سياحي، وبمقدار سعادتنا بهذا الكشف تألّمنا، لأن هذا الكنز يحتاج إلى المزيد من الجهود للتعريف بتاريخ المنطقة، فكم من المرات التي مررنا بهذا المكان دون أن ننتبه إلى أهمّيته التاريخيّة!

وينطبق الكلام، على الكثير من الآثار التي تنام في المتاحف دون أن تجد من يُصبّح، ويُمسّي عليها من الزائرين، والسبب أنّنا لا نمتلك ثقافة متحفيّة، وهذه الثقافة، في الغرب، درس يتعلّمه الصغار في المدارس، وفي زياراتنا للمتاحف في أوروبا نجد طلّاب المدارس يحملون كرّاساتهم، ويدخلون في صفوف منتظمة هذه المتاحف، بصحبة معلّميهم الذين يشرحون لهم تاريخ تلك القطع الأثرية التي ضمّتها المتاحف، وهم يصغون بصمت، وإجلال يليق بتاريخها القديم، وكم كانت سعادتي كبيرة عندما رأيت مجموعة من تلاميذ مدرسة ابتدائيّة يفترشون بلاط قاعة تضم آثار «بلاد ما بين النهرين» في متحف اللوفر، ويقومون برسم تلك القطع الأثرية التي صنعها أجدادي السومريّون، والبابليّون، والآشوريون!

ويومها شعرت بالفخر، وأصدقك القول بأنّني لم أحزن لأن تلك الآثار «مسلوبة»، كما أطلقت في رسالتك على الآثار التي سرقها لصوص التاريخ من حاضنتها في الشرق. ومصدر الفخر، أنّ هذه الآثار تُدرس، وتُرسم، وتُزار، بينما لو بقيت في مكانها، فستوضع على رفوف يعلوها الغبار! فنحن لا نعرف

قيمة التاريخ، ربما لأننا مثقلون به، ولم نتقطع عنه، وبسبب ذلك لم ندخل عصر الحداثة!

لكنّنا للأسف الشديد أضعنا المشيتين، كما الغراب!

فلا أعطينا التاريخ قيمته، وبقينا خارج زمن الحداثة.

ولكي نعطي التاريخ قيمته، ينبغي علينا أن نعلّم أطفالنا أهمّية زيارة المتاحف، ليس من باب تقدير الماضي، بل النظر إلى الحاضر بعيون أكثر اتّساعا، وهي تفتح حدقاتها لترى ضياء المستقبل. قبل سنوات قليلة زارني صديقي الشاعر عدنان الصائغ مع أسرته، قادمين من لندن حيث تقيم الأسرة، وذات يوم قال حفيده البالغ من العمر يومها خمس سنوات: «جدّو، أريد أن تأخذني اليوم إلى مكتبة»!!

وحين نقل لي رغبة حفيده فوجئت، قلت له: وكيف عرف المكتبة؟ أجاب: لأنّهم في رياض الأطفال يأخذونهم إلى المكتبات، والمتاحف، والمعارض الفنيّة.

وبهذا أتفق مع جاء برسالتك بأن «ما نحتاجه في وطننا أن تكون مسألة زيارة المتاحف، والقلاع، والحصون، والمزارات الثقافية، والتاريخية في صميم المناهج الدراسية منذ الصفوف الدنيا الابتدائية »، نعم، علينا أن نبدأ مع النشء الجديد، عندها سنضمن مستقبلا باهرا لماضينا العريق.

تلك الأفكار دارت في رأسي، وأنا أقرأ رسالتك، فأحببت أن أنقلها إليك، والحديث ذو شجون!

الرقميّة وقارب النجاة

اهدم بيتك وشيّد زورقا.

غوته

عندما حاولت الجائحة شلّ حركتنا الثقافيّة، والحدّ من النشاط الذي يقوم على الحوار المباشر، والتقارب، واللقاءات، والتجمهر في القاعات المغلقة، وسماع تصفيق الجمهور، وأصوات استحسانهم، بعد فرض آليّة التباعد الاجتماعي كواحدة من وسائل مقاومة تفشيها، رمت له الرقمية قارب النجاة من غرق محقّق، لتعيده إلى المركب الثقافي، سالما، غانما، وتعيد وصل ما انقطع، فتنفست رئة القصيدة هواء جديدا من وراء الكمّامات الإلكترونيّة، وامتلأت عروق جسد حصان الشعر بالدم الحار، الذي كادت العزلة الإجباريّة توقفه عن الجريان.

فجوة في ظلّ المتغيّرات

البقاء ليس للأقوى، ولا للأذكى، البقاء للأكثر استجابة للتغيير.

تشارلز داروين

ساعد التطوّر التقني والرقمي في تنشيط هذا الحراك عبر الوسائل المرئية المتاحة في الفضاء الافتراضي، فعادت المياه إلى مجاريها لتندفع بقوّة أكبر، وبآليّات جديدة مختلفة، فبدلا من أن يقف الشاعر أمام الجمهور لينثر قوافيه وكلماته، صار يقرأ جالسا أمام عين كاميرا هاتفه المحمول، أو حاسوبه الشخصيّ!

وبدلا من أن يصغي لتصفيق الجمهور، فيطرب، ويتجلّى مع كلّ كلمة استحسان تصل أذنيه وهو فوق المنبر، صار يتخيّل جمهورا واسعا، يتابعه من وراء الستار معبّرا عن اعجابه من خلال الضغط على أزرار، فيحصد أيقونات زهور، وعلامات إعجاب، وقلوبا لونها أحمر تتطاير أمام ناظريه على الشاشة، فيشعر بالرضا عما صنع، ويبارك لنفسه الإجادة في التعبير الشعري، وحسن الاختيار، فترتفع وتيرة الحماس، ويوما بعد آخر اعتاد الشعراء على هذه الجلسات الافتراضيّة، خصوصا بعد أن اتّسعت مساحة التلقّي، وعبرت الحدود، والقارّات، وحظيت بترويج جيّد، واهتمام من جانب الإعلام الرقمي والتقليدي على حدّ سواء! فالملفت للنظر أنّ هذه الجلسات خدمت وسائل الإعلام التقليدية، ووفّرت مادة ثقافية وإعلامية لها، في وقت جفّت فيه مصادر الأخبار بعد توقّف الأنشطة التي تتطلّب حضورا جماهيريّا، وتوقّف حركة

السفر، وتأجيل الندوات، بل إنّ الفضائيّات نفسها استفادت من هذه التطبيقات والتفات المثقّفين إليها، فصارت ترتّب مع ضيوفها البعيدين عن طريقها لتظفر بالصوت والصورة، بدلا من الاكتفاء بالصوت، ووضع صورة جامدة من الأرشيف، وكذلك الألى يقدّمون مداخلات على الهواء، فصبّت هذ المعرفة في خدمة الإعلام التقليدي وحسّن من أدائه، وبعد أن أطالت «كورونا» المكوث بيننا، واستمرت آلية التباعد الاجتماعي، كثرت المحاضرات والجلسات الشعريّة والندوات، بل حتّى المؤتمرات، وقد احتضن هذا الفضاء مؤتمرا تفاعليّا نظّمه النادي الثقافي العماني حمل عنوان «الإعلام الثقافي- آفاقه، ومتغيّراته» وكان من المقرّرإقامته خلال اليومين 13 -14 ابريل 2020، لكنّ تفشّي فيروس (كورونا) حال دون ذلك، فلم يقف المنظّمون مكتوفي الأيدي بعد عودة بعض الأنشطة لاستئناف عملها، فأعلن النادي عن مواصلة برامجه عبر الفضاء الافتراضي، مثلما فعلت الجمعية العمانية للكتّاب والأدباء التي أقامت عدة جلسات حوارية، ومحاضرات، وجلسات شعرية، وكانت خطوة لا تخلو من مغامرة، لارتباط مثل هذه اللقاءات بشبكات الإنترنت من حيث القوّة، والنشاط، وهذا ليس من السهل ضمانه، في دول تعاني من ضعف في تلك الشبكات، وانقطاع متكرّر للتيّار الكهربائي، لذا قدّم أحد المشاركين اعتذارا لهذا السبب، ورغم أن المؤتمر تم الإعداد له قبل الجائحة، لكنّ التطوّر الرقمي شغل حيّزا من أوراق المشاركين، فتركّزت تساؤلاتهم حول مدى تأثير وسائل الإعلام الحديثة على الهويّة الثقافيّة، في ظلّ المتغيرات السياسية والاقتصادية، تلك المتغيّرات التي صنعت فجوة في العلاقة بين الإعلام، وخطابه المتغيّر بحسب التوجهات والجهات الداعمة الممولة، والأيديولوجيا المسيطرة من

جانب، والخطاب الثقافي الذي يسعى إلى تثبيت الركائز التي تستند عليها المجتمعات الإنسانيّة من الحفاظ على القيم السائدة، والعادات، والموروثات، فاتّسعت الفجوة بعد طغيان «سونامي» من فوضى إعلاميّة وجدت لها مرتعا عبر شبكات التواصل الاجتماعي، لتشكّل تهديدا للخصوصيّة الثقافيّة، فبدأت تذوب في ظلّ انبهارها بوهجه الساطع.

وظلّ حصان الشعر يصهل في براري الفضاءات الافتراضيّة:

كان عليّ أن أغادر منذ زمن بعيد

وما أخّرني سوى انتظارك

آنا أخماتوفا

فلم توقفه الجائحة عن الوصول لجمهور أمّة تتباهى بالشعر كونه «ديوانها»، وسجلّ أحداثها، ومنها الجائحة التي كتب الشعراء عنها القصائد، لدرجة أنّ الباحث العماني (سعيد بن حمدان الصوافي) جمع ما قال الشعراء في (كورونا) وتداعياتها، ليصدره في كتاب يحمل عنوان «كورونا والشعراء»، فجمع في المرحلة الأولى مائة قصيدة! وصار هذا النشاط الذي جاء معاكسا، للجائحة مادّة للصحافة والإذاعات المحلية، وكثر الحديث عن التحول الثقافي الرقمي، وأثره على الواقع الثقافي، وكيفية استفادة الساحة الثقافية من هذا التحول. وقد أشرت في إحدى الاستضافات الإذاعيّة إلى محاسن «كورونا»، وسط دهشة المذيعة التي أجرت الحوار، فقلت بكلّ ثقة إن لـ(كورونا) فضل كبير علينا، فقد جعلتنا نطوّر أدواتنا، ونستكشف الخصائص التقنية الموجودة في هواتفنا دون أن نحسن استخدامها، ووفّرت علينا الشكوى من عدم وجود جمهور،

وجعلتنا نضمن وجود جمهورلم تكن تستوعبه قاعاتنا لو حضر بشكل غير افتراضي، ففي أمسية شعريّة نظّمها موقع (أدب) السعودي تجاوز عدد المتابعين المئات، يتوزّعون على مناطق مختلفة من العالم! وهذا العدد لا تستوعبه قاعة سوى ملعب كرة قدم، ليقدّم (أدب) السعودي دليلا على شغف الجمهور بهذه الأماسي الشعريّة التفاعلية بشكل يُمكّنها من إبراز دورها في اثراء الشعر في زمن (كورونا)، فرأينا وسمعنا أصوات عدد من الشعراء يلقون قصائدهم في العالم الافتراضي وسط حفاوة جمهور يحلّق مع الكلمة، وقد تابعت ندوة تفاعلية أقيمت لتأبين الشاعر محمود درويش بذكرى وفاته، شارك فيها الشاعر سيف الرحبي، والناقد صبحي الحديدي، والكاتبة ليانة بدر، وقيس الرنتاوي مدير متحف محمود درويش، وأدارها سيد محمود، ففوجئت بوجود أكثر من 1200 متابع في الدقائق الأولى، ثم ارتفع العدد لاحقا، تخيّلت نفسي جالسا في قاعة كبيرة وسط جمهور كبير لو أقيمت هذه الندوة على أرض الواقع، لكنني أفقت على نفسي، فرأيت أن هذه الفعاليات حطمت جدران القاعات المغلقة، وصارت تقام ونحن مسترخين في بيوتنا، نتابع وقائعها بهدوء، وإن أحببنا المشاركة، فضغطة زر يمكنها أن تنبه المسؤول الفني المتحكم في ذلك ليمنحنا فرصة الحوار، أو نكتب ما نريد على الكيبورد، ويمكننا الانصراف إن لم نستطع استكمال الندوة لسبب ما، لكننا سنجد الإجابة بمراجعتنا ملف تلك الجلسة، فكلّ شيء في هذه الجلسات يدوّن، فمن محاسن الجلسات التفاعلية الافتراضية أنها جعلتنا نطمئن إلى ضمان توثيقها،

صورة، وصوتا عبر «اليوتيوب»، ويمكن الرجوع إليها في أيّ وقت آخر، لمن فاته أن يتابعها، بشكل مباشر!

وهكذا شهدنا إقامة ندوات افتراضية نظمتها الجهات المسؤولة، والنوادي الثقافية، واتحادات الكتّاب، والأدباء، حتى بلغ الأمر بالاتحاد العام للكتّاب والأدباء في العراق إقامة أكثر من أربع جلسات في اليوم الواحد، خلال شهر رمضان 2020، وكان الجمهور ينتقل مع الضيوف من منصّة إلى أخرى، مطالبا بالمزيد من الوقت في جلسات جمعتهم بشعراء بعضهم لم يسبق لهم اللقاء بهم وجها لوجه، فقرّبت المسافات، ففي أمسية نظمتها منصّة «إبداع» بالجامعة المستنصريّة، ومشروع بغداد مدينة الإبداع الأدبي التي يديرها الصديق د. سعد التميمي، شاركت في أمسية جمعتني بالصديق الشاعر عدنان الصائغ المقيم بلندن، بصديقنا الشاعر فضل خلف جبر المقيم بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان آخر لقاء شعري جمعنا نحن الثلاثة معا في بغداد قبل مغادرتنا إياها مطلع التسعينيات، بينما جمعتني لقاءات شعرية بالصائغ، مثلما جمعتني بالأخ فضل، لكن لم يحدث أن نجتمع نحن الثلاثة في منصّة بغدادية، كان رابعنا بها الصديق الشاعر وسام عبدالحقّ العاني، وأدارها صديقنا المشترك د. سعد محمد التميمي، وكان الهدف هو ضمان مواصلة الشعر أداء رسالته، والتماهي مع الواقع. ولم يتوقّف ذلك عند مساحة الشعر، بل تجاوزها إلى الفنون الأخرى كالموسيقى، فأقام الموسيقار نصير شمّة عدّة حفلات من بيت العود في أبوظبي، وشمل الأمر المسرح الذي كما هو معروف يرفض أيّ وسيط، كونه يقوم على التواصل المباشر مع الجمهور، لكن هناك من قدّم

عروضا مسرحية اندرجت ضمن عروض مسرح «الأون لاين»، كما أصطلح على تسميته، ومسرح «الشرفة» في ايطاليا، أيام الحجر المنزلي، ومن ظلّ مصرّا على موقفه الرافض لمسرح «الأون لاين» استثمر الوقت الذي وفرته الجائحة لتطوير أدواته في كتابة النصوص المسرحية، والبحوث، والدراسات، والورش، مثلما فعلت فرقة مسرح هواة الخشبة التي استضافت (27) أكاديميا من مختلف البلدان العربية، فوفّرت لهذه الفرق التي تعمل بجهود شخصية الكثير من المال الذي كانت ستنفقه لو أقامت تلك الورش في مسقط، مثلما اختصرت الوقت على المشاركين، كونه لم يكن مضطرّا للسفر، وأخذ إجازة من الجهة التي يعمل بها، مثلما اختصرت الجلسات التفاعلية علينا الكثير من الوقت الذي كنا نهدره في الذهاب والعودة للمكان الذي تقام به تلك الفعاليات، خصوصا في المناطق التي تشهد زحاما شديدا، وبطء حركة المرور، كذلك وفّرت لنا الوقت الطويل الذي نمضيه قبل الأمسية بانتظار وصول الضيف، أوالجمهور، لضمان امتلاء القاعة به، ثمّ يستمر مسلسل إهدار الوقت بعد الأمسية، إذ نمضي وقتا في المجاملات، ونحن نشرب قهوة، أو شاي الضيافة المغمّس بالبسكويت، وندخل في حوارات طويلة، متشعبة، ومن حسنات الجلسات التفاعليّة أيضا أنّها أتاحت للجمهور البعيد حضور الفعاليات، والمشاركة فيها، فالفضاء الإلكتروني مفتوح، وتستطيع الحركة من أقصى الأرض إلى أقصاها بكبسة زر وضغطة على الكيبورد، بلا جوازات مرور، ولا تأشيرات دخول، وأختام خروج، ولا حقائب.

سجون انفراديَّة

الخروج من البيت مغامرة خطيرة.. كلّ إنجازاتي حتى الآن، هو نجاحي في أن أكون وحيدا.

كافكا

«إنّ ظهور (كورونا) حوَّل العالم الذي كان قريةً واحدةً إلى سجونٍ فرديَّة أشبه بالزَّنزانات. وهي زنزانات لا صلة بينها إلّا وسائل الاتِّصال التي خلقَتْها العولمة»، بهذه الكلمات وصف الباحث سعيد الغانمي التحوّل الذي شهده العالم، ويشهده، بعد ظهور (كورونا)، بل وذهب أبعد من ذلك حين رأى أنّ (كورونا) «أخلَّ بهذه المعادلة على نحوٍ مأساويٍّ، فسجن جميع سكّان المعمورة في بيوتهم، وربَّما في غرفهم الخاصَّة، وبذلك حوَّل العالم الذي كان قريةً واحدةً إلى سجونٍ فرديَّة أشبه بالزَّنزانات. وهي زنزانات لا صلة بينها إلّا وسائل الاتِّصال التي خلقَتْها العولمة»، تلك الوسائل صارت بالنسبة لنا نوافذ نطلّ من خلالها على العالم الفسيح الذي حالت (كورونا) بيننا وبينه! وحين يردّد الكثيرون اليوم: إنّ العالم بعد (كورونا) سيختلف عن العالم بعد كورونا، فبالتأكيد ستنعكس هذه التأثيرات على الثقافة والشعر تحديدا. ونرى أن دخولنا هذه العوالم الافتراضيّة ربما سيرافقنا حين نغادر البيوت والتباعد الاجتماعي بعد الحدّ من تفشي الجائحة وعودة الحياة إلى طبيعتها، بعونه تعالى، لنضيف

مرفقا جديدا لحياتنا الثقافية والاجتماعية كنتيجة عرضيّة، ونستفيد منها في اللقاءات الثقافية التي يتعذّر علينا عقدها لبعد المسافات، وربما تستمر الاستضافات، وورش العمل التي لا تتعدى الجانب النظري، وبذلك نكسب الوقت مع عدم الاستغناء عن اللقاءات والفعاليات التي تقام بالقاعات، فنجمع الجانبين مثلما سيجري في التعليم المدمج، فتحلق الفعاليات بجناحين: افتراضي، وواقعي. وتبقى التطبيقات رفيقة رحلتنا بعد الجائحة مثلما هي، فعندما حَصَرنا «كورونا» في زاوية ضيّقة، وأدخلنا منازلنا التي لها في «القلوب منازل»، فارضا علينا الحجْر، أملى علينا الظرف القيام بحركة معاكسة في الاتّجاه للخروج من تلك الزاوية إلى ما هو أبعد، فبحثنا عن بدائل لكسره دون أن نغادرها، البعض منّا وجد ضالّته في القراءة، والكتابة ومواصلة العمل والدراسة عن بعد، والآخر وجده في مزاولة أعمال منزليّة يدويّة، ومن ذلك قامت مطربة شهيرة بنشر في حسابها بـ«سناب شات» مقطعا تشرح به طريقتها في عمل «السلطة»، فكانت تلك فرصة لذهبية لسماع صوتها، دون موسيقى سوى موسيقى الطنجرة، وصحون المطبخ!

حَجْر داخل حَجْر

هناك ليل لكلّ غرفة.

مريم شريف

لقد أفرط البعض في الوجود في مواقع التواصل الاجتماعي، فسجّل حضورا غير مسبوق، ودخل في نقاشات ومعمعات، وفي الأحوال كلّها قام بتنشيط حساباته، بينما أمضى البعض الآخر وقته في تنمية مواهب، وممارسة هوايات، لم تكن ضغوطات العمل تتيح له فرصة لمزاولتها، فحاول الاستفادة من وقته بأيّ شكل من الأشكال. قال الشاعر عارف الساعدي إنّه قبل الحجْر كان قد بدأ بكتابة رواية، لكنّ مشاغل العمل، والحياة، والشعر، حالت دون ذلك، فوجد في فترة الإغلاق فرصة للعودة إلى اكمالها، وبالفعل بعد أسابيع أنجز روايته الأولى (زينب) التي صدرت عن دار الرافدين ببغداد 2021.

ولكن، هناك مَنْ ظلّ يسبح في دوّامة الفراغ، فأمضى الحجْر في حجْر آخر أشدّ، وأقسى!!

إنّ المشكلة التي واجهت الكثيرين، تتركّز في أنّهم لم يهيئوا أنفسهم لوضع طارئ كهذا، لذا شعروا بالتيه في الأيام والأسابيع الأولى، ويوما بعد آخر استوعبوا الدرس، فتعاملوا مع الظرف بروح إيجابيّة، مستثمرين وقتهم، فأنجزوا مشاريعكانت مركونة على طاولة التأجيل، لكنّ أكثر المستفيدين من

وقتهم وخبراتهم خلال هذا الظرف، هم الذين تمرّسوا في التعاطي مع التطوّر التكنولوجي، فالعمل، والدراسة عن بعد تحتاج إلى معرفة، ولو بسيطة بالتقنيات، والبرامج الإلكترونيّة وقد برزت الحاجة كثيرا لمعرفة هذه التقنيات بعد الحجر المنزلي، واستغربتُ تذمّرنا أيّام الدراسة الجامعيّة عندما فرضت علينا دراسة مادة «الحاسبات الإلكترونية» في مطلع الثمانينيات، يومها تساءلنا عن علاقة طلبة يدرسون علوم اللغة العربيّة وآدابها في كليّة الآداب، بمادة علميّة تتعلّق ببرامج وأرقام ليست لنا علاقة بها، كما كنّا نظنّ!!

ولم نكن نمتلك تلك النظرة المستقبليّة التي تجعلنا نرى أنّ التقدّم التكنولوجي جاء ليشمل مجالات الحياة، كي يجعلها تسير بشكل أسهل، وأجمل!

وبعد تفشّي فيروس (كورونا)، عضضنا أصابع الندم، وصرنا نتعب حين نعدّد الحسنات الكثيرة التي أثقلت ميزان التطوّر التكنولوجي والتقني، فقرّبت مَنْ حَكَمَت الضرورة والسلامة العامّة أن يكون بعيدا عنا، حتّى لو كان يعيش معنا في بيت واحد!!

فصارت بمثابة رئات إضافيّة نتنفّس من خلالها، ونحن نغلق الباب جيّدا بوجه (فيروس) جاء مستهدفا رئاتنا، فكان الحلّ مجسّدا في الجلسات التفاعليّة التي تعتمد البث المباشر (أون لاين)، مستفيدين من وسائل التواصل الاجتماعي، فمثّلت لنا تلك المواقع والبرامج كمّامات إلكترونيّة وقائيّة، جعلتنا نتحاور مع بعضنا البعض بدون محاذير، ولا كمّامات، ومواد مطهّرة،

ومعقّمة، لأنّها وفّرت مناخ التواصل عن بعد، فحضرنا ندوات، ومحاضرات، وحلقات عمل، وجلسات شعريّة.

لقد وَضَعنا الحجر المنزلي أمام الأمر الواقع، فإذا كان عدم تمرّسنا في التعاطي مع التقنيّات الحديثة، نوعًا من القصور، قبل (كورونا) فخلالها أصبح ذلك من العيوب.

وهذا العيب شمل حتى بعض الدارسين للتقنيات، فالواقع التطبيقي يختلف عن النظري، وقبل خوض هذه التجربة، لم يكن معظمنا مطّلعا عليها، لأنّنا ببساطة لم نكن نحتاج إليها، و«الحاجة أمّ الاختراع» كما يُقال، لذا حاولنا من خلال أصدقاء متخصّصين الحصول على تلك المعلومات، وسارعوا إلى تقديم المساعدة عن بعد، فاستطعنا معرفة بعض الأمور الضروريّة. ويمكنكم تخيّل صعوبة موقف أستاذ أكاديمي أفنى عمره في التدريس، وكتابة البحوث، أمام طلّابه، عندما لا يستطيع تدبّر أمره في التواصل معهم عبر هذه البرامج، فتكشف تلك البرامج لهم جهله!!

والأمر لا يحتاج إلى جهد كبير، ويمكن تطوير هذا الجانب بالاستفادة من أصحاب الخبرات، والقيام ببثّ تجريبي، ومعرفة كيفية استخدام البرامج، والتعاطي مع الخيارات الموجودة، وتضبيط الصورة، والصوت، والإضاءة، تجنبا لحدوث اشكاليات فنيّة، لكي لانجد أنفسنا في حجْر داخل حجْر.

كُوى في جدار العزلة

الليل وأنا ننظر إلى بعضنا
نحب بعضنا
الوحدة أمام الوحدة
والظلام تجاه الظلام.
اليخاندرا بيثارنيك

منذ دخولنا دوّامة الحجر المنزلي، واشتداد أوار معركتنا الشرسة الصامتة مع فيروس (كورونا) التي أملت علينا بدورها علينا البحث عن منافذ أخرى بديلة، لاستئناف الأنشطة الثقافية، والتواصل مع المثقفين، والجمهور، فوجد الكثيرون ضالتهم في برنامج (زووم)، وأول من نبّهني إليه هو المخرج خليفة الحراصي، لحضور ورشة عمل مسرحية أقامتها فرقة مسرح هواة الخشبة، في الأيام الأولى للزومنا البيوت، وتوقف الأنشطة، وسرعان ما نجحت في تنزيله، وفي الوقت المحدّد لبدء الورشة وكان المحاضر الصديق د. شاكر عبدالعظيم حدث خلل فني في جهازي، لم أتمكن رغم استعانتي بمختصين من إصلاح ذلك الخلل، وبعد أيام عديدة دعاني الباحث بدر العبري للمشاركة في برنامج حواري يعدّه ويقدّمه، وكان محور الحلقة «المسرح، ودوره التنوري في المجتمع». وحين سألته عن البرنامج الذي سيجري من خلاله الحوار معي

قال (زووم) وفي تلك اللحظة، شعرت كأنه سدّد لي طلقة! فاعتذرت، واستغرب فشرحت له معاناتي معه، فقال: لا بأس لنجرب، وسأساعدك حتى تحلّ المشكلة الفنية، وفي الموعد المقرّر أمضينا ساعات دون جدوى، ولحسن الحظ أن الحلقة كانت تسجيلا، وليست بثا مباشرا، وحاولت الاعتذار من العبري، لكنه أصرّ، وأخيرا اتفقنا على إجراء الحوار صوتا بدون صورة. وقبل البدء إذا بالصورة تشتغل دون أن أعرف كيف تم الأمر! واستمرت الحال حتى إكمال الحوار، بعد ذلك هدأت معركتي الحامية مع برنامج «زووم» وعقدت هدنة معه، فقرّب لي الكثير من المسافات، وحلّ لي العديد من المشكلات التي حال التباعد الاجتماعي دون إنجازها، فهذا البرنامج يمكن الاستعانة به ليس فقط في الأنشطة الثقافية، بل حتى في الجلسات العائلية، وظهرت برامج أخرى عديدة. وبعد القرار الوزاري الذي أصدره معالي سالم بن محمد المحروقي حينما كان وزيرا للتراث والثقافة، في 16 أغسطس 2020، بإعادة تشكيل مجلس إدارة النادي الثقافي الذي قضى بتعيين د. محمود بن مبارك السليمي رئيسا، وتعييني نائبا للرئيس، وعضوية كلّ من: د. عزة القصابي، وعبدالكريم الميمني، وإبراهيم بني عرابة (أعضاء)، كان عليّ التعاطي مع هذه البرامج بشكل أكثر فاعليّة، لأنّ معظم الأنشطة الثقافيّة كانت تُقام عن بُعد، فالتقنيات فرضت وجودها، ولا يكاد يمر يوم دون أن نتلقّى دعوة لمتابعة أمسية، أو استضافة من خلال جلسة حوارية، أو ندوة، أو حلقة عمل. وعندما طلبت الصديقة نصراء المعمري مديرة حدائق الفكر للثقافة والخدمات استضافتي في مركزها عبر منصّات المركز، للحديث عن

تجربتـي مـع الشـعر، والعمـل الإعلامـي، والثقـافي، وذكريـاتي مـع المبـدعين العرب، رحّبت بالدعوة، وحين سألتني عن الـذي أقترحـه لمحـاورتي، رشّـحت الصديق الشاعر وسام العاني الذي لم يسبق لـه خـوض تجربـة مـن هـذا القبيـل، لكنني كنت واثقـا مـن نجاحـه، وهـذا مـا تحقّـق بالفعـل، فاقترحـتْ علـيّ إعـداد وتقديم برنامج يكون بالاشـتراك مـع العـاني، فدرسـنا الفكـرة، واقترحنـا برنـامج «كتاب مفتوح» الذي أردنا له أن يقدّم تجارب ثقافية وكانت البدايـة مـع الأسـتاذ غـيلان نجـل الشـاعر الكبيـر بـدر شـاكر السـياب، وكـان الحـديث حـول تجربـة والده. وجرى خلال حديث دام حوالي 5 ساعات على مدى حلقتين عـبر بـث مباشر الكثير من القضايا التي لم يتم التطـرق لهـا، فنلنـا رضـا الأوسـاط الثقافيـة الذي حفّزنا لاستضافة الكاتب الكبيـر واسـيني الأعـرج، والكاتـب عبـده خـال، والشاعر د. محمد علـي شـمس الـدين، والكاتـب إبـراهيم الكـوني، ود. سـعيدة بنت خاطر، وإبراهيم نصر الله، وسيف الرحبي، ود. يوسـف زيـدان، ود. عبـد الله الغـذامي، ود. علـي جعفـر العـلاق، وصـادق جـواد سـليمان. ولـم نكتـف بـالحوارات المرئيـة، بـل كـان الأخ وسـام العـاني يقـوم بتفريغهـا ونتعـاون علـى تحريرها ونشرها في الصحف والمواقـع تعميمـا للفائـدة، هـذه التقـارير شـكّلت بالنسبة لنا نواة كتاب ضمّ أبـرز مـا تـمّ التطـرّق إليـه في تلـك الجلسـات الحواريّـة حمل عنوان «كتاب مفتوح – حوارات ثقافيّة رقميّة».

عوالم افتراضيّة

لكي تعيش بشكل جيّد يجب عليك أن تعيش بشكل غير مرئي.

رينيه ديكارت

ذات يوم، طلبت منّي إحدى الإذاعات المحلية الحديث عن التحوّل الثقافي الرقمي، وأثره على الواقع الثقافي، وكيف استفادت الساحة الثقافية العمانية من هذا التحول؟ فأجبت: من محاسن كورونا أنها جعلتنا نطوّر أدواتنا، ونستكشف الخصائص التقنية الموجودة في هواتفنا. قبل ذلك، لم نكن نحسن استخدامها، فوفّرت علينا الشكوى من عدم وجود جمهور، وجعلتنا نضمن وجود جمهور لم تكن تستوعبه قاعاتنا لو حضر بشكل غير افتراضي، ونطمئن إلى ضمان توثيق الفعاليات، صورة وصوتا عبر اليوتيوب، كما أنها اختصرت علينا الكثير من الوقت الذي كنا نهدره في الذهاب والعودة للمكان الذي تقام به تلك الفعاليات، وربّما دخولنا هذه العوالم الافتراضيّة سيرافقنا، حين نغادر البيوت، والتباعد الاجتماعي، بعد الحدّ من تفشي الجائحة، وعودة الحياة إلى طبيعتها، لنضيف مرفقا جديدا لحياتنا الثقافية، والاجتماعية، كنتيجة عرضيّة، ونستفيد منها في اللقاءات الثقافية التي يتعذّر علينا عقدها لبعد المسافات، وربما تستمر الاستضافات، وورش العمل التي لا تتعدى الجانب النظري، وبذلك

نكسب الوقت والوقت، مع عدم الاستغناء عن اللقاءات والفعاليات التي تقام بالقاعات، فنجمع الجانبين، فتحلّق الفعاليات بجناحين: افتراضي، وواقعي، وتبقى التطبيقات رفيقة رحلتنا بعد الجائحة مثلما هي في أيامها، ولياليها.

في بيتنا مدرسة

النـور في قلبـي وبـين جـوانحي فعلام أخشى السـير في الظلمـاء

أبو القاسم الشابّي

بعد أن أحكـم كورونـا قبضـته على أمـاكن التجمّعـات، فباعـد بـين الجميـع، ولكون المدارس من بين هذه الأماكن، لـذا سـرى عليهـا مـا سـرى علـى جميـع مرافق الحياة، فأغلقت الكثير منها أبوابها لعدّة شهور، فعشعشت العناكـب فـوق أبواب الفصول الدراسيّة ومع بـدء العـام الدراسـي الجديـد، صـار المشـهد أكثر وضوحا، واختفت صور كثيرة ألفناها في كلّ عام دراسي، ففي تلـك الأيـام التـي سبقت الجائحة، كنا نرى عشرات الطلبة يتوجّهـون إلـى المـدارس، بملابسـهم الموحّدة، وحقائبهم التي تنوء بحملها ظهورهم كونهـا مليئة بالكتـب والـدفاتر، يصعدون في السيّارات المخصّصة التي نسـمع أصـوات منبّهاتهـا في الصـباحات البـاكرة، معلنـة عـن وصـولها إلـى البيـوت، لتنقـل الطلبـة فيخفّـون مسـرعين، متأبّطين أحلامهم ومحفوظاتهم، معلنين استعدادهم ليوم دراسـي جديـد، وهـذا مـا دأبنـا عليـه لسـنوات طويلـة، لكـن اليـوم أصـبح الوضـع مختلفـا، فقـد خلـت الشوارع من تلك الحافلات، والطـلاب، وأصـواتهم، وبـدلا مـن ذلـك صـارت المدرسة تأتي إلى بيت الطالب بدلا من أن يتوجّه إليها!

هل سنشهد أفول عصر المدرسة التقليديّة؟

أنا دائما بخير، أعرف كيف أتجاوز كلّ شيء.

دوستويفسكي

لم يكن الأمر جديدا على البيت الذي كان، ولم يزل الحاضنة العلميّة الأولى، هذه الحاضنة ليس فيها فصول، ولا سبورات كالتي توجد في المدرسة، ولا جرس، ولا حصص، ولا طلاب، وليس فيها غير معلم ومعلمة: الأم، والأب، فيها رضعت الأجيال القيم ممزوجة بحليب الأمهات، فخرّجت الكثيرين، وساهمت مع المدرسة في تعليم الأجيال وفي سنوات بعيدة عندما شهدت الفصول الدراسية زحاما شديدا، كان البيت حاضرا، وقد قام بواجبه على أكمل وجه، وظلّ سندا مهمّا للعمليّة التربويّة، والتعليميّة، وخير معين، فكان مدرسة ثانية، قام بدوره، حتى عندما حدثت نقلة في التعليم على صعيد البنية التحتية والتوسع في إنشاء المدارس وتوسيع الفصول وتزويدها بالمختبرات، ظلّ البيت داعما للمدرسة من خلال مساعدة الطالب في حلّ واجباته، ومراجعة دروسه، ولم يتخلّ يوما عن التزاماته، واليوم، صرنا نشهد تحوّلات سريعة، وقد عجلت الجائحة من تغلغل ثورة الذكاء الإصطناعي في تفاصيل حياتنا ومن خلال الدراسة «عن بُعد» صارت المدرسة تأتي إلى الطالب إلى البيت، بدلا من أن يذهب إليها، وهي مقدّمات لتحوّلات أخرى

لاحقة كبيرة في المجتمع البشري، و«الحاجة أمّ الاختراع» كما يقال، فمع ارتفاع الكثافة السكّانية وتراجع الموارد كان لا بدّ من حلول، ومعالجات للكثير من المشاكل التي طفت على السطح وعانى منها الكثيرون في أنحاء متفرّقة من العالم، ككثرة الإختناقات المروريّة في الشوارع، وما يصاحبها من هدر للوقت وتلف للأعصاب تلوّث للبيئة، وحوادث بسبب الزحمة، واستهلاك طاقة كهربائيّة، ومياه، وبترول، وإنفاقات تشغيليّة في المكاتب، وهو تحوّل سيقود إلى تحوّلات أخرى واسعة ولو علمنا أن صناعة الكيس أحدثت نقلة اقتصادية في العالم، لأن الفلاحين كانوا خشية التلف يزرعون على مقدار حاجتهم، فصناعة الكيس غيّرت الكثير، وشجعت على زراعة مساحات واسعة. ومع ذلك ظل الطعام يتعرض للتلف بسبب عدم القدرة على تخزينه ووضعه في القماش، فظهرت الحاجة لصناعة كيس يحفظ الطعام لفترة أطول، فكان كيس النايلون الذي ظهر في 1853، وهكذا بدأت سنة دراسيّة جديدة، فتحت نوافذها الإلكترونيّة، مديرة ظهرها لشهور مرّت ثقيلة بين تكملة مناهج في العام الدراسي السابق، من خلال الدراسة عن بُعد بدون طباشير وسبورات وصوت جرس، بينما واصل المعلمون إعطاء حصصهم بعد أن حجز الطلّاب مقاعدهم في بيوتهم أمام شاشات حواسيبهم التي جلبت لهم، وهم في عقرها المعلومة، وصورة، وصوت المعلم، والعلم، عبر برامج خاصة، أو مواقع التواصل الاجتماعي حسب الاتفاق الذي تمّ بينهم، وإدارات مدارسهم، حتى في فترات الامتحانات، والأساليب التي اعتمدتها تلك المدارس، فبعضها اشترط على الطلاب ارتداء الملابس المدرسيّة، ليكون الطالب متهيئا من

الناحية النفسيّة لتلقي المعلومات، بينما اكتفى بعضها الآخر بإعطاء الدروس عن طريق تسجيل فيديوهات، أو رسائل صوتيّة، وبحسب الظروف، وكل هذه العمليات تتم بمساعدة الأهل، وإشرافهم المباشر، والمستمرّ، ومن خلال حاسباتهم، الأمر الذي أحدث أزمات في بعض البيوت التي فيها عدد من الطلاب، بينما يحتاج ذووهم الحاسبات لإنجاز أعمالهم مع مراكز عملهم عن بُعد!

ولو قرأنا الوضع الذي فرضته الجائحة دقّ جرس إنذار بعيدا عن جرس المدرسة الذي حتما أن العناكب نسجت خيوطها بفمه! ويملي علينا طرح العديد من التساؤلات: ألا تحتاج المدرسة إلى تغيير في المفاهيم والممارسات في العملية التربوية التي أصبحت تقليدية؟

فالجيل الجديد ليس بحاجة إلى معلّمين (اليوم قام الآباء بدورهم في التعليم إلى جانب التربية كما هو معروف) بالقدر نفسه الذي يفرض الحاجة إلى تغيير فلسفة التعليم، فقديما، كان الطالب يسافر من المكان الذي يعيش به قاصدا مفكّرا، أو فيلسوفا، أو رجل علم، لأخذ العلم عنه، وهدفه العثور على المعلومة واكتساب المهارة، وليس الحصول على درجة النجاح، والشهادة، كما هو اليوم، التي تغيّرت الأهداف والأولويّات في دولنا العربية، وصارت الشهادة هي الهدف وليس الحصول على المعرفة العلميّة، بينما يرى أفلاطون أستاذ أرسطو (المعلم الأول) أن الهدف من التعليم هو «معرفة كيفية العيش بشكل مناسب»، دون الاقتصار على العلوم، بل كيفية ترويض النفس، والتربية السليمة، والشجاعة، والاعتدال، والأخلاق، ليكونوا أكفاء لعيش حياة سعيدة،

فيفيدوا المجتمع، علما بأن افلاطون وضع نظاما للتعليم أقرّ به أنه ليس بالضرورة أن يجتاز البعض جميع مراحل التعليم، بل يقف من لم يتمكّن من التأهيل لمرحلة أعلى عند حدّ معين، ويبحث عن الدور الذي يناسبه أكثر في حياته العملية. هذا الأمر لم يعد موجودا في نظامنا التعليمي، فغاب الهدف، وغابت الرغبة الذاتية للتعلم، وتطوير الذات، والمهارات، واستجدت أهداف أخرى تتركّز في الحصول على شهادة تضمن وظيفة مرموقة وراتبا جيدا ووجاهة اجتماعية!

ولنكن أكثر صراحة، ونسأل أنفسنا: هل المعارف التي اكتسبناها واستفدنا منها في حياتنا العملية تلقّيناها من المدارس؟ أم عن طريق التجارب الحياتية، والاحتكاك بأشخاص؟

أظن أن الإجابة ستكون مخيبة لأساتذتنا في المدارس التي تعلمنا بها، وهذا لن يقلل من استفادتنا منهم، بل إننا في بعض الأحيان أخذنا من أساتذتنا خارج الفصول الدراسية أكثر مما أخذنا داخلها!! نظرا لاكتظاظ الفصول التي درسنا فيها بوقت كانت بنايات المدارس في بلداننا العربية عموما، لا تستوعب عدد الطلاب، ولم يحل الدوام المزدوج المشكلة، فكنا نحاصر أساتذتنا بأسئلتنا الملحّة من لحظة خروجهم من الفصول حتى دخولهم غرفة الإدارة، وأحيانا لا نكف من طرح الأسئلة عليهم، بعد انتهاء الدوام، والجميع في طريقه للبيوت!

واليوم صارت الفرصة مواتية لكي نعيد النظر بفلسفة التعليم، وما وصلت إليه في ظلّ الظروف الراهنة التي أعطتنا مؤشّرات واضحة تؤكّد أنّنا سنشهد قريبا أفول عصر المدرسة التقليديّة!

تعليم مدمج وتحوّلات حتميّة

من يطارد أرنبين، لن يفوز بأي منهما.

تشيخوف

في سنوات تشرّده وتمرّده على المؤسسة التعليمية التقليدية، ترك الشاعر الفرنسي رامبو الدراسة، وحين سئل عن ذلك أجاب: «من الحماقة أن تبلى سراويلنا على مقاعد الدراسة».

لكنّ بعد أيّام من تفشّي الجائحة، ودّع التلاميذ مقاعد الدراسة مجبرين حتى انجلائها، واكتفوا بالدراسة عن بُعد، وبعد إقرار هذه الآليّة في دول عديدة من العالم، ارتفعت أصوات معترضة، بل إن الكاتب الكويتي طالب الرفاعي نشر مقالا في جريدة «الجريدة» الكويتيّة في 2 يونيو 2021م حمل عنوانا صادما هو «فشل التعليم عن بُعد». رأى به أن شيئا من من الموضوعيّة يحتّم علينا الاعتراف بأنّ هذه التجربة قد فشلت بامتياز، مضيفا أنه ما بين ليلة وضحاها وجد الطالب نفسه أمام عالم جديد، عالم يقوم على علاقة بالكمبيوتر وتقنية استخدامه، وعلى علاقة تفاعلية مع الآخر المختفي خلف الشاشة، وعلى شروط أولها الثقة بين المدرّس والطالب، وثانيها إخلاص الطالب وصدقه مع نفسه ومدرّسه ومع فهمه للمادة. والمتابع لظاهرة الغش يدرك تماما أنّ عددا كبيرا من الأسر بحاجة إلى إعادة النظر في ثقافة الغش، وإن أبسط قواعد

السلوك الإنساني تتطلّب الأمانة، فما بالك بأمهات وأخوات يتفننون في مساعدة أبنائهم أثناء الامتحان، داعيا إلى «ضرورة التفكير جدّيًا في الرجوع إلى التعليم الاعتيادي إذا كانت الظروف الصحّيّة تسمح بذلك».

في كتابها «أن يكون الواحد منّا ملجأ للآخر» تحذّر الباحثة ماري بيير من خطورة المخترعات الحديثة على الأجيال الجديدة، وترى أنّها «نجحت في ايقاظ الوحوش الكامنة فينا وأنها تستعد لإعادتنا إلى شريعة الغاب، فالآلات هي التي تربّي أطفالنا، لا نحن، والآلات لا قلب لها، ولاعاطفة، ولا أحاسيس، وهي لا تمنحهم الحنان. ومع علمنا أنّ هذا الوضع مؤقت ورغم الاعتراضات، سيقود إلى تحوّلات أخرى حتميّة، ومن المؤكّد أنّ الكثير من الممارسات الخاطئة التي ترافق كلّ ظاهرة جديدة يمكن أن تزول مستقبلا، ﴿**وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ (الرعد:17)، وستبقى العادات، والسلوكيّات، والإجراءات التي أملتها علينا ظروف التباعد ووجدنا فيها منفعة ملازمة لنا، لا سيّما بعد أن عرفنا فوائدها، فالمجتمعات البشريّة تمشي إلى الأمام، والتطوّرات التي حصلت في تاريخها جاءت نتيجة لحدوث كوارث، وليس من المستبعد أن يصبح البيت مدرسة، وتتحوّل المدرسة إلى مكان يذهب إليه الطالب لاستكمال إجراءات لازمة، كأداء الامتحانات، وسواها من الأنشطة التعليميّة، مثلما نفعل عندما نراجع دوائر رسميّة بين حين وآخر، وهو ما يقترب من مفهوم (التعليم المدمج)، وجاء ذلك بعد جدل طويل، تخلّلته تكهّنات، وسيناريوهات عديدة، ليتمّ حسمه بعد إغلاق المدارس أبوابها بين عطلة صيفيّة تمدّدت واستطالت حتى بلغت خمسة شهور بدلا من ثلاثة!

وبلبلة في الأذهان، وقلق على مستقبل الأبناء، وخوف من موجة ثانية من «كورونا». ومع بدء العام الدراسي (2020- 2021)، جاءت التوجيهات السامية بتخصيص العام للتعليم المدمج ليجيب عن كلّ الأسئلة، وكما هو معروف فإن هذا النوع من التعليم يجمع بين التعلّم عن بُعد (الفصل الافتراضي)، وداخل الفصل الدراسي (التقليدي) باشراف معلّمين، مع التقليص في الإجازات والمناهج، ومما يسهّل ذلك أن الجميع اكتسب خبرة من العام الدراسي السابق. والجيل الجديد على دراية بالكثير من التقنيات والتطبيقات بحكم شغفه بأجهزة الحاسوب والهواتف الذكيّة التي تسهّل له الكثير من الأمور، في وقت تجد الأجيال السابقة صعوبات في التكيّف مع هذه الأجهزة، لأنّها نشأت في كنف ثقافة مختلفة، وهو، حلّ وسط، أسكت الأصوات الداعية إلى تأجيل السنة الدراسيّة، فالتعليم يبقى حقّا مكفولا. ومن حقوق الطفل الواجبة علينا، وينبغي أن لا نحرمه هذا الحقّ، تحت أيّ ظرف. ولنضع في أذهاننا أنّ تعطيل الدوام سنة دراسيّة هو تعطيل للمستقبل، أقول هذا، واضعا سلامة أطفالنا من الفيروس في المقدّمة، ومراعاة توفير البيئة الآمنة لهم، مدركا صعوبة الظروف التي يعاني منها الآباء والأمّهات في تسيير عملية التعلّم عن بُعد، وعدم توفّر الامكانيّات اللازمة لها لدى البعض، وضعف شبكات الإنترنت في عدد من المناطق البعيدة، لكنّ ينبغي علينا التعايش مع هذا الظرف، للخروج منه بأقلّ الخسائر، ويمكن الاستفادة من الأدوات الأخرى المتاحة كالإذاعة والتلفزيون في إعطاء دروس تربويّة وتعليميّة باشراف الأهل، وكذلك استخدام الأقراص المدمجة، وسواها من الوسائل المتاحة، وكذلك

الدروس الأساسيّة التي سيأخذها الطلبة في المدارس، والتي تلقّى المعلّمون دورات تدريبيّة من قبل متخصّصين في «التعليم المدمج». والأمر واجه صعوبات في البداية لعدم استطاعة بعض الأسر توفير الأجهزة اللازمة لأبنائها، وفي النهاية جرى معالجتها بتكاتف الجميع، فنتائج التعليم تصبّ في خدمة المجتمع، وتعود بالنفع على الجميع، والمستفيد الأكبر هو العملية التعليميّة برمّتها، خصوصا أن التعليم لم يعد يقتصر على اليوم الدراسي، ولا مقاعد الفصول، فكلّ الأماكن صالحة لتلقّي العلم، وبذلك كسبت (أكبادنا التي تمشي على الأرض) سنة دراسية تمهيدا لعودة الدوام الحضوري في العام الدراسي (2021–2022)، بعد شمول الفئات العمرية الأقلّ من 18 عاما بالتطعيم ضد الوباء في عدد من دول العالم، ومنها السلطنة، فأعطت طلبة المدارس من عمر 12 سنة فما فوق اللقاحات المضادة لفيروس (كورونا)، وبذلك يعود الطلبة إلى مقاعد الدراسة، لكن هذه العودة هل ستكون مجازية مثلما ذهابهم كان مجازيا؟ كما خلص الشاعر محمود درويش في كلمته عندما عاد لمدرسته (كفر ياسيف) التي درس بها في مدينة الجليل، بعد أربعين سنة من الغياب قائلا: «كأني أحلم بأنني أرى في الحلم أنني أفيق على حلمي».

الوباء و«فلذّات أكبادنا»

سُئلت إعرابيّة: أي أولادك أحب إليك؟ فأجابت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والمسافر حتى يعود.

لعلّ أبرز المتغيّرات التي أحدثها تفشّي «كورونا»، بحياتنا، أن آليّة التباعد الاجتماعي جعلتنا نولي اهتماما كبيرا بالتقنيات، والتطبيقات، في التواصل، والعمل، وحتّى في الدراسة بالنسبة لـ«فلذّات أكبادنا»، التي زاد التصاقها أكثر بأجهزة الهواتف الذكيّة، وأجهزة الحاسوب، بعد أن كانت الأسر تنظّم علاقة الأولاد بها. وفي الملتقى الافتراضي الأوّل لجماعة أدب الطفل العربي الذي أشرفت على أعمال جلساته د. وفاء الشامسية، استوقفني الدكتور سعيد بهون علي المتخصّص بأدب الأطفال بجامعة بومرداس الجزائرية، حين رصد بورقته تداعيات الوباء على أدب الطفل، وكيفيّة استثمار ما أتاحته من تطبيقات، ووسائط «في ظل منجزات علمية وتقنية لم يسبق للإنسان تحقيقها، ولا الإعتماد عليها، فعطّل (الوباء) مسيرة الحياة في كثير من مجالاتها، وأظهر حقائق في العلاقات، والكيانات، والأشياء، مما دفع بالجميع إلى التكيّف، والمواءمة، والشروع في مراجعات عميقة»، مما جعلني أتساءل عن الجوانب السلبيّة التي يمكن أن ترافق الإفراط باستخدام تلك الوسائط على أطفالنا، بعد

أن أصبحت واقعا تفرضه الظروف، واتّسعت حرّيّة كلّ طفل في التعاطي مع تلك التطبيقات في ضوء انتهاج آلية التعلم «عن بعد» التي حلّت محلّ المدرسة، وقلّلت من اندماج الطفل بالمجتمع، وشلّت حركته التي من شأنها تثبيت الشخصية داخل المحيط الاجتماعي. ومع الأوضاع الجديدة من المتوقّع لنا أن نشهد تقطّع الأواصر التي تربط الأجيال الجديدة بمحيطها الاجتماعي، وهنا مكمن الخطر الذي يتجسّد في الانقطاع عن المحيط، مما سبَّب ضعفا في التفاعل الاجتماعي الذي له دور في التنشئة وبناء الشخصية، و رسَّخ هيمنة الثقافة الغربية، نتيجة الانفتاح على ثقافات العالم وفقدان دور الأسرة والانصراف للتقنيات الحديثة بكلّ محمولاتها الفكرية. وفي كتاب الدكتورة كاملة بنت الوليد الهنائية «مسرح الطفل في عمان» يضع ناشر الكتاب (دار لبان للنشر) عبر كلمة على الغلاف الأخير، يده على الخطر الذي يهدد الأجيال الجديدة فيقول: «لاشكّ أنّ ما يقوم به «أبو الفنون» في الحياة المدنيّة على قدر هائل من الأهمية في توصيل المعلومة وترسيخ الوعي، والأهمّ: تأصيل الهوية، والانتماء في جيل يدور في فراغ الأجهزة التقنيّة، إذ العولمة تضرب أطنابها في كلّ مكان، لتكون الأوطان محض سكن للإقامة فقط».

ومن هنا يأتي دور الفنون، ويقف في مقدّمتها المسرح باعتباره واجهة تثقيفيّة حضاريّة، لها دور مشهود في رفع مستوى الوعي، ودرجاته، ومراقبة متغيّراته، وحركيّته، لكن هل نجحنا في مدّ جسور التواصل بين هذه الأجيال والمسرح؟

الوقائع تؤكّد وجود تقصير واضح في هذا الجانب، فالمسرح يعاني من الاهمال، وكما تقول الهنائية في كتابها الذي يعدّ أول كتاب يوثق لمسرح الطفل

في السلطنة: «إن المشتغلين بمسرح الطفل العماني لم يحظوا بما حظي به أقرانهم في مسرح الكبار من دعم، وانتشار، وتدوين، وتوثيق، وعدم وجود استراتيجية وطنية له، ولا جهة حكومية داعمة له، على الرغم من أن مسرح الطفل في عمان قد بدأ منذ عام 1972».

وفي جلسة حوارية حول واقع مسرح الطفل في عمان، في برنامج «وقفات» للمركز الدولي للإعلام والثقافة والإبداع، الذي يعدّه ويقدّمه المخرج مهدي البابلي، احتل المسرح المدرسي مساحة من الحديث، لكون بدايات المسرح العماني خرجت من المدارس السعيدية الثلاث في (مسقط ومطرح وصلالة) في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، لكن مع عدم وجود اهتمام بالمسرح المدرسي تراجع دوره، ففقد أطفالنا واجهة تثقيفية وتعليمية مهمة تقّدم المعلومة باطار جمالي لا يخلو من متعة وتسلية، لذا يجب أن نكون بحالة من اليقظة، فواجبنا هو تحصين الأجيال الجديدة، وتعزيز انتمائها، فإذا تسلّحنا بالوعي، والخبرة، والتجربة، يمكننا الإدّعاء بأنّنا نستطيع التحكّم، وفرز الصالح من الطالح، وتصفية ما نراه خطرا على ثقافتنا، بفضل ما نمتلك من حصانة فكريّة، وصدّ الغبار الذي يرافق ما تبثّه المواقع من أفكار حملتها رياح العولمة الثقافيّة، وسموم تستهدف الهويّات المحلية، والخصوصيّة المجتمعيّة، وعدم الذوبان فيها، والدوران في فلكها، ومقاومة أعاصيرها!

زهورنا، وفكّ الضجر المفترس

أشعر بأن هناك نوعا من الركود في روحي، يجب أن أفعل شيئا لأوقظها وأعود مثلما كنت.

تشيخوف، من يومياته في نوفمبر 1888م

حينما حاولت تخيل شكل كوفيد 19 كما يمكن لمخيّلة طفل أن ترسمه، لم أجد صورته متطابقة مع الصور التي ظهرت للعلماء بعد وضع الفيروس على شريحة في مختبر مجهّز بمجهر ذي دقة عالية، فالشكل الكروي المدبّب لا يبدو مخيفا، بل هو أقرب ما يكون للشكل المسلّي، ولو رفعنا عنه الأشواك المدبّبة لصار كرة عاديّة، قابلة للركل بالأرجل!

لذا، تخيلته فكّا مفتوحا بأسنان حادة، كالمخالب، هذا الفكّ فرض على الحياة أسلوبا مختلفا، فافترس الكثير من التفاصيل الجميلة، وقيّد حركتنا، وألقى بنا في هوّة عميقة اسمها: الضجر!

وإذا كنا، نحن الكبار، اتّبعنا الإجراءات اللازمة للحدّ من تفشّي (كورونا)، فجعلنا النشاط العقلي بديلا عن البدني الذي تراجع بنسب عالية كنتيجة للإقلال من الحركة خارج البيوت، ويوما بعد آخر، انسجمنا مع الوضع الجديد، مكرهين، وتناغمنا معه، فإن «أكبادنا التي تمشي على الأرض» لم يكن من السهل عليها كبح جماح نشاطها الحركي، وهو وضع طبيعي،

لمرحلتهم العمريّة، لذا كان من اللازم علينا إيجاد وسائل تملأ وقت أطفالنا، فما الذي قدّمناه لهم، لتخفيف وطأة كورونا خلال فترة الإغلاق؟

سؤال وجهه لي أكاديمي صديق هو أ. د. سعد محمد التميمي في حوار مرئي بهدف بثّه في مهرجان «الأمل» للأطفال، ولأني لم أكن أمتلك جوابا واضحا، اكتفيت بإجابة نظرية أكثر مما هي عملية وواقعية، لأننا بالفعل لم نلتفت «لأب الرجل» كما يصفه الشاعر الإنجليزي وليام وردورث، إشارة إلى تأثير مرحلة الطفولة في سلوك الإنسان عندما يكبر، فذكرياتها من الصعب أن تفارقه، وتظلّ سلوكيّاته محكومة بتلك التأثيرات، كيف يمكن للطفل الذي رآه الكاتب نجيب محفوظ، عند إحدى إشارات المرور، يبيع الحلوى، ومعها «يبيع حلمه»، كما كتب محفوظ، أن ينشأ نشأة سويّة، متجرّدة من العقد الطبقيّة؟ هل جلسنا إليهم وحاورناهم واقتربنا من عوالمهم، وأوجدنا بيئة قائمة على التوادّ والتراحم وأشركناهم في الفعاليات الثقافية والاجتماعية التي تقام عن بعد؟ ماهي المهارات التي اكتسبوها خلال مرحلة الحجر المنزلي؟

طرحت هذه التساؤلات على أصدقاء لي، وعلمت أنّ عددا منهم، لم ينتظر أن تقوم المؤسسات بذلك، فاعتمد على نفسه، وأعطى أبناءه دروسا ببعض الأمور البسيطة المتعلقة في فنون الكتابة، والرسم، والتعبير، وتعلم المهارات اليدوية، فاستفاد من تلك الفترة. ورغم أن هناك مَنْ شكا من أنّه وجد نفسه موزّعا بين مهامه الوظيفية، ومساعدة أبنائه في التعلّم عن بُعد، وكان الضغط كبيرا على كاهله، وعلى الأجهزة الإلكترونية المنزليّة، مع ذلك حاول مضاعفة الجهود، والتكيّف مع الوضع الجديد المفروض على الجميع لضمان

السلامة، وقد حدّثني أستاذ جامعي، قائلا إن الوقت الذي كنّا نشكو من ضيقه، صار ملكا لنا بشكل كامل، لذا استثمره في تعليم أولاده أساسيات فن التجويد التي اكتسبها من دورة نظّمت في المسجد القريب من منزله، وكان الهدف مزدوجا: استذكار ما درس، وتعليم أبنائه. وهناك من نظّم في المنزل مسابقات بين أبنائه في حفظ القرآن الكريم، وقراءة الشعر العربي القديم، وفن الرسم، والتلوين، والبعض فضّل قضاء وقت مع أبنائه في ترتيب المكتبة المنزلية وبناء علاقة مع الكتب.

وتبقى هذه الحالات فرديّة، لم تصل إلى أن تكون حالة مجتمعيّة، وعلينا ألّا ننكر أنّ الكثير من أطفالنا عانوا من ضغوطات، ستترك آثارا سلبيّة على تكوينهم النفسي، وما دام الوضع قائما، وأمضوا في السنة الدراسيّة 2019-2020 عطلة صيفية طويلة، امتدّت حتى نوفمبرمنه، خصوصا أنّها مرّت عليهم دون سفر وخروج للحدائق والمتنزهات والاختلاط بزملائهم من الأقارب والأصدقاء، لذا تحتّم وضع برامج هادفة، وابتكار أنشطة تقام عن بُعد، واشراكهم بدورات تدريبية عن بُعد في اللغة، والفنون، وإدماجهم في فعاليات، وتطوير المهارات بالنسبة للفتيات بالخياطة والتطريز، أما الفتيان، ففي زراعة الحديقة المنزلية، وتشذيب الأشجار، والقضاء على النباتات الطفيلية، وهي أعمال بسيطة لكنها مفيدة بدنيّا، ولها انعكاسات نفسية تؤثّر إيجابا على شخصيّاتهم بعد سنوات، عندما يتذكرون أيام الجائحة، وخروجهم بالسلامة، وبمهارات جديدة من الضجر، وفكّه المفترس!

حصان الشعر يواصل صهيله

وآدم الذي انتهى
للتوّ من خوائه القديم
تخثّر النهر وظل واقفا
كنورس يتيم
ومخلب الوباء في رحاله
وبعد نوبتين من سعاله
يمزّق الخواء.

وسام العاني

الشعر جزء من الحياة، ورصد دقيق لنبضها، وإن تعدّدت زوايا نظر الشعراء، وطرائق تعبيرهم عنها، باختلاف الزمان، والمكان، وتبدلاتهما، فالشاعر ابن بيئته وظرفه التاريخي، ومهما جنحت لغته للخيال، فهو لا ينفصل بأيّ شكل من الأشكال عن الواقع، وهموم الناس وبعد الجائحة، لم تمرض القصيدة، بل سرعان ما تفاعل الشعراء مع الخطر الذي يهدد العالم، راصدين أدق المشاعر الإنسانية، وليس بالضرورة أن يكون التعبير مباشرا، فبعضها جاء على هيئة قصائد حب، تقول الشاعرة الإنجليزية

ليندا هيبين في قصيدة عنوانها «وقت الإغلاق أشتاق إليك» ترجمها د. صادق رحمة:

المقعد فارغ

ولا أحد هناك

لكني أراك

تمرّر أصابعك

بين خصلات شعرك

ضحكة – لكنها ليست للنوارس

همسة– لكنها ليست للبحر

لا أحد هناك

لكنك دوما معي

وحين أرادت الحكومة التشيكية أن تشجع مواطنيها على أخذ اللقاح لجأت للشعر، فاستعانت بقصيدة لشاعر تشيكي، ويظلّ الشعر حاضرا، في مواجهات الإنسان المصيرية.

الشعر والأوبئة

العالم ليس إلا مستشفى ضخمًا
يريد جميع من فيه تغيير أسرّتهم.
شارل بودلير

عندما أصيب أبو الطيب المتنبي بالملاريا، خلال إقامته بمصر، سنة (348هـ)، وعانى من الحمّى التي تسبّبها كتب قصيدة ظلّت خالدة، وببيت واحد من أبياتها، تخلّت الحمى عن اسمها، وصار النقاد، والدارسون يطلقون عليها اسم «زائرة المتنبي»، وهذا البيت هو:

وزائرتي كأن بها حياء   فليس تزور إلا في الظلام

ويتحدّث في قصيدته عن هذه الزائرة الثقيلة، التي رغم كل ماتسببه له من آلام، يحاول أن يحسن وفادتها، من خلال رسم صورة سرديّة لا يخلو من طرافة، لما كان يجري بينه، وبين ضيفته، التي يطيب لها أن تسكن عظامه، فيقول:

بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها   فتوسعه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري   مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوقٍ   مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شرٌّ   إذا ألقاك في الكرب العظام

ولم يكن المتنبي يخرج بهذا التصوير المدهش، لو لم يعش التجربة معايشة دقيقة، مثلما عاشها الشاعر علي أحمد باكثير الذي ألمّت به الحمّى أيضا عندما كان يعمل في التدريس في حضرموت عام 1929 فكتب أكثر من قصيدة، من بينها (دعيني أيها الحمى)، تحدّث بها عن المرض الذي داهمه، وجعله طريح الفراش في زمان ومكان لم تكن به رعاية طبّيّة كافية لعلاجه منها، وهذا ما يشير إليه في قصيدته:

وغادرني طريحا في فراش ... بأرض ما بها أبدا طبيب

وما أدري وقد أوهنت جسمي ... أأخطئ في مقالي أم أصيب

وبين الجسم والفكر ارتباط ... إذا ما طاب ذاك فذا يطيب

وحين يكتب الشاعر فضل خلف جبر «حمّى كورونا»، فمن المؤكّد أنّ اشتغالاته ستكون مختلفة، لأنّها تعكس روح عصرنا الحديث، لغة، وأداء، مستحضرا تقنيات القصيدة الحديثة في نصّه «حمّى كورونا»:

مساءَ كلِّ يومٍ،
أقودُ سيارتي باتجاهِ مطارِ المدينةِ المُغلقِ
وهناكَ،
أقفُ أمامَ البوّابةِ مثلَ علامةِ استفهامٍ هائلةٍ
مودّعًا مغادرين إلى أماكنَ بعيدةٍ
أحملُ للبعضِ حقائبَ الفراقِ
أتجاذبُ أطرافَ الحديثِ معَ ذكرياتٍ قديمةٍ
أصغي لأناسٍ مستغرقينَ بضحكٍ أبيضَ

آخرينَ يكون بمرارةِ حريقٍ
أصواتُ استغاثةٍ بعيدةٍ
نداءاتٌ متكررةٌ لأسماءٍ مألوفةٍ
طائراتٌ رابضةٌ على الأرضِ
مثلَ طيورٍ جاثمةٍ على بيوضِها
نداءاتٌ، نداءاتٌ، نداءاتٌ تملأُ السماءَ بدخانِ القَلقِ
تمرُّ وجوهٌ كثيرةٌ دونَ أن تتوقفَ...
مساءَ كلِّ يومٍ،
أنزعُ عن ذاكرتي مخالبَ الحُمّى
وكما تنزعُ الأفعى جلدَها المهترئَ، كذلك تفعلُ روحي
وأنا أربّتُ على كَتفِ الغيابِ مؤاسيًا، مثلَ صديقٍ قديمٍ... ».

وللكوليرا حكاية موجعة مع الشعراء، مثلما مع الكتّاب الذين أبرزهم غارسيا ماركيز الذي أعاد الكثيرون في زمن (كورونا) قراءة روايته «الحب في زمن الكوليرا» الصادرة عام 1985، وترجمها الراحل صالح علماني. وكثيرا ما قرأنا عن وباء الكوليرا الذي هاجم مصر عام 1902 (موطنه الأصلي وادي (اليانج تسي) في الصين ودلتا نهر الجانج في الهند) وهناك اعتقاد بأن معظم الأوبئة في التاريج جاءت من هذه المناطق!! وكان الكوليرا وباء خطيرا، حتّى إنّ د. طه حسين، قال عنه في كتابه الأيام أنّه« فتك بأهلها فتكا ذريعا، ودمّر مدنا وقرى، ومحا أسرا كاملة»، وكان لا بدّ أن تكون لأحمد شوقي كلمة، فقال:

لهفي على مهج غوال غالها   خافي الدبيب محجب الأظفار

خمسون ألفا في المدائن صادهم شـرك الـردى في ليلـة ونهـار
ذهبـوا فليت ذهـابهم لعظيمـة مرموقـة في العصـر أو إفخـار

وقبل ذلك كتب الشاعر المصري علي الجارم عندما ضرب الكوليرا مدينة (رشيد) المصريّة عام 1895 قصيدة مطلعها:

أي هـذا «المكروب» مهلاً قليلا قد تجاوزت في سراك السبيلا

بل، ويحاول الجارم أن يرسم صورة شعرية لـ«ميكروب» الذي يأخذ شكل حرف الواو، كما يبدو في المجهر، ويشبّهه بالمنجل الذي يحصد الأرواح، والنفوس، فيقول:

لست كالواو، أنت كالمنجل الصاد إن أحسـنوا لـك التمثـيلا
ما غلبت النفوس بالعزم لكن هكـذا يغلـب الكثير القليلا
ربّ طفل تركت من غير ثدي يضرب الأرض ضجة وعويلا

وليس من الضروري أن يصاب الشاعر بالوباء، ليكتب عنه، فالشاعرة نازك الملائكة، كتبت عن الكوليرا، دون أن تصاب به، فدوّنت مشاعرها في الخسائر الجسيمة في أرواح المصريين في قصيدتها «الكوليرا» التي عدّها النقّاد فتحا في تطوّر القصيدة العربية الحديثة، فجعلت الملائكة رائدة في الشعر الحديث، شعر التفعيلة:

سكَن الليلُ
أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنّاتْ
في عُمْق الظلمةِ تحتَ الصمتِ على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو تضطربُ

حزنٌ يتدفقُ يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ
في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
الموتُ الموتُ الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

ويتحدث الشاعر الراحل عبد الرزاق عبد الواحد عن المريض من زاوية خاصة، عندما يكابر المريض، ويخفي أوجاعه عن المحيطين به من الأحبة، وهم يعرفون أنّه يتألّم بصمت:

أدري بأنّك رغم هول الداء لا تتكلّمين
أدري بأنّك تنزعين
وتغالطين الموت خشية أن أراك
أنا المريض
تتألّمين
كيلا يعذّبني شكاتك
ليت أنّك تشتكين

واليوم، حين شنّ فيروس (كورونا) حربا ضروسا على العالم بأسره، ليس من الغريب أن يتفاعل الشعراء مع هذا الوباء، ويتجلى ذلك بصور مختلفة، كما نقرأ في وسائل التواصل الاجتماعي، لكن الأمر يحتاج وقتا لتختمر تجاربهم، وتكون بمستوى الهزّة العنيفة التي أحدثها هذا الفيروس في حياتنا، وشكلها حتّى بدت كأنها ليست كما كانت قبل «كورونا»!!

طينٌ يذوبُ في حمم الجائحة

ضعيف هذا العالم
حدّ الهشاشة
فثمّة فيروس صغير وحقير
يفتّ في عضده.

مبارك العامري

كانت الجائحة قد بدأت تسبّب إرباكات كثيرة، من بينها إغلاق صالونات الحلاقة الذي جعل شَعرنا يطول بلا تشذيب، لكن هذا الأمر لاشيء إزاء الشلل الذي أصاب الكوكب، والخوف، والذعر، والخسائر البشرية بالأرواح، ومن بينهم معارف وأصدقاء ومنهم الشاعر مبارك العامري الذي كتب في أيامه الأخيرة، وكان يعاني من فشل كلوي:

سأمضي إلى القمم
المنيفة
غير آسف على شيء
متآخيا مع الآرام
والأيائل
تاركا السفوح للحطابين

وأبناء آوى

الفارغين من الحب.

وهكذا مضى العامري مودّعا أحباءه بعد صراع مع المرض دام سنوات، وظل خلالها عنيدا، لم ينقطع عن الكتابة حتى وافاه الأجل، والعالم في خضمّ جائحة «كورونا» لتطوى الصفحة الأخيرة من كتاب حياة شاعر، وكاتب، وصحفي، بل إن الكاتب محمود الرحبي يعتبره «رائد الصحافة الثقافية في عمان، حين رعى في أواخر السبعينيات أولى حاضنات الأدب العماني الجديد. ومن يعرف مبارك العامري عن قرب يتعرف فيه على صفات إنسانية غاية في النبل والإيثار». ورغم أنّ المرض أبعده عن الوسط الثقافي لسنوات إلّا إنّه لم ينقطع عن الكتابة، فأصدر مجموعته «بسالة الغرقى» عن دار الجيل الجديد ببيروت، لتضاف إلى ما سبق له من اصدارات من بينها رواية «شارع الفراهيدي» التي نالت إهتماما نقديا. تقول عنه الدكتورة فاطمة الشيدي «إنساني النزعة يكتب عن الإنسان باتساع وشمول منحازا له، وللخير والحق والجمال، معريا القهر والظلم الذي ينشب مخالبه في روح ووجه ورغيف الإنسان، والقيد الذي يوغل في أحلامه وأعصابه، والعِصابات المتشكلة حول الرؤى والرؤية. يكتب عن الجوع والفقر والمرض، تماما كما يكتب الحرية وضرورتها للروح لترتقي وتتنفس، يكتب بشعرية مشبّعة بالألم والحزن، بعيدة عن التجلي والإفصاح خارج الشعر الذي يمكن أن يقول كل شيء بحذر وبلاغة، وكانت كتاباته الأخيرة تتمحور حول الفيروس ففي منشور له يوم9 مارس 2020 كتب:

ضعيف هذا العالم

حدّ الهشاشة

فثمّة فيروس صغير وحقير

يفتّ في عضده

ويتأسّى في منشور له يوم 6 مارس «العالم أضحى خلية فيروسات، وأحقاد..».

وحين انتشرت حملة المكوث في البيوت كتب «ليتنا عصافير وبيوتنا أشجار»، داعيا إلى الثبات بوجه الجائحة:

«حصِّنْ ذاتك الهشة

أيها الطين

كي لا تذوب

في حمم الجائحة».

وظلّ يتغنى بالحب لآخر لحظة من حياته، وقد نشر ولده الشاعر لبيد العامري وصيته الأخيرة التي دونها عبر مقطع فيديو وكانت تتلخص بكلمتين هما «أوصيكم بالحبّ» لأن الحب يصنع المعجزات، وقد كتب بصفحته بفرشاة القلب:

«هاتوا أيديكم

المخضبة بالحب

فأنا محتاج للنهوض».

(كورونا) ينعش القصيدة الرقميّة

لا شيء يبعث في المرء الشجاعة أكثر من خوف آخر.

أمبرتو إيكو

مع دخولنا عصر التطوّر التكنولوجي، وبرامج الحاسوب، ومقاطع الفيديو التي تصوّر عبر الكاميرات الرقمية، وبرامج الصوتيات في الشبكة العنكبوتية، من الطبيعي ألّا تقف الفنون بمعزل عما يجري في العالم، لذا ظهر المسرح الرقمي، وهو يعتمد على التقنيّات الرقميّة في العرض المسرحي، من خلال السينوغرافيا، والمؤثرات الصوتية، والبصريّة الرقميّة، وأجهزة الأشعة الليزرية، وما إلى ذلك من تقنيات لتأثيث العرض، وتعميق الرؤية الإخراجيّة. وفي الفنون التشكيلية ظهر الرسم الرقمي الذي مزج بين الفنون البصرية في أجهزة الحاسوب، فنتجت عن ذلك أشكال مبهرة، وجرى توظيف تلك التقنيات في صناعة السينما، كما رأينا في فيلم «التايتانك» الذي أنتج في منتصف التسعينيات، وأفلام أخرى عديدة. وكذلك دخلت الرقميات في الرسوم المتحركة، ولم يقف الشعر منعزلا عن كلّ ذلك، فهو المواكب للتحوّلات، والقريب من نبض العصر، على مرّ الزمان، وتبدّل الحال، فكان لا بدّ له أن يستفيد من التقنيات الرقميّة المتاحة. ومما عزّز من ذلك انبهار بعض الشعراء بهذه

التقنيّات، فحاولوا توظيفها فظهر «الشعر الرقمي»، أو القصيدة التفاعليّة، كون عمليّة التلقّي لا تكتمل الا بعمليّة تفاعل المتلقّي مع النص الذي يتحكم بحركته المؤشر (الماوس) في تنقلاته من جانب إلى آخر، وبذلك تمكّن الشاعر من أن يضع له قدمًا في زمن الرقميات على أرضيته المعبدة بالأرقام. ولم يكن هذا النوع من الكتابة الشعرية وليد العقود الأخيرة التي شهدت طفرة في التقدم التكنولوجي، بل تعود إلى عقود سابقة، شهدت محاولات تجريبيّة كما ذكرها الشاعر سامي مهدي الذي مضى بنا في تتبّعها في الغرب إلى أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، عندما كتب ثيو لوتز نصا رقميّا عام 1959، وفي عام 1968 نظّم جاسيا ريتشارد معرضًا في لندن ضم جناحًا لقصائد، ونصوص أنتجت بوساطة الحاسوب. ولكن هذا النوع من الكتابة التي تقوم على «الجمع بين الصورة والصوت والحركة مع الكلمة في إنتاجه» لا يمكن قراءته إلّا باستخدام الحاسوب مراعاة للجانب التفاعلي، وانتشر في الثمانينيات. ورغم أن بعض النقاد ينكرون وجود القصيدة الرقمية والتفاعلية، «لا على مستوى المفهوم، ولا على مستوى المصطلح، ولا على مستوى التطبيق العملي» كما تقول الباحثة فاطمة البريكي في كتابها «مدخل إلى الأدب التفاعلي»، إلّا أنّ بعض الشعراء العرب كتبوا نصوصا تندرج ضمن هذا المجال من بينهم الشاعر مشتاق عباس معن الذي كتب نصّا عنوانه «تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق» أصدره على قرص مدمج (سي دي)، وهذه ميزة اختصّت بها القصيدة الرقمية التي هي بحسب لوس غلايزر

«لايمكن تقديمها على الورق»، لأنها تعتمد على الوسائط المتعدّدة، لذا لا تستغني عن الوسيط الإلكتروني. ولمشتاق تجارب أخرى في هذا المجال، بينما يعتبر د. محمد حسين حبيب أن الأردني محمد سناجلة «رائد الأدب الرقمي في عالمنا العربي من رواية، وقصة، وشعر، وهو مجترح أدب الواقعية الرقمية في الأدب العربي، وبلا منازع» وكما معروف أن سناجلة روائي، لكن حبيب يرى أنّ روايته «شتات» الصادرة عام 2005 تضمنت «أول قصيدة رقمية تفاعلية وعنوانها «وجود»، أما القصيدة الثانية، والثالثة فجاءتا ضمن قصة «صقيع» المنشورة عام 2006.. وهذا يعني أن روايات سناجلة اكتسبت الريادة الرقمية في الرواية، وفي الشعر، فضلا عن طبيعة قصيدة سناجلة التي جاءت تفاعلية بحتة تنطبق تماما مع مفهوم القصيدة الرقمية التفاعلية الحديثة من مفاهيم لآلية اشتغال، وإبداع هذه القصيدة المدمجة بالصوت، والصورة، والحركة، واللون، والروابط التشعبية، وأضيف أنا الإيقاع».

والقصيدة الرقميّة ليست ميدانا مفتوحا للجميع، فهي تحتاج من شاعرها امتلاك معرفة بالتقنيات، والبرامج الحديثة المتوفّرة في أجهزة الحاسوب، أمّا على المستوى الفنّي، والتقني، فالباحثة فاطمة البحراني تحدّد شروطا للقصيدة التفاعلية من خلال أربعة عناصر ينبغي توفرها هي: التأويل، لضمان التفاعل الرقمي، والإبحار «عبر النوافذ المتفرعة من خلال آليتي التمرير، والضغط بالمؤشر على ايقونات معينة داخل كل نافذة»، والتشكيل والكتابة، فالمتلقي إن شاء يستطيع «تعديل البرمجة

وتغيير بعض العارضات، فكلّ ملفات البرمجة، والعرض موجودة في قاعدة بيانات النص»، وهذا يتطلّب من المتلقي أن يكون هو الآخر على دراية، ومعرفة جيّدة بالتعاطي مع هذه الأجهزة، وهو الأمر الذي يجعل دائرة التلقّي تضيق أكثر، لكن كيف ينظر الشعراء الذين ما زالوا يرسمون كلماتهم على الورق بالحبر، فتمتزج رائحته مع رائحة الورق في احتفال موازٍ لاحتفال الكلمات؟

لا يخفي الشاعر سامي مهدي تحفّظه على هذا النوع من الإنتاج الشعري الذي هو «أقرب إلى ألعاب الحاسوب التي نجدها على شبكة الإنترنت أو نشتريها في أقراص مدمجة منه إلى أي شيء آخر. إنه لعبة أخرى تقوم على المبدأ نفسه، مبدأ التفاعل والمشاركة» كما يقول، والتفاعل الذي يتحدّث عنه الشاعر سامي مهدي، هو واحد من مظاهر الكتابة الشعرية الرقمية، وضمن هذا السياق طرح الشاعر وسام عبدالحق العاني على الفيسبوك، موضوعا للنقاش حول القصيدة التفاعلية من حيث المبدأ، وقبول الفكرة مرورًا بإمكانية تنفيذها بالاستفادة من خصائص الفضاء الرقمي، وقد تجاوب غالبية الشعراء وجمهور الشعر مع الموضوع وأكّدوا أن الفكرة قابلة للنجاح والتفاعل، بينما قلة منهم ذهبوا إلى أن مثل هذا الضرب يضرّ بالشعر من جهة تفريق دم المبدع بين القبائل، بينما رأى العاني أن «الفكرة تبدو مغرية، وتستحق المغامرة، وربما تعود بالنفع على تجديد العلاقة بين الشاعر والمتلقي»، ومما شجع على ذلك أنه سيكون أوفر حظًا من سواه من الفنون في الزمن الرقمي،

لسهولة النشر، وسرعة التداول، وقدرة هذا الفن على مجاراة الحدث، والتكيف مع الظرف، والحيز، والمساحة المخصصة للنشر، من حيث أن الفنون السردية لم تستفد لحدّ الآن بما يخدم التفاعل مع هذه الأجناس الأدبية أكثر من الترويج، ويعود هذا لأسباب خاصة بالفن نفسه وأخرى متعلّقة بالخصائص التقنيّة، ومزاج المتلقي الرقمي، إن صح التعبير، ومن هنا فالقصيدة التفاعلية ربما تكون ناجحة لحد ما في استقطاب المبدع، والمتلقي على حد السواء على أرضية رقمية تختصر الزمان، والمكان وتقدم حلولًا سريعة للتجاوب مع الأحداث المعاصرة، ويؤكد العاني على ضرورة «وضع قواعد محددة للعبة القصيدة التفاعلية، حتى لا تتحوّل إلى ثغرة يؤتى منها الشعر بما يؤثر على الحالة الإبداعيّة، ومشاركة المتلقي في صناعة النص». وكم نحن بحاجة إلى هذه المشاركة في وقت يعاني به الإنسان من فردانيته، وهيمنة غول العزلة، في هذه الظروف التي يمر بها العالم اليوم، وهي ظروف أملت على الأدباء ضرورة البحث عن صيغ تعبيرية جديدة . تقول الشاعرة السوريّة سميا صالح «ربما أظهرت جائحة (كورونا) أهمية الشعر الرقمي، والقصيدة التفاعلية رغم وجودهما منذ زمن ليس بالطويل مقارنة مع وجودها في أوروبا، فهي ظاهرة عالمية لا تختص بشعر لغة من اللغات، أو أمة من الأمم، بل تشمل الشعر في كل اللغات، وعند جميع الأمم، بما فيها الأمم ذات التراث الشعري الغني والعريق. برغم وجود الاختلافات والتباينات، فقد نجد أعمالًا باهرة مؤثرة، وأعمالًا تقدّم إلى الموروث الشعري إضافة نوعية تغنيه، وتجعل

مـن اسـمه علامـة فارقـة. وقـد نجـد بعضـهم زوارا عـابرين». وفي غمـرة حماسـها تتّفـق مـع الشـاعر وسـام العـاني في أن مـا يميز هـذه القصـيدة هـو الحالة التفاعلية، فالقصـيدة «لعبـة» تقـوم كمـا تقـول «على مبـدأ التفاعـل، والمشاركة، فاللاعب هنا ليس المتلقي، بل هو مشارك متفاعـل ومـؤثر في النتـائج»، وهـذه القصـيدة غيـر متاحـة للجميـع فهـي تتطلـب ثقافـات، ومهـارات تكنولوجيـة غيـر أدبيـة، وخاصـة في مجـال البرمجـة، وبـذلك تتحفظ الشاعرة سميا في عدّ هذا النمط من الإنتاج التقني شعرًا، ولا تعـدّ منتجه شاعرًا، ولها وجهة نظر في ذلك «فالمنتج وإنتاجه هنـا ينتميـان إلـى عالم التكنولوجيا أكثر بكثير من انتمائهما إلى عـالم الشـعر والأدب، وقـد يحظى المستشعر المبدع إلكترونيا بالكثير من الانتشار مقارنـة مـع الكبـار الذين لا يجيدون التكنولوجيا».

ويقلّل بعض النقاد، والأكـاديميين مـن قيمـة القصـيدة الرقميّـة كونهـا لا تخلو من تكلّف، وافتعال، فالشعر كلمة تخترق الزمن، وتبقى تلك الكلمة مدوّية، بينما تظل هـذه التجـارب في إطـار المحـاولات والمغـامرات التـي ظهـرت سـابقا، والتـي نـتج عنهـا تجـارب لـم تصـمد طـويلا مـع الـزمن كالقصيدة «الكونكريتيـة» التـي اهتمـت بالبعـد البصـري، ومثلهـا القصـيدة التشـكيلية التـي تعتمـد البلاغـة البصـرية، وفـكّ الشـفرات، والخطـاب المضمر، ولذلك من المبكّر التكهن بـأن هـذا الـنمط مـن الكتابـة الشـعريّة سيضمن له مقعدا في أدب المستقبل.

التداوي بالقوافي!

في اللحظات المظلمة أعود إلى الكتب لأجد الضوء.

إدغار آلان بو

هل ينفع الشعر في علاج المصاب بـ(كورونا)؟

سؤال طرحه أحد الأصدقاء، وطبعا، الإجابة تحتاج إلى تدقيق، فهل من المألوف أن يذهب المريض الذي يعاني من الاكتئاب، واليأس إلى إحدى الصيدليات، ويسلم الصيدلاني وصفة الطبيب الذي يراجعه، وبعد قليل، يأتي له بديوان لنزار قباني، أو سعيد عقل، أو لميعة عباس عمارة، يعقب ذلك بشرح لكيفية أخذ العلاج، وأوقاته؟!

الجواب: صارت واقعا مألوفا في عاصمة أوروبية كبرى كلندن، بعد أن شهدت افتتاح صيدليّة تقدّم لمرضاها وصفات للعلاج بالشعر!

ولو نقّبنا جيدا، في تراثنا الشعري، لوجدنا أنّ قيس بن الملوح كان يتداوى بالشعر، وقوله في قصيدته يشهد على ذلك:

تذكّرت ليلى والسنين الخواليا وأيّام لا نخشى على اللهو ناهيا
فما أشرف الأيفاع إلّا صبابة ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وبالطبع، ليس شرطا أن يصف الطبيب المداوي ديوان شعر كامل، إذ يمكن الاكتفاء بقصيدة، فعلى سبيل المثال، يصف طبيب لمريضٍ يشعر باليأس

قصيدة «ابتسم» التي كتبها إيليا أبو ماضي:

قـال: السـماء كئيبـة وتجهمـا   قلت: ابتسم يكفي التجهّم بالسما
قال: الصبا ولّى، فقلت له: ابتسم   لن يرجع الأسف الصبا المتصرّما
قـال: الليـالي جرّعتنـي علقمـا   قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما

أو قصيدته «أيّها الشاكي» التي حفظناها في المناهج المدرسيّة المقرّرة:

أيّهـا الشـاكي ومـا بـك داء   كيـف تغـدو إذا غـدوت علـيلا
مـا أتينـا إلـى الحيـاة لنشـقى   فـأريحوا أهـل العقـول العقـولا

ويختمها بنصيحة ذهبية «كن جميلا ترَ الوجود جميلا».

أو ببيت شعر واحد مثل قرص مسكّن يكون كفيلا بتخفيف الألم كبيت الشابّي:

خذ الحياة كما جاءتك مبتسـما   في كفّك الغار أم في كفّك العدم

وبعد أن تنتهي المدة اللازمة للعلاج من الجميل أن يمرّ المريض بباب الصيدلية بروحية أفضل، وابتسامة عريضة، شاكرا ملهمات الشعر، وربّات الخيال، والإلهام، بنات زيوس، اللواتي قرأنا عنهن في الميثولوجيا الإغريقية القديمة.

يقودنا خبر الصيدلية اللندنيّة الشعريّة، لسؤال هو: هل أن الشعر داء؟ أم دواء؟

البعض يرى أنه داء، ولو لم يكن كذلك لما طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته وكانت له أسبابه، فقد اعتبر الشعر مفسدا لأخلاق الشباب، ومثيرا

للانفعالات والقلق النفسي، بل في المسرحيات الشعرية الكوميدية، يقدّم تصورات عن الإنسان قد تكون أدنى مما هو عليه في الواقع، لكن البعض يرى العكس، فالشعر، بنظره، دواء للأسقام، كما قرأنا في بيت قيس بن الملوّح، وفي ساعات الألم، قد يلجأ هذا النوع من الناس للشعر، ليخفّف من أوجاعه، ويجدّد طاقته الروحية، ويجعله مقبلا على الحياة بشهيّة، وبمزاج أفضل!

عن أمثال هذا التأثير، حدّثني الشاعر الراحل سليمان العيسى، قائلا إنّه كان ذات يوم في كندا خلال زيارة لولده، فذهب برحلة ضمن فوج سياحي، وحين بلغ بالمشاركين بالرحلة التعب، وكانوا من الأجانب، عادوا إلى الحافلة، وإذا بالمسؤولين عن الرحلة يلقون على مسامعهم قصائد، وبعد انتهائهم منها، عاد النشاط، والحيويّة مجدّدا مرّة أخرى للمشاركين، كما أكّد رحمه الله!

من هذا، فلا غرابة أن يدخل الشعر طرفا في العلاج، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل مثل هذا النوع من الشعر متوفّر في شعرنا العربي؟ وإذا توفّر، فكم تبلغ نسبته؟ من حيث أنّ طابع الشعر العربي الحديث سوداوي، كون الشعر مرآة صافية للواقع العربي المأزوم، فمن آلام السيّاب، ومعاناته في حياته القصيرة، إلى أوجاع نازك الملائكة، وعبد الوهّاب البيّاتي، بل أن هذا يفاقم الأوضاع عندما نقرأ نصوصا متخمة بالقلق والأسئلة الوجودية، وحينها يمكننا أن نتساءل: كيف يمكننا التداوي «بالتي كانت هي الداء»؟

ومن هنا، ربما الجانب العلاجي متوفّر أكثر في الشعر الغربي المنفتح على الطبيعة الجميلة، الساحرة، والأفق الواسع للحريّات الشخصيّة، واحترام الفرد، والتنظيم العقلاني لعلاقته بالمجتمع، والسلطة، ومعالجة الأزمات وفق القانون، وهذه الأمور ما زالت عالقة في مجتمعاتنا التي ينوء فيها الفرد بالعديد من القيود، والأزمات، والمشكلات الاجتماعيّة. ولم تنجح الحكومات في معالجتها، مع تبدّل الأنظمة، واختلافها، ورغم ذلك ستظلّ عيوننا شاخصة في الأفق، ننتظر اليوم الذي سنقرأ به قصائد تصلح أن تكون علاجا يداوي الجريح يشفي المصاب بـ (كورونا)!

وردة على طاولة أنيقة!

تقرّبـوا مـن أولئـك الـذي يغنّـون، الـذين يخبـرون قصصـا، الـذين يسـتمتعون بالحيـاة، الـذين تلمـع عيونهم بالسعادة.. فالسعادة معدية.

بابلو كويلو

تابعتُ أمسية شعريّة عبر منصة افتراضيّة، وهذه المنصّات كثرت، بعد تفشّـي (كورونا)، نظّمتها جماعة «منتدى شعراء المهجر»، وهـي جماعـة شـعريّة تتّخـذ من (باريس) مقرّا لها، أحياها شـعراء عـرب معظمهـم لـم أسـمع بأسـمائهم مـن قبل، باستثناء الصديق الشاعرعدنان الصائغ الذي حلّ ضيف شرف، ومـن سير الشعراء عرفت أنهم دخلوا قصر الشعر مـن بوّابـات متعـدّدة، فبينـهم المهنـدس، والطبيـب، والفيزيـائي، والأكـاديمي، ورجـل الأعمـال، ومـا إلـى ذلـك مـن تخصّصات، فزاد فضـولي لمواصـلتها. ومنـذ الـدقائق الأولـى غمـرني إحسـاس أنني في جوّ مختلـف، فمـا رأيتـه كـان كافيـا لكسـر الصـورة النمطيـة المرسـومة للشاعر، الأقرب ما تكون لوصف «الأشعث الأغبر ذي طمـرين»، والمقصـود بذي طمرين: الذي يرتدي الثوب الخَلق البالي، من حيث أن الكتابـة كمـا يقـول ريلكة: «عملية شبه مرضيّة، لا يقدر عليها إلا أولئك المجروحـون مـن الـداخل حتّى العظم»، بينما ظهرت علامات النعمة على وجوه معظم المشاركين بمـا لا

يقبل الشكّ أن تلك الوجوه انعكست عليها عافية عاصمة الأناقة والعطور والجمال، فاستحضرت نصا للشاعر خوان فليبي هيريرا يتحدّث عن رجل يحافظ على أناقة مظهره، وهو في طريقه لحضور ندوة شعرية حذرا من أن يبلّ المطر قميصه النظيف المكوي. هكذا وجدت نفسي بحضرة شعراء يلقون نصوصهم، بقمصان نظيفة، ومكويّة، ويقينا أن عطور باريس كانت تفوح من كلماتهم. يقول هيريرا الذي رسم صورة كاريكاتيرية للشعراء في حوار منشور بجريدة «الشرق الأوسط» في 21 -7-2015 بمناسبة اختياره شاعر الولايات المتحدة: «نحن مثل النسّاك، نعيش في غرف صغيرة، عندما نريد أن نرفّه عن أنفسنا، نمشي وسط المزارعين، والعمال ومنظّفي الشوارع، وبنّائي المنازل. ونرمي أنفسنا في صناديق الطماطم، والخضراوات، حتى تصير ملابسنا حمراء في لون الطماطم. ثم نعود إلى غرفنا الصغيرة» ذلك لأن الشعر، بحسب رأيه، ورأي الكثير من الناس «هويّة عاجيّة في برج عاجي. لا يقرضه غير الأكاديميين. ولا يدرسه غير طلاب المدارس الثانوية، وصار المكان الوحيد الذي يوجد فيه الشعر وسط عامة الناس هو في بيت أو بيتين من الشعر في بطاقات تهاني عيد الأب، أو عيد الأم، أو التخرج في جامعة»، لكنّه بالنسبة لشعراء تلك الأمسية تجاوز ذلك، رغم أن الكثير من النصوص التي قدّموها (عدا الصائغ، وضيف آخر) تخلو من الاحترافية، بحسب فهمهم للشعر، ودوره في الحياة، وعلاقتهم به التي تقوى أواصرها، كما أحسب، في وقت الفراغ لملئه، والنظر للشعر كونه باقة ورد على طاولة أنيقة، ووسيلة تنفيس، لكنّ الشيء الجميل، هو حضور الشعر في حياتهم، وحرصهم على التواصل

مع عوالمه دون أن يتركوا له الحبل على الغارب ليعكّر صفوها، ويحول دون إتمام واجباتهم الاجتماعية، ووظائفهم التي تغرّد في جانب آخر، وهي وظائف تتطلّب منهم مزاجا مختلفا عن المزاج الشعري. يقول الفيلسوف إدغار موران: «الشعر أوّل وآخر مهارات حسن العيش، فهو تمسّك بجمال العالم، والحياة، والإنسان، وفي الوقت نفسه مقاومة لقسوة العالم، والحياة والإنسان». وحين خُيّروا بين أمرين: الشعر، أو المجتمع، اختاروا الثاني مع الحفاظ على علاقة أنيقة مع الأوّل من باب إشباع الرغبة في التحليق بفضاءاته، فحالهم حال من يلعب الشطرنج في منزله مع إنسان قريب من نفسه، دون الدخول في منافسات، واحتكاكات، وصراعات، فالشعر بالنسبة لهم مساحة للمتعة، والجمال، والعواطف، واحتشاد الأحاسيس، وبعد انتهاء اللقاء يعود كلّ لحال سبيله مع شعور طاغ بالسعادة، والرضا الذاتي، وحين نقلت شعوري للصديق الصائغ، حدّثني عن أمسية ثانية أقامتها دار نشر بريطانية احتفاء بمناسبة صدور كتابه «اتركوني أقصُّ لكم ما رأيتُ»، ورواية البريطاني بيتر بنسون «عشاء سترومنيس»، تلتهما قراءات للحاضرين ممن لديه رغبة في قراءة نصّ قصير عبر فقرة حملت عنوان (المايك المفتوح)، وعلمت أن هذه الطريقة متّبعة في الكثير من المهرجانات، والأماسي الشعرية لإتاحة الفرصة لمن يحبّ المشاركة بما لا يتجاوز قراءة نص واحد بدقائق معدودة، المهم أن يعبّر الناس عن أحاسيسهم، وهذا يتحقّق بشكل أفضل من خلال الشعر كخطاب مفتوح، يفوح شذاه ليملأ المكان بعبقه الآسر.

أمصال

نتذكّر وننسى

ونكتب ما نريد أن ننساه.

إليوت

تواصل معي د. صادق رحمة، أستاذ اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بالجامعة المستنصرية، الذي ترجم لي عدّة نصوص لمجلات بريطانية وأمريكية، داعيا إياي للمشاركة بنص شعري يدرج ضمن مشروع يحمل عنوان (كوفيد والشعر العالمي) يموّله المجلس البحثي للفنون والعلوم الإنسانية في المملكة المتحدة. وقد انطلقت الدورة الأولى من هذا المشروع في يوليو 2020، وكانت حصيلة تلك الدورة انطولوجيا كبيرة لشعراء من مختلف بلدان العالم، فبعثت له مجموعة من النصوص، وتركت لذائقته ترجمة المناسب والنصوص هي:

1. **الصمت في الشوارع**

المساجد بلا تسابيح

الكنائس بلا صلبان

القيامة بلا جمهور

الألفاظ بلا معنى

الحلاقة بلا صالونات

الحقائب بلا أشرطة رحلات

التقويم بلا فائدة

الأطبّاء في المقابر

النمل في الذكريات

الطائرات في التراب

الكلمات في الفم

انظروا...

العناكب في أقفال المحلات

الغيوم في السماء

الناس في البيوت

والصمت..

الصمت..

الصمت في الشوارع

«تعالوا انظروا..

الصمت في الشوارع»

ملاحظة: في السطر الأخير، كما هو واضح، إحالة إلى نيرودا، وبيته الشهير «انظروا الدم في الشوارع».

2. طوفان

من دهليز مهابته المحجورة
من جرف سريرٍ
في سرّه
من قلعة ذعره
ألقى للحشد
المسكون بقهره
للنجم المتعالي
في الأفق الخالي
للجنرال
لكبير التجار
وللجزارِ
لمسبحة إمام المسجدِ
للعتّال
وللخمّارِ
لقصر المطربة المهووسة
بالأضواء
لبائعة الأزهارِ
لكوخ فقير رث الأسمالِ
لكنار معلمة الفصلِ

لبيت النمل
لأصحاب رؤوس الأموالِ
لعذراءٍ
أخفتْ حمرة خدّيها
في شرنقة
ختلت في مملكة النحلِ
وللحراسِ
لمن يقبع
في عتمة خوفه
محبوس الأنفاسِ
لمن
خبّأ عينيه
بكفيه
وأغلق من دونهما بابا
ولمن غابا
ألقى
في الجمع
المتفرّقِ
في الأنحاء
خطابا

قال لكل منهم:
اجعل بينك
والهاوية السوداء حجابا
في الشارع
ناب جائع
لا تبصره العينان
الشارع غابهْ
ظلمات
وظلال مرتابهْ
وعويل
في الليل
وما شابه
ولما أكمل
كان الشاعر
يسكن ركنا مهمل
يقرأ في سفر الاكوان
ويسأل:
ماذا قالت نفسك
لمّا ملأ العالم بأسك
وحتى ضجّ الملكوت

بما فضت
من الطغيانْ؟
ما غرّك
في خلقك
إذ أنشأ
صلبك
ربّك
من طينٍ
هشٍّ
يا إنسان
اليوم
ستقبع
وحدك
لا جبلا يؤويك
ولا عاصم منك
ولا مهرب
من هذا الطوفان

3. مكروب ضالّ

لأنّه بلا هويّة..
لم تلقِ المفارزُ عليهِ القبض
فمضى مطلقَ السراحِ
في العراءِ
أمامَ أنظارِ
ملائكةٍ بيض
وقفّازاتٍ
تُخفي
أصابعَ كوكبٍ ذليل

***

لا سريرَ له
ولا ضوءَ يتدثّر بحمرتِه
ولا حبوبَ منعِ حمل
ليس لأنّه
يرتدي حزامَ العفّةِ
بل لأنّ لا رحمَ له
لذا جعلَ من هوائِنا أراجيحَ
وبالونات

وصالاتِ ولادةٍ

لأجنّةٍ غيرِ شرعيّة

❋❋❋

لا وطنَ له

ولا ذكريات مهلكة

ولا «حبيبَ أوّل»

لذا حلّقَ في السواد

ليحومَ حولَ

غرفِ الإنعاشِ

❋❋❋

لا بيتَ له

لذا أخرَجَنا من مكاتِبِنا

ومدارِسِنا

وصالاتِ المطاراتِ

ومحلّاتِ العصائرِ

والوَجَباتِ السريعةِ

والفنادقِ

والمقاهي

والحدائقِ العامّةِ

والشوارعِ

وصالوناتِ الحلاقةِ
وجاءَ بنا
إلينا
حاملا أرواحَنا
على أصابعِه
مثلما نفعلُ مع طيورِ زينةٍ
ترفرفُ بأجنحةٍ منخفضةٍ
ليدسّنا في أقفاصِنا
ويقف
مثل لصٍّ مدجّجٍ
بقاذفاتِ الحمّى
أمام أبوابِ البيوت

***

لا قبرَ لـه
لذا كفّنوا عظامَه
برغوةِ الماءِ
وبلا صلاةٍ
ونواقيس
أهالوا عليه الستائر

وتركوا للأشباح الضالّة
مهمّةَ تشييعهِ

4. طفيليّات

مقبرة المدينة
البدينة
كانت نهبا للعناكب
والحشائش البرية
والطفيليات
مقبرة المدينة البدينة
غطّى الغبار
شواهد ساكنيها
وعلا بابها الصدأ
والنسيان
وخشاش الأرض..
مقبرة المدينة البدينة
قبل هبوب سموم الجائحة
هجرها الأحياء..
وصاروا يتجنّبون
محاذاة سورها المتهالك

المهشم الأضلاع
لكنّها اليوم..
تفتّحت كزهرة
في صباح عاشق
وارتدت أحلى حلّة
وجاء
من تبقّى من الأحياء
من أقصى المدينة يسعى..
حاملا ماخفّ حمله
لترميم جثّتها المتعفّنة
ويوما بعد يوم
اختفت العناكب
من مقبرة المدينة البدينة
أمّا الديدان، فقد انفجرت
من التخمة...
كثر الزوّار والساكنون
انتشر الباعة المتجوّلون
صارت بستانا...
فيما ختموا على
باب حديقة المدينة الكبير

بالشمع الأحمر
بأمر الصحّة
وصارت أوراقها الخضر
نهبا للديدان النحيلة
والحشائش البرية
والطفيليات

5. خروج

خلف يافطة «خروج»
متاهاتٌ منسيّة
في جوف
باب العدم
ركض في العتمة
على راحات مرصوفة
بمساميرٍ نبتتْ
فوق صخور المجاهيل
ولادةٌ موت جديد
قفزةٌ من منطاد
في هوّة واد
محيط سحيق

بلا قرار...
النجومُ لم تكن
على كتفي أحد
وخيوطُ الضوءِ
ليست من حرير
الهواءُ لم يكن ناعما
والمقاعد
لم تكن معبّأةً بالريش
الكوابيسُ مكدّسة
والمكان خانق
والشوارع
بلا عناوين
ولا أسماء
ولا باب
بعروة «خروج» المتآكلة
ولا «دخول»

6. إغفاءة

على طاولةِ كلماتي
أسندتُ رأسي

وبلا هدهدةٍ غفوتُ
في الحلم..
لم تكن السماءُ خشنةً
ولم يكن الهواءُ سميكا
كالزجاج
وكان قلبُ الكونِ
ينبضُ
بلا أدنى ذعر
أمّا أنا وأنت
فلم نكن بجهتين...
متقاطعتين...
في الحلمِ
لم تكن المقاهي فارغةً
ولم تكن الأصواتُ
مقفلةً
والمفاتيحُ
لم تكن نائمة
تحت أشعّة الشمسِ
فيما الكائناتُ الدقيقةُ
تسرحُ

وتمرحُ
بلا معقّمات
ولا مساحيق
وشمعٍ أحمر
على أفواهِ
أقفال المحلّات
في الحلمِ
لم يكن
بورتريه الحزن
جاهزا..
ولم يمنعنْي شيء
من أن أمسكَ
رأسَ الشارعِ
وأجري معه
من منبعهِ
إلى المصبِّ
بدون قيد...
....
في الحلمِ
كانت الملائكةُ

تصعدُ بالأرواحِ
وتنزل بالرسائلِ القصيرةِ
وتجلسُ
على الأرصفةِ الخاليةِ
في الحلمِ
لم يكن الحلمُ
يحتاجُ إلى تصريحِ مرورٍ
وكلُّ شيء كان
كائنا..
في الحلمِ
ولم أكن
في تلك اللحظاتِ
المنعشةِ
في البيت

7. **تمترس**

حينما نهضتِ الريحُ
من سريرِها
فركتْ عينيها
فسقطتْ ورقةٌ

من كتفِ
الشجرة
فتلقّفها النسيانُ
وخبّأها
في جرحٍ عميقٍ
بقلبِ الأرض
أمّا عمّالُ النظافةِ
فقد هربوا
برئاتهم الجائعةِ
للهواءِ
متمترسين
بالبيوت

8. مطر في عتمة

في عتمة «كورونا»
الكونيّة
رأيت المطر
وحيدا
يقف في الشارع
بلا مظلة

ولا أطفالا يمرحون

ولا عيونا تلمع

خلف زجاج

نوافذ البيوت

والمقاهي الموحشة

ما الذي جاء بك

ورماك

في قلب العتمة؟

إذ العاشقون سكارى

وماهم بسكارى

والأبواب مقفلة

والمرء يفرّ

من جسده

لائذا بالظلال المعقّمة

وقناع يخفي

عن رئتيه

هواء لم يعد طاهر السريرة

و الأردان

مستنجدا

بما تيسّر من عزلة

بزنزانته الجماعيّة...

..

وقبل أن أضع قفازا

على يدي لمصافحته

أدار للمساء ظهره

وارتدى معطفه المبلل

ومضى

حاملا غيومه القليلة

ودموعه

عائدا

إلى البيت

9. حقائب الخريف

ظهيرة

زرعوا على سطح الهواء

ألغامهم

كان التجول

مصفّد القدمين

فيما

لوثوا الارصفة

بريش شظاياهم

المتطاير

ومضوا..

يغلقون الدوائر

ويثلمون الزوايا القائمة

وحين ينهون فرائضهم اليومية

يضيقون

ذرعا

بالتراب

فيصعدون

خفافا

بلا اجنحة

سعداء بما حصدوا...

من مهج الظهيرة

وبعد أن يتركوا حمولتهم

في الأعالي

يعودون

بما حملوا في حقائبهم

من فوضى

ومقصات

ليجلسوا
تحت الأشجار
بانتظار
ما يتساقط
من حقائب الخريف

10. ضياء

الداء بلاء يا أيّوب
الداء بلاء
وأنت تكفكف
وحدك
دمع الوحشة
تحصي
ما أفلت
من
قبضة وحش النسيان
من الخيبات
صغار الأخطاء
وما يتيسّر
من آثامٍ عالقة

وذنوب
ينوء بها جسم منطفئ
وفؤاد معطوب
وعمر من ورق
ضاع هباء
لذاك
بسرّه
نجّاك
من الغم
وناداك:
احفظ
في قلبك سرّي
ادخل بستاني
خذ باقة صبر
نقّعها بقليل
من مائي
وسحائب حبري
واجرِ
هذا مغتسل
وشراب بارد

والنور على شرفات النجم

قصائد

ودعاء

في اللوح المكتوب

الداء بلاء يا أيوب

وأنت بلا خبز

لا أمل

ليس سوى آيات

ورجاء

فربّي

حين يشاء

أن يبتلي الشاعر

يرميه

بداء الكلمات

فيورم قلب الكون

وتسّاقط

من شرفات جروح الأشياء

ضياء.

الستارة تُفتح ولو عن بُعد

إذا سبقك الضوء على خشبة المسرح... لا تظلّ في الظلام.. تحرّكْ نحو الضوء دوما.

د. فاضل خليل

ارتبط المسرح بالحضارات القديمة، وهناك معلومات لدى الآثاريين تؤكّد ظهور التمثيل في المعابد القديمة كما في عيد رأس السنة البابلية، إذ يجري تمثيل أحداث قصة الخليقة البابلية، ويؤكّد د. نائل حنون في كتابه (طواف الفرات) أن أول مسرح ظهر كان في أحد معابد مدينة دورا- أو وبس (الصالحية على الفرات في سوريا)، ويعود إلى العهد السلوقي. ومع حلول الجائحة، وإغلاق المسارح، والقاعات، بحكم فرض آليّة التباعد الاجتماعي، برزت في الأوساط المسرحية تساؤلات، هي: هل سيتوقّف المسرح؟ وكيف سيكون شكل المسرح ما بعد (كورونا)؟ ماذا لو استمرت الجائحة لفترة طويلة؟ ما هي البدائل؟

ورغم اختلاف الحلول إلا أن الحاجة بقيت مفتوحة لمهرجانات تقام، ولو عن بُعد.

(أبو الفنون) في الفضاء الإلكتروني

كلّ شيء في تغيّر مستمرّ.

هرقليطس

لأن المسرح ارتبط بالإنسان وقضاياه، واستمدّ موضوعاته من واقعه، لذا لا نستغرب عدم توقّفه عند تفشّي الجائحة، وإغلاق قاعات المسرح، فقال كلمته من خلال شكل جديد أطلق عليه المشتغلون في هذا الحقل، مسرح «الفضاء الإلكتروني»، ومن الطبيعي أن يرافق ظهوره جدل بين المسرحيين بشأنه، كشفت عن جانب منه الندوة التي أقامها النادي الثقافي – فرع مسندم يوم23 فبراير 2021، وحملت عنوان «مسرح الفضاء الإلكتروني: هل هو وليد أزمة؟ أم ضرورة؟». وفي تلك الجلسة طُرحت تساؤلات بقيت مفتوحة مثل: هل يمكن أن نقول إنّ الواقع الافتراضي هو البديل الرئيس لذلك؟ ما هي الدروس المستفادة من هذه الجائحة في الشأن المسرحي؟ ما هي أبرز التجارب الإيجابية التي قدمها المسرح في الفضاء الإلكتروني؟ ما السلبيات المحتملة على الشكل التقليدي لتقديم المسرح وأماكنه وصناعته واستثماراته؟ كيف ترون آفاق المستقبل المسرحية في ظل التقنيات المتسارعة والفضاء الإلكتروني الرحب؟

إنّ الاختلاف بين المسرحيين كان واضحا لدرجة أن هناك من رأى فيه «تخريبا» كما صرّح د. محمد حسين حبيب، و«بدعة مؤقّتة»، من حيث أنّ مسرح (الفضاء الإلكتروني)، كما يرى، يفتقد «لذة الحميميّة، واللقاء الحي بين الجمهور، والعرض المسرحي، والدخول، والخروج، وظلام القاعة، واختيار المقعد، والزاوية المناسبة، لضمان مشاهدة أفضل، والصعود على الخشبة لتهنئة فريق العرض، وما إلى ذلك من طقوس صارت جزءا من لذّة حضور العرض المسرحي، فالمسرح أصلا يقوم على التقارب لا التباعد الاجتماعي، وهو دم، ولحم، وروح». وقالت الفنانة الأردنية أسماء مصطفى إنها لو استمرت الحال، كما هي عليه اليوم، فستعتزل العمل المسرحي، لأنّها حاليا بلا عمل، فعملها الأساسي هو المسرح، وقد فقد الكثير من العاملين بالمسارح مصدر رزقهم!!

ويذهب د. جبار خماط حسن إلى اتجاه آخر، تأسيسا على فرضية: «المسرح يأتيك إلى بيتك»، لا سيّما أنه أطلق مشروع «مسرح ديليفري» بعد شهرين من تفشي الفيروس، ووجد في التقنيات الرقمية ووسائل الاتصال المعاصرة «خير عون في نقل فكرة المسرح البديل»، وبذلك يمكننا أن نضمن مسرحيات مسجلة، ولها أرشيف مثل السينما، وهناك من اختار المنزلة بين المنزلتين، فالدكتور علاء عبدالعزيز نظر بعين متفائلة، ورأى أن الأزمة ستتمخّض عن شكل تجريبي من حيث أن الأزمات حاضنات للتجريب، وهو حقل مفتوح للتطور الإنساني، خصوصا أنها جاءت لردم الفجوة التواصليّة بين العاملين في حقل المسرح

من جانب، والجمهور من جانب آخر. والمسرح وجد نفسه بين أزمته الخاصة كفن ينافس فنونا أكثر هيمنة، وأزمة الوباء العالمي التى تهدّد الوجود الحي، كما أشار، ومثلما أُغلقت القاعات، والمسرح، وعاد الناس للبيوت، فتح (أبو الفنون) نوافذ في الفضاء الإلكتروني.

وما دام الظرف فرض هذا الوضع، إذن علينا أن نستثمر الوقت في تطوير أدواتنا، والقراءة، وإقامة الورش التدريبية، كما فعلت فرقة مسرح هواة الخشبة في الربع الأول من 2020، ونكتب نصوصا مسرحية، وبحوثا، حتى انجلاء الجائحة.

المسرح في ليلة وحشته

يسحب الستار الممثّل لنرى الفراغ ونسمع الدفوف نذير الوحشة ماثلة في عيون الميّتين.

د. صلاح القصب

مرّ يوم المسرح العالمي الموافق (27 مارس) من كلّ عام بهدوء، لا عروض، ولا احتفالات كما اعتدنا في كلّ عام، فبقي المسرحيون قابعين في بيوتهم، حتّى أطلق د. صميم حسب الله يحيى على تلك الليلة تسمية «ليلة الوحشة»! لكنّهم لم يكتفوا بمباركة بعضهم البعض عبر الرسائل والاتّصالات ومنشوراتهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بل تجاوز ذلك إلى تقديم عروض سبق للجمهور أن شاهدها عبر شبكات التواصل، ولعلّ المسرحية الأردنيّة «أسماء مصطفى» هي الأنشط في هذا المجال، إذ قدّمت العديد من العروض لمتابعي صفحتها في «الفيسبوك»، وضمن هذه الأجواء التي صار فيها فيروس «كورونا» هو البطل الأوحد في الساحة، بدّدت الهيئة الدولية للمسرح، وحشة المسرحيين العرب بنشر كلمة العام التي دعت لكتابتها المسرحي الباكستاني «شاهد نديم»، كما اعتادت في كلّ عام بهذه المناسبة. وكانت الكلمة حاشدة بالكثير من العبارات، والدروس التي من شأنها أن تمنح العاملين في حقل المسرح طاقة إيجابيّة، وحماسا للعمل المسرحي، وقد استوقفتني في هذه

الرسالة فقرة تقول: «في عام ٢٠٠٤، وبعد عرض مسرحي في البنجاب اقترب رجل عجوز برفقته صبي صغير من الممثل الذي يؤدي دور الشاعر الصوفي الكبير بولهي وقال: «حفيدي مريض جدًا، أرجو أن تدعو له بالشفاء». فوجئ الممثل وقال: «يا أبتاه لست بولهي شاه، أنا مجرد ممثل يؤدي دوره». عندها أخذ الرجل العجوز بالبكاء وقال: «أرجوك كل ما أطلبه هو الدعاء لحفيدي، أنا متأكد من شفائه لو تكرمت بالدعاء له»، فاقترحنا على الممثل أن يلبي رغبة الرجل العجوز. وبالفعل قام الممثل بالدعاء للصبي وإرضاء الرجل العجوز».

تلك الفقرة تؤكّد أن الممثل البارع صاحب الرسالة، يكسر مساحة الإيهام، ويجعل عامة الجمهور يرفعه إلى مقام رفيع، قد يصل إلى مرتبة القداسة. وقد ذكّرتني بأغرب ما مرّ بي، في أواخر الستينيات، ببغداد، ومدينتي الشعبيّة التي كانت تسمّى آنذاك «مدينة الثورة»، عندما تقام في العشر الأوائل من شهر محرّم الطقوس التي تجسّد واقعة «الطف». كنت أرى نساء يتجمهرن في مكان واحد، وينتظرن سقوط الممثل الذي يؤدي دور «الحسين» ليهجمن على التراب الذي يسقط عليه، ويحملنه للتبرّك به، مع أنه قبل لحظات من سقوط الممثل لم يكن سوى تراب لا يختلف عن سواه!!

عندما نفحص هذين النموذجين، نكون قد تجاوزنا مجال الممثل المندمج وفق نظرية المخرج الروسي قسطنطين ستانسلافسكي التي ذكرها في كتابه «إعداد الممثل». وتتلخص بأن الممثل عندما يؤدي دوره ينبغي عليه معايشته معايشة حقيقية قائمة على الصدق في الأداء والتعبير، وندخل في فضاء آخر هو الجمهور المندمج! وهذا يحدث معي في أحيان كثيرة عندما أعتلي خشبة

المسرح لأحيي ممثلا أدّى دورا أبهرني، فأقدّم لـه التهنئة على نجاحـه في الأداء، وأفاجأ بـأنّ الممثـل، خصوصـا إذا لـم تكـن تربطنـي بـه معرفـة سـابقة، يمتلـك صفات جسـمانية تبدو مختلفـة عـن التي رأيتهـا وأنـا أشـاهده مـن مقعـدي بـين الجمهور، وهو يقف على خشبة المسرح يمثّل الشخصيّة المسـندة إليـه!! كـأن يبدو على الخشبة أطول قامـة، ممـا هـو عليـه في الحقيقـة، أو أكثـر مهابـة، أوأقـل وسامة، أو العكـس، وهـذا الاخـتلاف هـو المسـاحة التي يلعـب عليهـا الممثـل حين يتقمّص شخصيّة، فيكون قد خرج من جسـده الحقيقـي، ودخـل في جسـد الشخصـية التـي يجسـدها، وحـين ينتهـي العـرض، ويرمـي ثيـاب الشخصـية شـعوريّا، حتـى لـو بقيـت الاكسسـوارات نفسـها، يكـون قـد عـاد إلـى حجمـه الطبيعي!

الواقعة التي تحـدّث عنهـا الباكسـتاني «شـاهد نـديم»، ومـا خزنتـه ذاكـرتي مـن مشاهد محفورة من زمن الطفولـة، ومـا تحمـل في طياتهـا مـن قـراءة ميثولوجيـة، واندماجي مـع الشخصـيات التي يؤدّيهـا الممثلـون كلّهـا تؤكـد قيمـة المسـرح، ودوره في حياة الشـعوب، وفعلـه الحقيقـي، الـذي لـم يجعلـه يقـف منعـزلا عـن قضايا أفراد المجتمع، وتطلّعاتهم، وهاهو يؤكّد ذلك في زمن «كورونا»!!

مسرحك في بيتك

يضفي الشتاء مزيدا من الشعر على البيت، نشعر بالدفء لأن الخارج بارد.

باشلار

إلى أي حدّ أثّرت الجائحة في تعطيل الحراك المسرحي؟

سؤال طرحته على نفسي، وأنا أراجع واقع المسرح في ظلّ الجائحة، ومن غير الواقعي أن نقول إنّها لم تؤثّر، فما يطال الحياة العامّة، يطال المسرح كونه مظهرا من مظاهرها، والأمرّ من ذلك أن الجائحة فرضت نظاما، وآليّة تسير عكس اتجاه المسرح، وهي آليّة التباعد الاجتماعي، بينما جوهر العمل المسرحي يقوم على التقارب والحوار، منذ بدايات انطلاقته في اليونان القديمة وقبل ذلك، كونه طقسا احتفاليا يقوم على لقاء الجماعة، حوالي سنة 490 ق. م. كما يرى ارديايس نيكول في كتاب «المسرحية العالمية»، وقد عدّ ماجرى تقديمه قبل ذلك أقرب ما يكون للطقوس الدينية.

وظل المسرح محكوما بالتطوّر، فالشعراء كانوا ينظمون قصائدهم ويلقونها في الاحتفالات بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد، ثم انفصل رئيس الفرقة، فجرى تحويل السرد إلى تمثيل. وفي القرن السادس «ق. م»

أضيف ممثل آخر واستخدمت الأقنعة، وجاء «سوفوكليس» سنة 470 ق. م ليضيف دورًا ثالثًا للدورين، وفسح المجال لظهور الممثل المحترف، وهذا تطوّر عما كان عليه أيام سخيلوس الذي كان يقوم بوظائف متعددة، فتفرّغ للكتابة وأنجز 120 مسرحية وصل منها سبع مسرحيات فقط للأسف، وجاء «يوربيديس» في فترة كانت تعيش فيها «أثينا» حربًا مع سبارطة فجنحت أعماله للواقعية، تبعه «ارستوفان» المولود سنة 448 ق. م وأعماله الكوميدية، واستمرت عجلة تطوّر المسرح حتى ظهور المسرح الحديث مع بدايات القرن التاسع عشر، وصار المسرح مسارح، واتجاهات مختلفة، ومتعدّدة، ونظريات، وجاء شكسبير، وهنريك أبسن النرويجي الذي بفضله ظهرت الدراما الواقعية المعاصرة حتى لقب بـ«أبو المسرح الحديث»، بينما عُدّ الألماني بريخت أهمّ كتّاب المسرح في القرن العشرين، والتطورات مستمرة لليوم، ويمكننا عدّ مسرح الفضاء الإلكتروني شكلا جديدا يقرّب المسافات، ويوفّر للمنظّمين الكثير من الجهد والمال اللازمين، لذا، حين علمت أن مهرجان جامعة صحار للمسرح اتّسعت دائرة المشاركة في دورته التاسعة، ليكون عربيّا، سررت وعددته إنجازا يحسب له، ولم لا؟ ما دام الفضاء الإلكتروني مفتوحا، والمسافة الإلكترونيّة التي تفصلنا عن الذي يجلس أمام حاسوبه في الغرفة المجاورة، هي المسافة نفسها التي تفصلنا عن آخر في أقصى نقطة بالكرة الأرضية، وهذه من نعم التطور التقني الإلكتروني، الذي من نعمه أيضا أن المسرح يأتيك إلى بيتك!

الفن السابع يتصدّى للجائحة

سلام على من يشاطرني الانتباه

إلى نشوة الضوء

ضوء الفراشة

في ليل هذا النفق.

محمود درويش

لم يوقف «كورونا» عجلة الإنتاج السينمائي، والمهرجانات، رغم أنها تأثّرت كثيرا، مثلما تأثرت بقية القطاعات الإنتاجية، لكن بعض عشاق الفن السابع، لم يستسلم للحال التي فرضتها الجائحة، ومن بينهم الدكتور خالد الزدجالي، فأسّس مهرجانا للفيلم العربي أطلق عليه اسم «سينمانا للفيلم العربي» الذي انطلق 2020، يقول الدكتور خالد الزدجالي رئيس المهرجان: «مع تفشّي الجائحة، قلنا لأنفسنا لا بدّ أن نقيم نشاطا ثقافيّا عربيّا على الأقل، فقدّمنا المقترح إلى جهات كثيرة، ومنها الاتحاد العام للفنانين العرب، الذي رحّب بالفكرة، وقال الإخوة في الاتحاد: سنحقق بهذا المهرجان إنجازا ونقوم بدعم الشباب في المشاركة المجتمعية، والتصدي لهذه الجائحة. وبدأنا المهرجان، ونجحت التجربة الأولى بحمد لله، وشارك أربعون فيلما، ثم أقمنا العام الماضي أيضًا دورة جعلنا المشاركة مفتوحة فيها لجميع القضايا،

فتحقّقت نتائج باهرة، وشارك 131 فيلما من جميع الدول العربية. وحول الدورة القادمة من المهرجان قال الزدجالي نائب رئيس اتحاد الفنانين العرب: «نسعى إلى أن ننتقل خطوة بالمهرجان، ونحوله من مهرجان افتراضي إلى مهرجان نصف أرضي، فنقيم بعض الأنشطة الأرضية، وهذا يتعلق بالجانب التسويقي، فإذا استطعنا أن نسوّق، ونتحمل تكلفة بعض الضيوف، سنقوم بذلك لكن اذا وجدنا أن الأمر ما زال صعبا، فيمكن أن نبدأ من الدورة الرابعة. وحول الدورة الجديدة قال الزدجالي: «ستقام في رحاب النادي الثقافي الذي منه انطلقت أولى تجاربنا السينمائية والمسرحية، مع مراعاة الإجراءات الاحترازيّة، فهناك تخوّف من أن تستمر الجائحة، رغم التوقّعات بأنّها ستكون أخفّ».

كذلك أنتجت مجموعة من الأفلام القصيرة، من بينها فيلم روائي قصير للفنان فارس البلوشي، وفيديوهات توعوية أخرجها الفنان السوري سعيد عامر لمنظمة الصحة العالمية (مسقط). وضمن مبادرة (حصّنْ عقلك) أخرج (ضوء في نفق) أداء: طالب محمد وخالد الحديدي، وسميرة الوهيبي، و(أمل) أداء: طالب محمد، وسميرة الوهيبي، و(مليت من جلسة البيت) أداء: يوسف البلوشي، و(خليك في البيت) أداء: علي العامري، ومارك لينيون وحمدي زكريا، ريسسريو بايان، وشروق ناس، و(كورونا ولكن) أداء: خليل الهادي، وكلها توجه رسائل إيجابية لأفراد المجتمع، وتدعوهم للتقيد بالاحترازات الواجب اتباعها لمواجهة الفيروس.

يا زمان الوصل...

لـم يكـن وصـلك إلّا حلمـا في الكـرى أو خلسة المختلس

لسان الدين بن الخطيب

«وددتُ أن أعرف ماذا ستفعلون عندما لـن يصبح لكـم فرصـة الصـفح والغفران؟ ستتهاوون إذن مثل قلعة من ورق».

كلمات وردت في حوار بين الابـن (فـارس البلوشـي)، والأب (يوسـف البلوشـي) في المشـهد الأوّل مـن مسـرحيّة «الصـراع»، للكاتـب اليونـاني يورغورس سكورتيس، والمخرج د. عبدالله شنون، وكانت كافية لتعيدني إلى أيّام المهرجانـات، والعـروض، وهـو مـا وفّرتـه لنـا الجمعيـة العمانيـة للسينما والمسرح، عندما حاولت إعادة وصل ما انقطع، مـن خـلال إنتاج عدد من الأعمال المسرحيّة والسينمائيّة، لتقطع خطـوة نعـوّل عليهـا كثيـرا في طريق طويل، لتتدفّق المياه بنهرالمسرح العماني مجدّدا، بعد أن أوقفت الجائحة مجراه. وتبعا لذلك توقّفت الأنشـطة، واعترضـت طريقـه الكثير من المعوّقات. ولأن الجائحة طال مكوثها، فلا بدّ من جهة تتبنّى الحـراك، وليس للمسرحيين والسينمائين سوى جمعيتهم التـي سـبق لهـا أن أقامـت مهرجانات دولية، ولا ينقصها الدعم الحكومي، ولديها مبنى يتّسع للكثير من الأنشطة. هذا الحراك الفنّي، كنّا ننتظـره مـن الجمعيّـة، فالعمـل الفني

يحتاج دعما يغطّي احتياجاته، ويضمن ديمومته، وما دامت عجلة الإنتاج قد بدأت، لا بدّ أن نفكّر باستمرارعملية الإنتاج الفني، عن طريق وضع خطط تسويقيّة، وبرامج قائمة على قراءة المشهد بعين فاحصة، بحيث تكون تلك الأعمال نواة لعروض قادرة على تمويل نفسها ذاتيا في المستقبل، وبهذه الطريقة نضمن عدم توقّفها تحت أيّ ظرف من الظروف ما دام الحماس موجودا، وهو حماس وجدته لدى القائمين على مهرجان جامعة صحار المسرحي وكلّنا نعلم أن المدارس، والمعاهد، والكليّات، والجامعات حاضنات للعروض المسرحيّة، وحين نقرأ سير معظم الفنانين، نعرف أن تجاربهم انطلقت من خلال المسرح المدرسي، ليس في بلداننا فحسب، بل حتى في أوروبا، فقد كان المرّبون في تعليمهم الأطفال، يستفيدون من نظريات التربية الحديثة في ايصال رسائلهم، مستندين إلى طروحات المفكّر جان جاك روسو الذي فضّل تعليّم الطفل ليس بواسطة الكتب، بل بالحركة، واللعب، وأكّد على أهمية ذلك في التربية. ثمّ تطوّر الأمر، في المراحل المتقدّمة من حياة الإنسان، ومع دخوله الجامعات، حتى العلميّة منها، وجد أصحاب المواهب الفنّيّة في المسرح الجامعي حواضن ملائمة لتطوير مواهبهم، ومواصلة ما بدأوه من أعمال قدّموها على المسرح المدرسي، فنمت تجاربهم، وتطوّرت. وهناك من وجد في المسرح الجامعي منصّات جعلته ينطلق إلى ماهو أبعد، والنظر للعمل في المسرح ليس كهواية، بل تعزّزت ثقته بما قدّم، ووجد لا سبيل له سوى الاحتراف.

في نهاية حضوري بروفا (الصراع) لملمت أوراقي، وبهدوء غادرت قاعة التدريبات، وكان صوت الفنان يوسف البلوشي يرتفع «نفس الكلمات على لسانه دائما، يلوك الدرس المعتاد... يا أيها المسكين اخرج أولا إلى الحياة».

من (ماري تيفوئيد) إلى (ماري كورونا)

نحن سُجناء
كل واحدٍ وَحدَه،
وحيدينَ
نمارسُ زوالنا.

أولي كومندا سانتغيرات

ذات يوم من شهر أبريل 2020، قال معالي د. أحمد السعيدي خلال المؤتمر الصحفي الذي اعتادت أن تعقده اللجنة العليا المكلفة ببحث آلية التعامل مع التطورات الناتجة عن انتشار فيروس كورونا (كوفيد 19)، أنهم وجدوا حالة تحمل الفيروس لكن الأعراض لم تظهر عليها، فوجب عزلها، لأنها ناقلة للفيروس. بقيت المعلومة ترنّ في رأسي، وكنت قد قرأت عن حالة مشابهة ظهرت في أمريكا عام 1900 عند تفشي مرض التيفوئيد، لفتاة تعمل في البيوت تدعى (ماري مالون) عُرفت بأنها ناقل عديم الأعراض للتيفوئيد، وقد نقلت العدوى لـ55 شخصا خلال الفترة من 1900 – 1915 مات منهم ثلاثة، فأُطلق عليها اسم (ماري تيفوئيد) لذا زاوجتُ بين الحالتين، وخرجتُ بـ(مونودراما) حمل عنوان (فيروسات صديقة).

فيروسات صديقة
مونودراما

(إضاءة خافتة، فلاشات تشتعل وتطفأ، صراخ امرأة ترى كابوسا، حبال ضوئية تتدلى، يرنّ الهاتف عدة مرّات، تفتح الإضاءة على امرأة ثلاثينية مضطجعة على الأريكة، وبيدها كتاب، أمامها على الطاولة جهاز لاب توب، وبحضنها دمية، يظهر خلفها دولاب ملابس واقية من انتشار الفيروسات، كتب متناثرة، صراخها متواصل، تنهض، ينقطع الاتصال).

المرأة: بسم الله الرحمن الرحيم، يا له من كابوس!! كأنني مقادة إلى حبل مشنقة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من المتّصل؟ إنه زوجي!!

ولماذا يتّصل في هذا الوقت المتأخر؟ لا بدّ من أنّ هناك مكروها حصل، فليس من عادته عدم معرفة وقت نومي. دخلني القلق.. يا الله على هذا الحجز والتوقيت.. سأذهب له الآن.. لا سأتصل به وأمري لله (رنين اتصال الهاتف) لا يرد.. (تذهب لتشرب رشفة من كأس ماء على الطاولة، يكرّر الرنين، ترد.. وتسمح لفترات الصمت لأسئلة زوجها) أهلا أهلا زوجي، كيف حالك؟ أنا.. أنا بخير، نمت على الأريكة، بينما كنت أقرأ، ماذا؟ سمعت صراخي؟ لا إنه مجرد كابوس، لا تقلق، أنت تعرف أن الكوابيس لم تفارقني منذ ذلك اليوم المشؤوم، لاشيء يدعو للقلق، أدوية؟ لست مريضة لآخذ أدوية، أنا بصحّة جيدة، لماذا لا تصّدقني؟ المهم أن تكون أنت، والصغيرة، بخير، وكم أشعر

بالذنب لأنّني تسبّبت لكم... أعرف هذا أعرف، لكن هذا احساسي، كلّ شيء هادئ في ميداني؟ كيف الصغيرة؟ هل نامت؟ (تحضن الدمية) كنت أتمنى أن أسمع صوتها قبل نومها، لكن دميتها معي، وفيها رائحتها التي أشمّها كلما أشتاق إليها، حسنا، يمكنك أن تنام الآن، أنا؟ لا أشعر بالاكتفاء من النوم، وهل لديّ ما أفعله سوى النوم، والقراءة، والتواصل مع أصدقائي وصديقاتي عبر الفيس بوك، على فكرة، جيد أن أيقظتني، فبعد قليل معي موعد معهم، والمتابعون، كما أعلنت في صفحتي، وسأتحدّث معهم أون لاين في أمر مهم، لا لا لاتقلق، نم الآن، فالصغيرة تنهض مبكرا، وهي بحاجة إليك في غيابي، تصبح على خير حبيبي (يغلق الخط) إلى متى هذا الدوران المستمر في حلقة مفرغة؟ أما من مهرب؟ منذ أسابيع وأنا على هذه الحالة، محكومة بالعزلة الإجباريّة لسبب غير مفهوم، حتى الأطباء يجهلونه، عزلة مطبقة إلى إشعار آخر، هكذا حكموا عليّ، ووضعوني في سجني هذا، ولولا وسائل التواصل الاجتماعي لصرنا مثل سكان القبور، لا ليلنا ليل ولا نهارنا نهار، فجأة، فقدنا كل شيء، مشتاقة لحياتي العادية، أكثر ما يؤلمني أنني لا أستطيع أن أحتضن ابنتي وهي على بعد أمتار عنّي، تسبح في محيط أحلامها في الغرفة المجاورة:

(تنشد):

ومن العجائب والعجائب جمة	قرب الحبيب وما إليه وصولُ
كالعيس في البيداء يقتلها الظما	والماء فوق ظهورها محمولُ

(جرس تنبيه من الجهاز، تنظر في شاشة اللاب توب) واضح أن المتابعين ينتظرون، حسنا، سأبدأ البث (للجمهور) مساء الخير أصدقائي، هل الصوت

واضح؟ واضح، الصورة جيدة؟ جيدة، إذن أمسّي عليكم بالخير، وأرحّب بكم في هذا البث المباشر من زنزانتي، نعم من زنزانتي، فأنا سجينة لا تعرف مدة محكوميتها، وبدون محام دفاع، وشهود، سجينة مع سبق الإصرار، والترصّد، لكنْ هناك فرق بيني وبين السجينات الأخريات، هو أن السجينة توضع في السجن لذنب اقترفته، مع الاختلاف في درجة القضايا، لكنّهم قذفوني في هذه الزنزانة دون أي ذنب، وهذا الكلام أقوله لا لأدفع عني تهمة، لأ لأ الكل يعرف أنني لم أخالف القوانين، ولم أعتدِ على أحد، والكل يشهد لي بالاستقامة، والمهنية في عملي مهندسة مشاريع، لقد بنيت العديد من الدور، والمدارس، والمراكز، أما على الصعيد الاجتماعي (تصمت فجاة وهي تقرأ أحد التعليقات).

سحقا لك... نعم أعرف أن هذا الكلام مكرر وكل يوم أعيده عليكم لكنك خارج سجنك أما أنا فسجينة غرفة تكاد تضيق علي حد الاختناق، حتى جسدي أصبح سجنا آخر وما زلت أهرب إلى الداخل الداخل الداخل... (تغلق اللابتوب بعصبية، وتنظر للأمام، وتقف ثم تضحك بصورة هستيرية) نعم إذا كنت أكرّر الكلام نفسه كلّ يوم لماذا أكرّره لهم (تستمر بالضحك) أين وصلت؟ نعم... أما على الصعيد الاجتماعي، فأنا أعيش وسط أسرة سعيدة مع زوجي، وطفلتي ذات السنوات الخمس، علاقاتي بزملاء العمل قائمة على التقدير والاحترام المتبادل، ومثلها مع الجيران، لم يسبق أن حصلت مشكلة لي مع أحد، وحتى لو حصلت فسرعان ما أتجاوز عن الخطأ الذي يرتكبه الآخر بحقي، ومن تعامل معي، وأصدقائي، وصديقاتي، يعرفون هذا جيدا،

لكنّني وجدت نفسي محكومة بالعزلة، ولا أدري من المسؤول عن ذلك؟ سوء الحظ؟ أم ماذا؟ هل ضجرتم؟ تحملوني رجاء، أردت أن أكون معكم على الهواء لأحدّثكم عن مشكلتي، وإذا شعرتم بالانزعاج يمكنكم الانتقال لصفحة أخرى، فأنا صريحة مع الجميع، ولو لم أكن صريحة لما وجدت نفسي في هذا الوضع المزري، فلم أكن أشعر بأي أعراض تجعلني أذهب للفحص، كنت طبيعيّة، لكن للاطمئنان بعد إصابة زوجي بالفيروس اللعين، وابنتي، وكانت هذه النتيجة، انظروا أين وصلت بي الحال سجينة، نعم سجينة، مع كوابيسي التي لم تنقطع عن مشاركتي سرير نومي (تشرب رشفة ماء) طبعا الذين قذفوني في هذا الجحر ليسوا بسجانين، ولا يرتدون ملابس السجانين المتعارف عليها، ولم يجبروني على ارتداء ملابس السجناء، أتدرون لماذا؟ لأنني ببساطة لست سجينة بالشكل المتعارف عليه، بل المجازي، انظروا لملابسي العادية، هل يوجد شيء مختلف عن الملابس التي ترتدونها؟ لا يوجد شيء من هذا على الإطلاق، بالطبع ترونني بملابسي حينما أكون وحدي في هذه الزنزانة الوثيرة، فحين يزورني أحدهم يفرضون عليّ أن أتحوّل إلى مدرّعة قتالية، نعم مدرّعة قتالية، فعليّ أن أرتدي هذا الدولاب من الملابس كلّه (تشير إلى دولاب ملابس) هذا ليس كلاما مبالغا به، ألا تصدّقون؟ حسنا (ترتدي الملابس التي يلبسها الأطباء عندما يعالجون مريضا مصابا بفيروس الكورونا)، هكذا أبدو مثل دب قطبي، وهم كذلك، يبدون مثل دببة قطبية، والآن لكم أن تتخيّلوا السعادة التي أنتم عليها بينما فقدتها، فأنتم تكتفون بأربع قطع ملابس، بالكثير، أمّا أنا، فأحتاج إلى كلّ هذا الدولاب من

الملابس، والقفازات، والكمّامات، والأقنعة، والنظارات، تخيّلوا السعادة التي تهنؤون بها، مع أنني سليمة مثلكم، ولست مريضة (تقرأ تعليقات للمتابعين بحيث يكون فضاء المسرح الأمامي كلّه شاشة، فيظهر من حركة رأسها، وعيونها أنّ واجهة المسرح الأمامي، أو الفضاء هو الشاشة) حسنا، اصبروا سأحدّثكم عن ذلك، وسأجيبكم عن سؤالكم: لماذا أنا بالوضع الذي عليه؟ لماذا معزولة عن الجميع، حتى ابنتي الوحيدة حرمت من لقائها، ملاك النائمة في الغرفة المجاورة، وليس لي منها سوى دميتها التي أحتضنها ليلا، فأشمّ رائحتها بها، وأتحدّث معها من خلالها، لأنني ببساطة شديدة مسجونة في بيتي، نعم في بيتي.

لهذا صرت أحسد السجين لأنه يتمتع بحقوق، يزوره أهله بين وقت وآخر، يعرف مدة محكوميته، أما أنا فما زالت مدة محكوميتي تقديرية، ولا أزور ولا أزار، ستقولون إنه وضع مؤقت، لا لا، ليس بالوضع المؤقت، منذ أسابيع، وأنا على هذه الحال، واضح أنكم عرفتم مشكلتي، ولماذا أنا هنا، ربما تحتاجون إلى تفاصيل أكثر، حسنا، اقتربوا منّي لأحدّثكم، لا لا إياكم أن تقتربوا، ربما الفيروسات تنتقل عبر وسائل التواصل الاجتماعي، من يدري؟ كلنا عانينا من الفيروسات الإلكترونيّة بأجهزة الحاسوب، الأسلم لكم أن تضعوا الكمامات تجنبا للفيروسات الإلكترونية (تقهقه)، ولكي أكمل رواية قصتي للأخير، علينا المحافظة على مسافة الأمان، في هذا الزمن الذي يفتقر للأمان، أتصدقون أنني هنا من أجل ضمان الأمان لزملاء العمل، والبيت، والجيران، والسوبر ماركت

الذي أعتدت شراء احتياجات البيت منه، والفرن الذي أشتري منه الخبز، هؤلاء كلهم وجودي بينهم سيهدد أمنهم!!

(جرس يشير إلى ورود تعليق تقرأه)..

متى أخرج من عزلتي هذه؟

(تصمت قليلا) لا أملك جوابا، لكنني حين سألت إحدى الممرضات عن موعد خروجي (ترتدي الملابس الواقية، وتضع الكمامات) أجابتني (تتحدث مع الدمية بعد أن تلفها بالملابس الواقية، وتقول بلسانها):

- هذا سؤال سابق لأوانه، ويعتمد على تطور حالتك الصحية، واضح أنك لست سعيدة، أنت في بيتك، لماذا هذا التذمر كلّه؟
- لماذا هذا التذمّر كلّه؟ هل ترينني في الفردوس الأعلى، أنا سجينة، سجينة، لقد تعبت من هذه الحالة المعلّقة، فلا أنا بصحة وعافية، ولا أنا مريضة، ومتى سننتهي من هذا الوضع، وأعود إلى حياتي الطبيعية؟
- هذا السؤال سابق لأوانه، أنتِ موجودة هنا لحماية المجتمع، وأوّله أسرتك، زوجك وابنتك، هل تريدين إلحاق الضرر بهما، والمجتمع؟
- بالطبع لا، لكنني لست مريضة، أنا بكامل صحتي.
- هذا صحيح، الحقيقة أنّ وضعك محيّر، ومراكز الأبحاث الطبيّة، والمختبرات، تدرس حالتك.
- ألهذا الحدّ حالتي صعبة؟
- لايوجد شيء صعب مع التطورّ العلمي المتسارع، ولكنّ حالتك لا شبيه لها سوى حالة ماري مالون.

- ماري مالون؟
- نعم ماري مالون أخطر امرأة في أمريكا سنة1908.
- هل أنا خطيرة إلى هذه الدرجة؟
- هـذا مـا سـتجيب عنـه الأبحـاث، افتحـي فمـك لنأخـذ العينـات، والآن مناخيرك.

(تضع الدمية جانبا، تخلع ملابسها الواقية، جرس تنبيه إلى وصول تعليق، تقرأه)

- من هي ماري مالون؟
- واضح أنكـم لا تعرفونها، حسنا، سأردّ عن السؤال، (تمسك الدمية، وتضع على جسم الدمية روب طباخة، وعلى رأسها قبعة الطهاة).
- ماري مالون، باختصار، فتاة أيرلندية عادية جدا، لـم تكـن خطيـرة أبـدا، كانت مثلي، بسيطة، ومحبّة للناس، غادرت بلدها الأصل أيرلندا لتعمـل في أمريكـا طباخـة، ولأنها كانـت تجيـد فنـون الطبـخ، وأثبتـت مهـارة في عملهـا، التحقـت بالعمـل لـدى إحـدى العـائلات الثريـة المقيمـة ببلـدة أوستر باي قرب نيويورك، (تؤدي رقصة سلولي مع الدمية على إيقـاع موسيقى كلاسيكية هادئة) كـان ذلـك في عـام 1900، لكـنّ الأمـور لـم تمش على خير كما تمنّت ماري، لا لا لم يطردوها، بـل أصيبت العائلـة بحمّى التيفوئيد، وكان يومهـا مـن أخطـر الأمـراض، قلـت لكـم العائلـة أصيبت، وليست ماري، فقد كانت بخيـر وصـحّة جيـدة، لكـن اسـتغنت العائلة عـن خـدماتها، وعيّنـت بـدلا منهـا ممرّضـة، فنـدبت مـاري حظّهـا

المنحوس، وانتقلت للعمل في بيت عائلة أخرى، لكن النحس رافقها إلى البيت الجديد، فأصيبت بالحمى، أعني العائلة كلّها وليست ماري، ركّزوا معي، ومن المؤسف، كانت الحمّى شديدة، لذا تسببت بوفاة أحد أفراد العائلة!! يالسوء الطالع!! والغريب أنّ ماري ظلّت بصحّة جيّدة!

لكن (تخاطب الدمية) لاتهتمي ياماري، عندما يغلق باب الرزق يفتح باب آخر، حملت ماري أشياءها البسيطة، وانتقلت للعمل في بيت محام، لكنها سرعان ما تركت الوظيفة، ستسألونني: لماذا؟ حسنا، سأجيبكم بكلّ أسف، لأنّ العائلة المؤلّفة من 8 أفراد فقدت 7 منهم!! ونجت ماري بجلدها، وخرجت من المأساة مثل شعرة من عجين، الشيء الوحيد الذي خسرته وظيفتها، واضح أن النحس كان قد ثبّت أطنابه في أماكن عمل ماري، ستظنون أنّ جنّا لازمها، ونغّص عليها حياتها، أليس كذلك؟ لا لا لم تكن ماري تعرف الجن، ولا النحس، وحتى التهمة التي وجّهها إليها عامة الناس بأنّها ساحرة شرّيرة، لم تهزّ ثقتها بنفسها، ولم تفقد أملها في الحياة، فانتقلت إلى بلدة قريبة أخرى، لتبدأ حياة جديدة في محل عمل جديد.

- (للدمية) ها.. كيف تسير أمور الحياة معك يا ماري؟
- ماذا؟ تقولين سيئة؟ لماذا؟ ماذا جرى؟ مؤسف جدا.
- تقول: بعد مرور أسبوعين تم نقل 10 أشخاص من أصل 11 كانوا يعيشون بالمنزل الذي تعمل به إلى المستشفى بسبب التيفوئيد!!
- وما الذي ستصنعين؟

- نعم تواصلين العمل في البيت، حتى ماذا؟

وهكذا ظلت ماري تنتقل من بيت إلى آخر حتى تفشى المرض في أوستر باي كلّها، والغريب بالأمر أنّها ظلّت بصحّة جيدة، ولا تعاني من أيّ شيء!! حتى الجنّي كان بخير، (للدمية) لاتغضبي يا ماري، كنت أمزح معك فقط، وهنا بدأت الشكوك تدور، والكل يبحث عن السبب، وفي صيف عام 1906، أوكلت إحدى الأسر الأمر إلى الطبيب الشهير جورج سوبر (تضع صلعة ونظارة طبية على وجه الدمية) ليبحث في أسباب انتشار المرض.

- (للدمية) أرنا ماذا ستفعل دكتور سوبر؟

وبعد إجرائه جملة من الأبحاث، شكَّ الطبيب في ماري مالون، فقد لاحظ انتشار التيفوئيد بجميع المنازل التي عملت بها، لكن الذي حيّره أنها لم تكن تشكو من شيء! وبعد ظهور حالات حمى تيفوئيد أخرى في المنطقة نفسها، أمر على الفور بإرسالها نحو المخابر لإجراء عدد من التحاليل، وجاءالخبر الصاعق!

- نعم، خبر صاعق.

تبين أن ماري مالون ناقل عديم الأعراض لمرض حمى التيفوئيد، أي تحمل بجسدها البكتيريا المسبّبة للمرض دون أن يكون لذلك أي تأثير على صحّتها!

ماذا فعلوا؟

لم يكن أمام الأطباء سوى إرسالها إلى الحجر الصحي بمستشفى محلي صغير بجزيرة نورث براذرآيلند بنيويورك، ومكثت ماري مالون نحو 3 سنوات

بهذه الجزيرة الصغيرة، لم تكن خلالها سعيدة، ومع جميع المنغّصات، أطلقت الصحافة الأميركية عليها لقّبا ظلّ يلازمها إلى أواخر حياتها هو «ماري تيفوئيد».

(تصفق مثل الأطفال): ماري تيفوئيد، ماري تيفوئد ماري...

لكنها لم تستسلم، إذ رفعت دعوى قضائية اتّهمت خلالها المسؤولين بمدينة نيويورك بإجبارها على المكوث بالحجر الصحي مدة طويلة، وفازت القضية.. برافووو ماري... وسُمح لها بالمغادرة مقابل تعهدها بالابتعاد عن مهنة الطبخ وغسل يديها بشكل مستمر، مثلما نفعل الآن (تمسح يديها بالمعقّم).

لكن حكاية ماري لم تنته، فمن أين تعيش ماري؟

لذا لم تفِ بوعدها وعادت مرة ثانية لمهنة الطبخ منتحلة اسما جديدا، فألقي القبض عليها بعد 5 سنوات أثناء عملها طباخةً بأحد أقسام التوليد بمانهاتن، وسرعان ماعاد التيفوئيد للانتشار، وتم تسجيل العديد من الحالات و3 وفيات بالمنطقة، وعقب التعرف على هويتها الحقيقية، عرفوا أنها ماري تيفوئيد!! فأرسلت مجدّدا نحو الحجر الصحي بالجزيرة، وعادت حليمة إلى.. ، لتمكث هنالك حوالي 23 سنة إضافية قبل أن تفارق الحياة عام 1938، للعلم لم تفارق حياتها بسبب اصابتها بحمى التيفوئيد، بل بسكتة دماغية!! (تعيد الدمية إلى مكانها).

(جرس تنبيه، تقرأ التعليق)..

هل وضعك مثل وضع ماري تيفوئيد؟

لا لا.. لست خطيرة إلى هذا الحد، كلّ ما في الأمر أن زوجي انتابته نوبة سعال، وارتفاع درجات الحرارة، وللتأكد من حالته، راجع المستشفى، وأجرى الأطباء له الفحص الطبي، فتبيّن إصابته بـ«كورونا»، وكان من الطبيعي أن نجري فحصا للتأكد من خلوّنا من الوباء أنا وابنتي، فاتضح أن العدوى انتقلت إلينا، ومكثنا في المستشفى ثلاثتنا، وشفي زوجي، وابنتي، وغادرا المستشفى، وعندما أجروا الفحوصات عليّ فوجئت أن الفيروس ما زال في جسدي، رغم أنني لم أشعر بالأعراض، وكنت الأحسن حالا منهما! ومكثت شهرا في المستشفى، ولم يطرأ أي تحسن، عندها اجتمعت اللجنة الطبية وأصدرت حكم إعدامي (صراخ، موسيقى صاخبة، حبال تتدلى)..

صوت جهوري: بعد مراجعة تقاريرك الطبية وقراءة نتائج فحوصاتك تبين أن الفيروس مقيم في جسدك بدون ظهور أعراض، وعليه، حكمنا عليك بالعزل الكامل حتى إشعار آخر!

يومها دارت بي الأرض، ماذا لو لم يتمكنوا من طرده خارج أسوار جسدي؟ هل سأكمل بقية حياتي وحيدة؟ منبوذة؟ هل سأشكّل مصدر رعب لمن يراني، هل سأكمل حياتي وحيدة؟ لن أقترب من أحد، ولن أقبّل عزيزا، وأحتضن حبيبا، لن أتمكّن من حضور أيّ مناسبة اجتماعيّة، أو حفل موسيقي، أو غنائي، وسيظل دولاب الملابس هذا يرافقني أينما حللت، لذا فكّرت بالتخلص من حياتي (تمسك أنشوطة، وتعبث بها، تضعها في رقبتها) فكّرت جديا بالأمر، لكن تذكّرت ابنتي، وزوجي، وأحبائي، وأصدقائي الذين

ينتظرونني كي أعود إليهم معافاة، وتذكّرت ماري مالون (تمسك الدمية) التي صارت ملهمتي (تخاطب الدمية).

أحيي بك صمودك يا ماري ورباطة جأشك، وأنت ترين الصحافة الأمريكية تصفك بأنك «أخطر امرأة في أمريكا» وبقيت متماسكة، رغم أنك أمضيت نصف عمرك في الحجر الصحي!! وهكذا انتصرت على التيفوئيد.

وشعرت بالرهبة وأنا أسمع الآية:

صوت تلاوة قرآنية: ﴿**ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾.

لذا عدلت عن الفكرة، ولم أنهِ حياتي (تفكّ عقدة الأنشوطة، وترمي الحبل جانبا) وبقيت أصارع الوحشة والوحدة والمجهول الذي ينتظر امرأة يسكن رئتيها فيروس طفيلي، لكنّني الليلة قرّرت الخروج من صمتي، نعم قرّرت ذلك، لهذا دعوتكم لإعلان قراري، وسماع آرائكم، فاصغوا إليّ جيّدا

قبل ذلك لنتكلّم بواقعيّة، وعقلانيّة، مادام الفيروس قد عرف الطريق إلى رئتي، وأقام بها، ولن يغادرها، فهو الوحيد الذي يمكنه الجلوس معي، ومحاورتي، إذن لم لا أعقد معه صداقة؟ نعم صداقة لنجرب ونرَ (تضع قناعا على رأس الدمية على شكل فيروس كورونا) أنت أيها الفيروس الذي دخل رئتي عنوة كأيّ غازٍ محتل، أنت تعيش بدمي، وأنا محكومة بك، لماذا نظلّ في صراع دائم وحرب مستمرة؟ تعبتُ من حربي معك، وأجدها لا تنفع بشيء، بل هي غير مجدية، لذا فمعي رأي قد ينفع الطرفين المتحاربين، وهما: جيشي المتمثل بكريات دمي المقاتلة، وجيشك المتمثّل بك كلّك، ولنعقد هدنة،

ونصبح أصدقاء، نعم أصدقاء، فكم من الدول المتصارعة ألقت صراعاتها جانبا، وعاشت في سلام؟! كن على يقين أننا سنصبح أصدقاء جيدين، لا تنس أن مغادرتك رئتي تعني هلاكك، وأنا ليس لي في هذه الوحشة سواك، وإن قتلتني، فكلانا يلقى حتفه، فكيف تواصل حياتك من دوني أيّها الطفيلي؟

هل بتّ مقتنعا؟ تريد توضيحا أكثر؟ حسنا، أن نتصالح يعني أن نسهر معا، نضحك معا، نؤمن أنّ مصيرا مشتركا يربطنا ومصالح مشتركة. بالمناسبة ماذا نسمّي المعاهدة بيننا؟ أممممم نعم أنا اسمي كاملة، وأنت كوفيد 19 يعني بمزج كافينا، ودمج حروفنا تصبح كام فيد 19 ما رأيك؟ (تسحب شريطا ورقيا طويلا، وتقرأ) نبني علاقة قائمة على حسن الجوار، فنتبادل والأطعمة اللذيذة، والسفراء، نرفع أعلام بعضنا، نغنّي للسلام، نحضر معا المناسبات السعيدة، لا تزعجني، ولا أزعجك، لا تتطاول علي، ولا أتطاول عليك، وسائل اعلامي لن تتعرض لك بسوء ولا تتعرض لي إذاعاتك بسوء، نحترم الحدود المتفق عليها بحسب المعاهدة التي سنبرمها، وأيّ إخلال بهذه المعادلة يعني اعتداء سافرا، على بنودها، وإبطالها، مارأيك؟ وإذا أعجبتك الاتفاقيّة يمكن الإمضاء هنا، وسأعطيك الفرصة الكافية لقراءة البنود قبل توقيعها

تفضل (تضع الشريط الورقي أمام الدمية) لك حريّة التعديل، والإضافة المهم بالنسبة لي أن نعيش بسلام، وأمان، ماذا استفدنا من الصراعات؟ أتعبتنا عسكريا، واقتصاديا، ولم نخرج بشيء سوى الخسارات لكلا الجانبين، خذ وقتا كافيا في قراءة بنود الاتّفاقيّة، قبل التوقيع عليها

فما رأيكم أصدقائي بهذه الهدنة؟

(سماع أصوات أجراس كثيرة) مهلا مهلا.. الأمر مطروح للنقاش، لم أتّخذ قراري بعد... افهموني.. سأقرأ لكم هذا التعليق.

صوت: كيف تعقدين هدنة مع عدو شرس، والعالم يعاني اليوم من شراسته، وأرقام الموتى في تصاعد مخيف، فضلا عن الأزمة الاقتصادية التي سببها توقف الشركات والمؤسسات، ودوائر العمل في الكرة الأرضية؟

أحبّ أن أوضّح لكم قصدي (أجراس تنبيهات)..

صوت أحد المحللين: إذا كان التيفوس قد أفشل حملة نابليون بونابرت على روسيا عام 1812، وأزهق الطاعون الأسود أرواح نحو ثلث سكان أوروبا بالقرن الرابع عشر، وقتلت الإنفلونزا الإسبانية زهاء 50 مليون شخص بالقرن العشرين، فمن المتوقع أن تفوق جرائم الفيروس في كوكبنا تلك الخسائر بأضعاف مضاعفة.

(أجراس تنبيه)..

صوت: أنت متواطئة مع عدو، أنت...

عفوا عفوا سأضطر للانسحاب، وداعا (تغلق الصفحة، وتطوي اللاب توب).

(تنظر بغضب للدمية) هل سمعت ما قالوا؟ هل رأيت الذي أتعرّض له بسببك؟ ماذا فعلت بكوكبنا الجميل؟ لقد أحدثت شللا في جسد الحياة، باعدت بين الأحبة، وجعلت الجميع يشعر أن كل كائن عدو الآخر، صحيح أنك تحتلّ جسدي، لكن يصعب عليّ أن أمدّ يدي لمصافحتك، وعليه اعتبر اتفاقنا ملغيا، والحرب بيننا مستمرة، ولن تكون طويلة الأمد!

(تمزّق الشريط الورقي، وتعود للاستلقاء على الأريكة كما كانت في بداية المشهد – يرن هاتفها)..

تنهض من جديد ترد..

صوت: زوجتي الحبيبة، ألا تنتهي كوابيسك؟ هل أنت بخير؟

المرأة: جيد أنك أيقظتني، فبعد قليل معي موعد مع المتابعين، كما أعلنت في صفحتي، وسأتحدّث معهم أون لاين في أمر مهم.

(إظلام)

19 أبريل 2020

عزاءات كورونية

يا الهي!
كم فاجأتني هذهِ الحشودُ المغادرةُ
وأسأَلُ: هل تأخرتُ كثيرًا عن توديعِ كلِّ هؤلاءِ الأحبةِ؟
هل حقًا فاتتْ فرصةُ اللقاءِ بهم ثانيةً؟
لقد رحلوا بعيدًا، بتذكرةِ سفرٍ واحدةٍ، وغابوا خلفَ مكامنِ التسميةِ
تركوا أسماءَهم في مجرّاتِ الذاكرةِ
وعلّقوا عناوينَهم على خرائطِ النسيانِ.

فضل خلف جبر

يوما بعد آخر تتّسع دائرة الموت، وتضيق المقابر، فالوباء حمل منجله، وراح يحصد الأرواح، فكثرت العزاءات التي جاءت مع كورونا مختلفة، فلقد غيّر الوباء الكثير من عادتنا الاجتماعيّة، فلم نعد نجتمع في سرادق العزاءات، وقاعات المساجد، والبيوت، وصار ذوو المتوفّين يكتفون بتلقّي رسائل التعزية، والاتّصالات، والدعاء بالرحمة على المتوفين عن بعد، تقول الشاعرة اليمنية هدى أبلان:

هذا موت تتشقق في كل الأرواح
من النملة إلى الجبل

وتهرب الكائنات من النظر إلى السماء

حتى مواكب تشييع المتوفين اختفت، وصارت تقتصر على الدائرة الضيقة من المعارف، وخلال ذلك، كم آلمني حين شاهدت وزير الرياضة والشباب العراقي عدنان درجال يصلّي مع نفر قليل صلاة الجنازة على زميله اللاعب الدولي الراحل أحمد راضي، الذي توفّي متأثّرا باصابته بـ(كورونا) صباح يوم 21 يونيو2020، وكانت الجنارة داخل سيّارة الإسعاف، بينما كان أقرب شخص للمتوفى يصلي على مسافة لا تقلّ عن مترين!

تسديدة موجعة لـ(كورونا) بشباكنا

لعمرك أمر الله في الكون يُحمدُ ومن أسعد الإنسان حتما سيُسعدُ

مضيت عزيزا طاهر الوجه باسما عليك سلام الله والناس (أحمدُ)

معتصم السعدون

حالة الحزن الشديدة التي خيّمت على جميع محبي صانع الألعاب الساحر أحمد راضي، حال انتشار خبر رحيله بعد إصابته بفيروس (كورونا)، هل لأنّ الموت اختطف شخصيّة عامّة لها منجزها الشخصي الذي حقّقته للمجتمع؟ أم لأنّ الموت جاء بشكل مباغت، وعاجل، يحثّ الخطى، فلم يمهل الفقيد سوى ستّة أيّام منذ إعلان إصابته بـ(كورونا)، فمات قبل أربع ساعات من إقلاع الطائرة التي كانت ستقلّه إلى الأردن لتلقّي العلاج هناك؟ أم لأنّنا فقدنا رمزا أضفى على حياتنا بهجة من خلال الإنجازات التي حقّقها في الملاعب المحلية، والدولية، وساهم في سعادتنا، فاحتلّ حيّزا مضيئا في ذاكرتنا؟

والإجابة بـ(نعم) تصلح لكلّ تلك الأسئلة، فمع تسليمنا أنّ الموت حقّ، ولا رادّ لقضاء الله، و«تعدّدت الأسباب والموت واحد»، لكنّ وفاة رياضي سليم البنية، جسمه يفور بالحيويّة والنشاط، فضلا عن صورته

القديمة التي بقيت عالقة في الأذهان، وهو يصول ويجول في الملاعب، بما يتمتّع بدنه يومها من خفة الحركة، والسرعة في نقل الكرات، والمراوغة، والإصابة في التهديف، ورسم البهجة في النفوس!

لذا، فمن الصعب على العقل أن يستوعب بسهولة سقوطه بضربة مباغتة من ضربات (فيروس) لا يرى بالعين المجرّدة، فإذا كنّا نستطيع تخيّل الجبل الأشمّ يسقط بلمح البصر في هوّة بلا قرار، نستطيع حينها أن نستوعب موتا سريعا ومباغتا كالذي اختطف نجما بسطوع (أحمد راضي)، صاحب الهدف العراقي الوحيد في كأس العالم لكرة القدم في المكسيك عام 1986 بمرمى بلجيكا.

خارج الملاعب، تميّز بصفات إنسانية عالية، وله مشاركات مجتمعيّة، ومواقف مشرّفة مع الرياضيين الروّاد، والمرضى، والمحتاجين، وحتى أخلاقه داخلها كانت مميّزة، تجبرك على حبّه، ولعلّ وصف د. علي جعفر العلاق جاء دقيقا، فهو يقول: «كانت طريقته في اللعب: مبرأةً دائمًا من الشراسة، أوالأنانية، أو تجهّم القسمات. وكأنها جزءٌ من سلوكٍ جماليٍّ وأخلاقيٍّ يلازمه في الملعب وفي الحياة»، لذا اكتسب شعبيّة جماهيريّة واسعة، وفاز بمقعد بمجلس النوّاب العراقي في دورة من دوراته السابقة، وكان يعدّ العدّة لترشيح نفسه، ودخول انتخابات الاتحاد العراقي لكرة القدم وضمن هذا المناخ عاد إلى بغداد، من العاصمة الأردنيّة عمّان حيث يقيم مع عائلته، لكنّ القدر لم يمهله طويلا لتقديم المزيد من الخدمات للكرة العراقيّة، و«لكلّ أجل كتاب»، فرحل تاركا

غصّة في قلوب محبّيه، ولـم أستغرب موجة الحزن التي أعقبت خبر إعلان وفاته في مواقع التواصل الاجتماعي، حتّى إنّ الإتحاد الدولي لكـرة القـدم «الفيفا» أبّنه في حسابه، وقال: «خسرت كرة القـدم أحـد أسـاطيرها» ورثـاه الشعراء، ومن بينهم المطرب د. فاضل عوّاد الذي رثاه بأبيات مطلعها:

ودّعت (أحمد) والدموع ترقرقُ   بطـلا كريمـا والرياضـة تشـهدُ

أوفيت شعبا والقلوب كما ترى   حزنـا يراودهـا أسـى يـتردّدُ

يعرف محبو كرة القدم ومتابعو دورات كأس الخليج الراحل جيّدا مـن خلال مشاركاته في العديد من الـدورات السـابقة، إذ كانـت صـولاته على المستطيل الأخضر ملء السمع والبصر، ففي عام 1988 نال لقب هـداف دورة كأس الخليـج في السـعودية، مثلمـا فـاز بعـدد مـن الألقـاب مـن بينهـا هدّاف كأس العرب في الأردن، ولقّب لاعب القرن في العراق مع الكـابتن حسين سـعيد الـذي رثـاه بمنشـور حـال وفاتـه، فقـد تـرك في ذاكـرة محبّيـه الكثيـر مـن التفاصيـل التـي لاتنسـى، وقـد حضـر دورة خليجي19 عـام 2009، وهي المرّة الوحيدة التي رأيته بها خارج الملاعـب يقـول د. بـدر الشيدي: «أتذكره باستاد الشـرطة بالوطيـة، كنت مشـاركا في حمـل شـعار الاتحاد العراقي لكرة القدم، وكان النجم أحمد راضي خلفي تماما، وقبل بـدء مراسـم الافتتـاح دار حـديث شيق بيننـا. أتـذكره جيدًا كـان مبتسـما، وطول الوقت ظل يلوّح للجماهير بفرح شديد»، ويا بؤس الفيروس الذي جعلنا نلوّح لروحه التي ستظلّ حيّة بيننا، بعد أن هوى جسـد «الـنجم» إثـر تسديدة قاتلة من «كورونا».

ومع ذلك يمكننا اعتبار هذه أول تسديدة للراحل في مرمى «كورونا»، فالكثير من الذين استهانوا بالفيروس عادوا إلى أنفسهم، وتساءلوا: إذا كانت القوة الجسمانيّة لرياضي قويّ الجسم، لم تشفع له، فكيف بالنسبة لسواه ممّن يمتلكون أجساما لا تقاوم حتى نزلات البرد الموسميّة؟ فضلا عن الذين يعانون من أمراض مزمنة، لذا عادوا إلى نصائحه التي قدّمها خلال تلقّيه العلاج، وتطبيق ما ورد بها، وأهمّها التقيّد بالتعليمات، وتجنّب المخالطة.

التسديدة الثانية سجّل خلالها هدفا آخر نظيفا لصالح المحبّة التي رافقت جنازة الراحل إلى مثواه الأخير، ولا أعنى قبره، فكلّنا نعرف إجراءات الدفن المشدّدة التي ترافق جثمان من يذهب ضحية «كورونا». وإنما تشييعه في قلوب الناس، وتعبيرهم عن هذا الحب في مواقع التواصل الاجتماعي، التسديدة الثالثة التي نجح بها الراحل، وهو في قبره، فسجّل هدفا نظيفا باسمه في مرمى كلّ من سعى إلى تهديد السلم الاجتماعي، فقد وحّد أبناء شعبه على محبّته، ميتا، مثلما وحدهم حيّا، كما وصف الشاعر أجود مجبل، فوقف الجميع سدّا منيعا بوجه كلّ من أراد دسّ السموم، من خلال نيلهم من مواقف الراحل السياسيّة، وانبرت الأقلام لتخرس كلّ من يريد نشر ثقافة الكراهيّة، والطائفيّة، معلنة أنّ زمن الكراهيّات ولّى للأبد، ومن يريد نشر هذا الخطاب، فلا مكان له بين الصفوف، فتهاوت سهامهم الطائشة، بينما ظلّ «صانع الفرح» أحمد راضي، كما وصف الشاعر وسام العاني «محمولا على الأكتاف»، لأنه سجّل، وهو قبره ثلاثة أهداف في مرمى (كورونا)، وأعداء المحبّة، والجمال!

مارادونا: حياة صاخبة وموت هادئ

الضربات التي أتلقاها تهدُّ حائطا.

مارادونا

حين قرأت خبر رحيل مارادونا، مَثَلَ أمامي خبرٌ تناقلته وكالات الأنباء يوم 27 -4-2020 أي قبل وفاته بحوالي ستة شهور، عن مشاركته في مزاد خيري لمحاربة كورونا، ومساعدة المتضرّرين منه، بسبب حالة الإغلاق العام التي فرضتها العديد من الحكومات نتيجة الجائحة. وجاء في الخبر: «تشيرو فيرارا نجم نابولي السابق، قاد حملة جمع تبرعات لمساعدة المتضررين في مدينة الجنوب الإيطالي من جائحة كورونا، وذلك عبر جمعية خيرية تسمي «كانافارو فيرارا»، قام بتأسيسها بالاشتراك مع الشقيقين المعتزلين فابيو وباولو كانافارو، المولودين في نفس المدينة أيضا، وأوضح فيرارا أنه قام بعمل مزاد خيري يتضمن بيع تذاكارت لـ26 لاعب كرة قدم، على رأسهم قميص المنتخب الأرجنتيني الذي يحمل اسم الأسطورة دييجو أرماندو مارادونا، زميله السابق بنابولي. حصيلة المزاد بلغت 85 ألف يورو من بيع تلك التذكارات، منهم 55 ألف يورو من بيع قميص مارادونا، وهو ما علق عليه فيرارا بالقول: «لقد تأثرت وأنا أقول لكم إنه بعد 33 عاما سوف أفارق هذا القميص»، وحصل فيرارا، على هذا القميص، بعدما خاض مباراته الأولى مع

منتخب إيطاليا في مواجهة ودية ضد الأرجنتين. وبدوره، علّق مارادونا على بيع قميصه في المزاد، وتحقيقه هذا المبلغ الكبير، وكتب عبر حسابه الخاص بموقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»: «لقد ربحنا مباراة أخرى، تشيرو فيرارا، ربما هو الربح الأكثر أهمية، لقد فزنا بها معا كما كنا نفعل دائما، يشرفني أنني ساهمت في مساعدة شعبنا على شراء السلع الأساسية في هذه اللحظة غير المسبوقة».

خبر وفاة مارادونا يوم الأربعاء 25 نوفمبر 2020، أعادني إلى ما قبل أربع سنوات، وتحديدا يوم 9 نوفمبر 2016 في قلب الصحراء في «العيون» المغربية، عندما كنت أشارك المحتفلين فعاليات المسيرة الخضراء التي انطلقت بمثل هذا التاريخ من عام 1975، بعهد الملك الحسن الثاني بعد مطالبات بأحقية المغرب بالصحراء، وأيد السكان حصولهم على الاستقلال من إسبانيا عبر مسيرات سلمية، وصار أبناء العيون يحتفلون كل عام بمثل هذا اليوم بالمناسبة. لكن قبل ذهابنا للصحراء أُبلغنا بالاتجاه لمطار الحسن الأول لاستقبال أحد ضيوف العيون الكبار، فذهبنا، وحين وصلنا سألنا عن ذلك الضيف الذي خرجت العيون عن بكرة أبيها لتستقبله يتقدمهم والي العيون «يحضيه بوشعاب»، وقد استبدل الزي العسكري الذي كان يرتديه خلال حضوره الاحتفالات الشعبيّة على جناح السرعة ببدلة أوروبية، في إشارة إلى أن تلك الشخصية ليست رسمية، ووقفنا معه في صف واحد لتحية الضيف، الذي لم يكن سوى اللاعب الأرجنتيني دييغو أرماندو مارادونا، كان الخبر مفاجئا لنا، نحن الذين كنّا نشارك في مهرجان شعري، لكن ما العجب؟ ألم

نصفّق كلنا لمارادونا الذي قال به الشاعر محمود درويش في مقال نشره عقب انتهاء كأس العالم 1986: «الفرد ليس بدعة في التاريخ»، فمارادونا ليس بدعة، إنّه أسطورة بـ «قدمين معجزتين»، بتعبير درويش؟ ألم يعترف بأنه سجل هدفا بلمسة يده، ولم يكن مضطرا، لكن الضمير الحيّ اقتضى منه ذلك شاكرا الحكم الذي لم يكن منتبها عند حدوث خطأ اعتبره عناية إلهية، وحين سئل إن كان قد أحرز الهدف برأسه؟ أم بيده؟ أجاب إجابة شعرية: «نصفه برأسي ونصفه بيد الله»!! هذا هو مارادونا المشاكس، الطفل، الذي تلاحقه الفضائح، ويقابلها بسخرية، بلحمه وشحمه، يأتي لينضمّ إلى موكبنا، واحتفالنا بالصحراء المغربية.

قبل لحظات من هبوط الطائرة التي تحمل على متنها الأسطورة، تساءلت مع نفسي: ماذا يحدث لو حصل مكروه لهذه الطائرة، هل تعلم أيّ خبر مدوٍ سيخرج من الصحراء المغربية للعالم؟ ولم يدم شرودي طويلا، فقد وقفت الطائرة على بعد أمتار منّا، ونزلت الأسطورة، نزل مارادونا من سلّم الطائرة، ونزل معه التاريخ الذي ترويه المستطيلات الخضر، في أعظم تجل من تجلياتها، نزلت قلوبنا معه، مع ذلك كان كل شيء بسيطا، فمارادونا الذي كان يرتدي تي شيرت أسود وسروالا قصيرا، بدا كأنه خارج في نزهة قصيرة، قطع الطريق من الطائرة إلى حيث نقف بخطوات سريعة كأنّه يلاحق كرة في ملعب. تقدّم الوالي للترحيب به، ثم تبعناه، وخرجنا من المطار الصغير لنجد المكان وقد اكتظّ بالمستقبلين الذين حمل بعضهم الأعلام وصور الملك وإلى جانبها صوره، فرفع يده لتحيتهم، صعدنا في السيارات، لنتّجه إلى الصحراء، وجدنا هناك كلّ شيء قد أعدّ لتناول وجبة الغداء داخل الخيام، وسط الأغاني

والموسيقى الشعبية وبعد انتهاء الغداء، وقف مارادونا بقامته القصيرة ليلقي كلمة عبَّر من خلالها عن حبه للشعب المغربي وسعادته بتدريب فريق محلي فيه، وحضوره مباراة تقام بالمناسبة، وقال: «أحب كثيرا الصحراء المغربية، فالمغرب بلد رائع»، ثم شارك المحتفلين الرقص والغناء، لكننا لم نحضر تلك المباراة، لأن موعد عودتنا للدار البيضاء كان قد أزف، مثلما أزفت ساعة رحيله عن عالمنا حين حضر الموت، ومضى مستصحبا معه روح البطل، صانع الألعاب الماهر، وصديق رؤساء الدول، وكبار الأدباء، «مالئ الدنيا وشاغل وسائل الإعلام بأخباره»، الساحر الذي «أجّج فينا عطش الحاجة إلى بطل نصفق له، ندعو له بالنصر، نعلّق له تميمة، ونخاف عليه، وعلى أملنا فيه من الإنكسار»، كما وصف درويش مارادونا الذي بعث حضرة صاحب الجلالة السلطان هيثم بن طارق المعظم – أبقاه الله– برقية تعزية ومواساة لفخامة الرئيس الأرجنتيني ألبرتو فرنانديز، برحيله. ورغم الضجة التي أحدثها في الملاعب، وخارجها مات «موتا هادئا» كما توقع، تاركا كلمات أوصى أن تكتب على قبره هي «شكرا لك كرة القدم، أنت الرياضة التي أعطتني أقصى درجات الفرح والحرية أنت بالفعل مثل لمس السماء باليدين، شكرا لك، هذا ما كنت أريد أن يوضع شاهدا على قبري»، وهو لايدري أنه أعطانا بدوره أقصى درجات الفرح»، وجعلنا نلمس السماء بألاعيب قدميه، ولكن هل ستنتهي أسطورته عند هذا الحدّ؟ لا أظن، فمثل مارادونا ستكبر أسطورته يوما بعد آخر، والصخب الذي رافق حياته، سيظلّ يلاحقه، ولن يتركه يتنعم بموت هادئ!

سعود الدرمكي.. في سطوعه الأخير!

تنبع الفكاهة من الحزن... لا من السعادة.

مارك توين

عندما بلغني خبر تعرّض الفنّان الكبير سعود الدرمكي لجلطة، قلت: عارض صحّي سيزول سريعا، فقد اعتدنا أن نراه بكامل أناقته الداخليّة والخارجيّة في المناسبات الفنيّة والخاصّة واللقاءات العابرة، وقد نجح في الموازنة بينهما، فعنايته الفائقة بمظهره، لم تشغله عن تأثيث عالمه الروحي بالجمال والحبّ والطيبة التي يعرفها جيّدا القريبون منه، وكنت على ثقة بأنه سيتجاوز هذا العارض، فمثله ممن يحبّون الحياة وعاشوا لفنّهم، لا يستسلمون بسهولة لمتاعب الجسد التي تنوء بـ«النفوس الكبيرة» بحسب وصف أبو الطيّب المتنبّي:

كلّ يوم لك احتمال جديد ومسير للمجد فيه مقامُ
وإذا كانت النفوس كبارا تعبتْ في مرادها الأجسامُ

ولكي تبقى صورته النمطيّة التي اعتدتها مخزونة في ذاكرتي، أجّلت زيارتي له، لكنّ غيابه عنّا طال، حتّى بلغني خبر تكريم إمارة الشارقة له، وفوزه بجائزة الشارقة للإبداع المسرحي العربي في دورتها الثانية عشرة، إلى جانب رفيق

مشواره الفنان صالح زعل، يومها وجدت الفرصة قد صارت سانحة لزيارته والاطئنان على صحته ومشاركته فرحته وتهنئته على فوزه بالجائزة، وفي بيته فوجئت حين شاهدت الفارس، وقد ترجّل عن جواد أناقته، ومعه ترجّل العنفوان الذي كان عنوانا من عناوينه الشخصيّة، بل ترجلّت ابتسامته عن وجهه، وهو الذي كثيرا ما زرع الابتسامات في وجوه الجمهور العماني والخليجي الذي اعتاد مشاهدة مسلسلاته في رمضان، وكان آخرها قبل عامين مسلسل «حارة الأصحاب» لأنيس الحبيب.

جرى ذلك قبل شهرين بالضبط من يوم رحيله، خلال فترة الإغلاق والحجر المنزلي يوم 14 ابريل 2020، لذا لم يحضر أحد تشييعه سوى الأهل، ورفيق دربه الفنان صالح زعل.

ورغم الحالة المؤلمة التي كان عليها خلال زيارتنا تلك له، إلّا أنّه ظلّ متماسكا، فأحسسنا أنّ المحارب الذي دخل ميدان المسرح والدراما في بدايات ظهورهما في السلطنة مع بزوغ فجر النهضة الحديثة في السبعينيات، سيخرج من هذه الصولة منتصرا بوجه وضّاح وثغر باسم!

وفيها حدّثنا عن تلك المرحلة التأسيسيّة التي شكّلت نواة حركة نمتْ، وامتدّت فروعها وأثمرت، وكان الحصاد حبّ الجمهور، وقد ذكرت له، وللفنان زعل الذي اصطحبنا إلى بيته برفقة الشاعر سعيد الصقلاوي والإعلامي عامر الأنصاري، انبهاري بالتصفيق الحار للجمهور عند وقوفهما على المسرح قبل سنوات بعيدة بحفل أقيم بنادي الصحافة (سابقا)، لتوزيع جوائز الإجادة الإعلامية، وكان من بين فقراته عرض قصير قدّماه حول متاعب

المشتغلين في «بلاط صاحبة الجلالة» ووسائل الإعلام. يومها عرفت المكانة التي يحتلّها النجمان الكبيران في نفوس الجمهور الذي أحبّهما كثيرا، كونهما برعا في أداء شخصيات قدماها بإطار كوميدي عفوي وتلقائي، فظلت شخصيته «سلوم الحافي» مطبوعة في ذهنه، مثلما طبعت صورة «الشايب خلف» الشخصية التي أدّاها زعل في مسلسل «مسافر خانه».

ولم يكتف الفنّان سعود الدرمكي بالوقوف أمام الكاميرا والميكرفون وخشبة المسرح ممثلا، بل تجاوز ذلك إلى الجلوس في غرفة التحكم في الاستوديو الإذاعي، ليترجم النصوص المكتوبة إلى مسامع درامية ومنوّعة، من خلال إخراجه العديد من المسلسلات التاريخية والبرامج التوجيهيّة، في قضايا تهمّ الأسرة والمجتمع منذ مطلع التسعينيات حتى إحالته إلى التقاعد، قبل أكثر من عام، وتوديعه تلك الغرفة بحسرات، تاركا على رفوفها وزواياها ذكريات سنوات طويلة مرّت ظلّت عزيزة على قلبه، ولم ينس التطرّق إلى بعضها في تلك الزيارة.

وكم تألمنا خلال مشاركتنا في (أيّام الشارقة المسرحيّ) في دورته الأخيرة التي جرى خلالها تكريمه، تقديرا لتاريخه الفنّي وسجلّه الحافل بالعديد من النقاط المضيئة، وكان مكانه فارغا، رغم أنّه كان من الحريصين على حضور دوراته السابقة، ورغم غيابه عن الحفل التكريمي الذي أقامته «الأيّام»، وتشرّفت بإدارته، انصبّ حديث الفنان صالح زعل، ومداخلات المشاركين، حول حضوره الفني الذي سيظل لسنوات طويلة بعد غيابه المفاجئ، فالفنان الحقيقي يبقى حيّا في وجدان الجمهور، والذاكرة الفنّيّة، وساطعا سطوع النجم في حضن مداره البعيد.

علامة في طريق الحوار والمحبّة

حطّم سيفك وتناول معولك واتبعني..
لنزرع السلام والمحبة في كبد الأرض.
بعل هامون – الألف الثالث ق. م

«لو كُتبت عنّي كلمة، وأنا حيّ أفضل لي من أن تكتب عني الصحف بعد أن أموت».

هذه العبارة لفولتير، نقلها لي الراحل د. موسى بن جعفر الذي غادر عالمنا خلال فترة الحجر الصحّي، عن (70) عاما، حين زرته قبل أكثر من عشر سنوات في مكتبه بباريس، وجاءت ردّا على سؤالي له عن شعوره، وهو يحصل على وسام الاستحقاق الفرنسي في الفنون والآداب من رتبة كمندور (قائد) 2008 م، مؤكّدا سعادته بتكريمه حيّا. ولعلّ فولتير أراد بعبارته تلك التذكير بأنّ الناس اعتادوا الاحتفاء بالأموات أكثر من الأحياء لأسباب يطول شرحها، ربّما من بينها أنّ الإنسان عند انطفاء شعلة الحياة بجسده، يتوقّف عن منافسة أحد!! وقبل أيّام، حين وصلني خبر رحيله، تذكّرت ذلك اللقاء، وتلك العبارة التي جرت على لسان رجل تشبّع بالثقافة الفرنسيّة، لكونه أمضى سنوات طويلة في الدراسة والعمل بفرنسا، حتّى صار من الشخصيّات العمانيّة والعربيّة المعروفة هناك، وعلى امتداد تلك الرحلة، سلك طريق المحبّة والحوار، كما

يشير عنوان كتابه « الحوار: طريق إلى المحبة» الصادر باللغتين العربية، والإنجليزية، وبه وجّه دعوة صريحة للحوار، في عالم يسوده العنف، والصراعات، والتناحرات. وحين تصفّحت كتابه وجدته يضمّ مختارات من كلمات قدّمها خلال فترة رئاسته الدورة الثالثة والثلاثين للمؤتمر العام لمنظمة اليونسكو، وكوّن له عمله مندوباً للسلطنة في المنظمة حضورا تجاوز الإطار المحلي، والعربي، حتى بلغ الدولي. ولعل أبرز الأحداث المفصلية التي وضعته في الواجهة الدوليّة، ترشيحه نفسه لرئاسة المنظمة في الانتخابات التي أجرتها، لكنّه انسحب قبل الانتخابات لصالح المرشح المصري فاروق حسني الذي لم يوفّق، وخسر المنصب لصالح البلغارية إيرينا بوكوفا بفارق 4 أصوات في جولة التصويت الحاسمة التي جرت في 22 سبتمبر 2009 بعد أن تساوى معها في الجولة التي سبقتها، لتتضح خيوط اللعبة الكبرى «للسيطرة على العالم، بالتخطيط الممنهج من خلال مؤسسات دولية» كما قال حسني.

وفي خضمّ هذه الصراعات، التي تحصل من فوق الطاولة أحيانا، ومن تحتها في أحايين كثيرة، ووسط الكواسر، ظلّ د. موسى بن جعفر حملا وديعا، يتعاطى مع الأزمات بسجيّته العمانيّة وحنكته الدبلوماسيّة، ففي ذلك اللقاء الذي تمّ في باريس، حدّثني بمرارة عن خسارة العرب الداعمين الأقوياء للمنظمة، لكن حظوظهم في مثل هذه التصويتات غالبا ماتكون قليلة، بسبب اللوبيات، وفقدان لغة الحوار، والتسامح، بما ينسف عبارة منقوشة بعشر لغات بمبنى المنظمة الكائن في ساحة فونتونوا بقلب باريس، تقول: «لما كانت الحروب تتولّد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تُبنى حصون السلام»،

ثمّ قام من مكانه، ليخرج كتابه «الحوار: طريق إلى المحبّة» وبه يدعو «للالتزام بحوار مفتوح، وصريح ودعم التوافق عبر التربية والثقافة كأدوات لتعزيز التقدّم البشري، وجعل العالم أفضل» كما قال، وحين تصفّحت سيرته، قرأت عن مشوار حياته الذي بدأ من المدرسة السعيدية، حتّى التحاقه بالسوربون، وحصوله على الدكتوراه عام 1990 بمرتبة الشرف العلياً وشغله لمواقع كثيرة قبل عام 1984 الذي عين مندوبا دائما للسلطنة لدى اليونسكو، ومنحه عام 1991 لقب سفير لدى اليونسكو، وبقي في منصبه حتى عام 2009. ثم عمل مستشارا للسلطنة في المنظّمة. وإضافة إلى كتابه المذكور، له كتاب آخر عنوانه «تطور القانون الإداري العماني» وقد ترجم إلى الفرنسية، والإنجليزية أيضا. وكان الراحل من روّاد الحركة المسرحيّة العمانيّة، وأكّدت لي الفنّانة فخريّة خميس، شافاها الله، وعافاها، أنّه كان من الرعيل الأوّل، وحدّثتني عن جهوده الرياديّة في المسرح العماني على خشبة مسرح النادي الأهلي مطلع السبعينيّات، فقد مثّل وأخرج العديد من المسرحيات في مسقط، ودبي، وأبوظبي، وبيروت، وكتب للمسرح أيضا:عودة شنجوب، وين زمانك يا بحر، من الحياة، وسكيتشات الدراويش الغنائية.

رحلة طويلة، وجهود قدّمها د. موسى جعفر الذي التقيت به أكثر من مرّة في باريس، بينما لم ألتق به في مسقط سوى مرّة واحدة في مناسبة سعيدة دعاني إليها مع مجموعة من الأصدقاء، ثم جاء «كورونا»، ودخلنا في الحجْر المنزلي، والتباعد الاجتماعي، ولم يدر بخلدنا أن ذلك اللقاء هو الأخير، ليودّعنا، بينما تبقى كلماته تواصل مسيرته التي جعلت منه علامة في طريق المحبة.

غياب عمّ صباحاتنا الفيروزيّة

بلا موسيقتنا

الليلة حزينة

بلاغنية الليلة بتطول

كل ليلة بغني بمدينة

وبحمل صوتي وبمشي عطول

ولا غنية نفعت معنا ولا كلمة إلا شي حزين

إذا ما بكينا ولا دمعنا لا تفتكروا فرحانين.

زياد الرحباني

حين بلغني خبر غياب إلياس رحباني عن (83) سنة متأثّرا بفيروس «كورونا» رفرف على رأسي طائر الوروار الذي ارتبط بأشهر أغاني فيروز وألحانه، وكانت «إذاعة بغداد»، كسائر الإذاعات العربيّة في السبعينيات وما تلاها، اعتادت على بدء بثّ برامجها بوجبة فيروزيّة، وحين يحلّ طائر الوروار بجناحين رشيقين يصبح لصباحي طعم آخر، ويوما بعد آخر، نشأت علاقة مع هذا الطائر السريع خفيف الحركة، المعروف عنه أنّه يلتهم النحل خلال طيرانه، ورغم تهديده لرحم العسل هذا، أحببناه، فكان يضفي على صباحاتنا بهجة، فنوصيه أن يحمل سلامنا للحبايب البعيدين المقيمين فوق «تلال

الشمس المنسية»، ولم يكن لحن إلياس رحباني لهذه الأغنية وحيد زمانه، فقد لحّن أكثر من ألفي أغنية، إلى جانب مسرحيات غنائية عديدة، وكتب قصائد جمع بعضها في ديوان حمل عنوان «نافذة العمر»، ووضع الموسيقى التصويرية للعديد من الأفلام أشهرها «دمي ودموعي وابتسامتي»، فرفد مكتبتنا الموسيقيّة العربيّة بمقطوعة مليئة بالشجن لا نملّ سماعها، ولكن من بين تلك الروائع، ظلّت أغنية «طير الوروار» عالقة بذهني، بكلماتها التي تنتمي للسهل الممتنع، بسيطة المعاني والتراكيب كباقي أغانيه المستقاة مفرداتها من البيئة اللبنانية:

دخلك يا طير الوروار

رح لك من صوبن مشوار

سلم لي عالحبايب

وخبرني بحالن شو صار

عاتلال الشمس المنسية

على ورق الدلب الأصفر

انطرونا اشويه اشويه

وتصير الدنيا تصغر

وبكروم التين

ينده تشرين

يا حبيبي..

وبرحيل إلياس رحباني، خسرنا الحجر الثالث من الأثافي التي نصب عليها قدر موقد الأغنية الرحبانيّة حينما ظهرت مطلع الخمسينيّات، وتكرّست بعد اقتران عاصي بفيروز عام 1955م، وقدّمت مائدة لذيذة من الكلمات، والموسيقى، والألحان، التي طالما صدحت بها حنجرة «فيروز» وإلياس الرحباني هو الأخ الثالث «للأخوين رحباني» وعمّ صباحاتنا الفيروزيّة، وهو لا يقلّ عن شقيقيه عاصي الذي غادرنا سنة 1986م، ومنصور سنة 2009 عطاء، ومثلهما لم تتوقّف ألحانه عند حدود الأغنية، بل تجاوز ذلك إلى المسرح الغنائي الذي جعلوا منه منطقة وسطى بين الأوبرا والأوبريت، لتتشكل ملامح مدرسة الأغنية الرحبانيّة، وتميّزت بأنها تنتمي للإنسان، وقضاياه، ليظهر لون غنائي جديد غمر صباحاتنا بعذوبة بسرعة تشبه سرعة طائر الوروار وجماله واليوم، مع رحيل هؤلاء الكبار، والمتغيّرات التي طرأت على الذائقة، وشملت القضايا، يتساءل البعض:هل سيجفّ نبع هذه الأغنية؟

إن هذه الأغنية المعمّرة مثل شجرة سنديان، عميقة الجذور التي سبقت عصر ظهورها، وبه سادت الأغنية الطويلة، فجاءت بلون مختلف، سريع الإيقاع، مبهج، يعطي للسامع حيوية، كلّ المعطيات تشير إلى أنّها ستبقى، كونها إلى جانب ما ذكرت من أسباب تتّسق مع العصر وإيقاعه، وتتّصل بالإنسان وأحلامه والحبّ والسعادة، وهي رموز تبقى حيّة ما بقي الإنسان. وسيبقى خزينها الذي تركته لنا وللأجيال القادمة، وسيتواصل جديدها من خلال ألحان زياد الرحباني، وأعمال أولاد منصور «مروان

وأسامة وغدي» الذين حلّوا في منتصف أبريل 2014 ضيوفا على دار الأوبرا السلطانية بمصاحبة عدد من الأصوات اللبنانية منها: غسان صليبا، ورونزا، وفاديا طنب الحاج، وهبة طوجي، وسيمون عبيد، ونادر خوري وإيلي خياط، وأحيوا حفلين تضمّنا مؤلفات للأخوين رحباني، وأغنيات من تأليف إلياس، مروان، غدي، وأسامة الرحباني. وقد جمعتني جلسة في كواليس دار الأوبرا مع الأخوين مروان، وغدي اللذين كوّنا شراكة فنّية، وكانت أنفاس عمّهما إلياس حاضرة، مثل حضور فيروز، وابن عمهما زياد. وكان السؤال الذي بدأت به حواري معهما هو عن سرّ نجاح الأغنية الرحبانيّة؟ يومها أجاب مرون: «ببساطة، لأنّها خرجت من الفقر فعاصي ومنصور ينتميان إلى أسرة متواضعة، بل أكثر من فقيرة، لذا خرجت أغانيهما من أوجاع الناس ومعاناتهم، وعبّرت عن أحاسيسهم، وتناولت موضوعات قريبة من حياتهم، وجاءت بلغة جديدة، ومختلفة»، لذا، فهذا الصرح الغنائي، والموسيقي سيستمرّ، وسيظلّ «طائر الوروار» ينشر البهجة في صباحاتنا الفيروزيّة.

ضحكة لم تغبْ!

لكي تضحكَ بعمق، عليكَ أن تتعلمَ كيفَ تتعاملُ مع أوجاعكَ الخاصة وتلعبُ بها.

تشارلي شابلن

بعد رحيل النجمة المصريّة رجاء الجداوي في 4-7-2020 بعد معاناة مع فيروس (كورونا)، تذكّرت أدوارها في المسلسلات والمسرحيات، ومن بينها المشاهد الكوميديّة التي جمعتها بعادل إمام في «الواد سيد الشغال»، وكانت قد شاركته العديد من الأفلام من بينها «حنفي الأبهة»، «بوبوس»، «التجربة الدنماركية». وغادرت عالمنا الفنانة نادية العراقية متأثّرة بـ(كورونا) أيضا، واشتهرت بأداء الأدوار الكوميدية، وكانت قد أعلنت إصابتها بالفيروس قبل أسبوعين من رحيلها، وقالت: «هجمت (كورونا) على بيتنا، ربنا مايوريها لحد.. مش عارفة ليلي من نهاري»، واختتمتها بقولها: «دعواتكم واحرصوا الموضوع خطير». وفي يوم 20 مايو 2021 فجع محبو نجم الكوميديا سمير غانم برحيله نتيجة إصابته بالوباء، بينما بقيت زوجته الفنانة دلال عبدالعزيز في المستشفى تتلقّى العلاج، وبعد أكثر من ثلاثة شهور أسلمت الروح إلى بارئها يوم السبت الموافق 7 أغسطس 2021. فنانون آخرون اختطفهم (كورونا) كمحمد ريحان، والموسيقار جمال سلامة، وتألّمنا لغيابهم، ولا أعرف لماذا

أشعر بحزن شديد كلّما يغادر عالمنا ممثّل كوميديٌّ، ربّما لأنّ مثل هذا الرحيل يحدث شرخا في جدار المرح بعالم متجهم كعالمنا المليء بالصراعات الدامية والتراجيديا، وربّما لأنّ الممثّل الكوميدي يرتبط بمواقف سعيدة مرّت في حياتنا. وأذكر حزننا الشديد على رحيل إسماعيل ياسين في 24 مايو 1972، وحين عرض تلفزيون بغداد يوم وفاته أحد أفلامه، لم نضحك في ذلك اليوم مثلما كنا نفعل قبل رحيله! لأنّنا عرفنا أنّه التحق بعادل خيري المتوفّى عام (1963)، وعبدالسلام النابلسي الذي رحل في (1968)، والضيف أحمد (1970) الممثلين الذين كنا نحبهم، ونعلم أنهم رحلوا عن عالمنا، ومع ذلك كنا نستغرق بالضحك حين نشاهد أعمالهم، يومها لم نكن نعرف الفرنسي هنري برجسون، ولا فلسفته في الضحك، وسنعرف بعد سنوات أنه وضع كتابا أسماه «الضحك»، يرى به أنّ «النفوس الجامدة، لا تعرف ولا تفهم الضحك»، وينصح الفيلسوف الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1927 قراءه: «جرّبوا للحظة الاهتمام بكل ما يُقال وكل ما يجري، وتصرفوا بالخيال.. سترون الأشياء الأكثر خفة تتخذ وزنا.. ابتعدوا بأنفسكم، شاهدوا الحياة كمتفرج لا مبال.. كثير من المآسي يتحوّل إلى كوميديا».

وقد يختلط هذا بذاك، وندمع من كثرة الضحك، على حدّ وصف المعرّي:

فلا تحسبوا دمعي لوجد وجدته ... فقد تدمع الأحداق من كثرة الضحك

يعرف المشتغلون بالتمثيل أن إبكاء الجمهور سهل، فهو مستعد فطريّا للبكاء ولكن إضحاكه يحتاج إلى معجزة. يقول شارلي شابلن: «معجزتي أن

أضع البسمة والضحكة فوق أفواه الصغار»، فالكوميديا من أصعب فنون التمثيل، وتحتاج إلى قدرات أدائيّة عالية، وقدرات إستثنائيّة. لقد كنّا نضحك حين نشاهد اسماعيل ياسين والنابلسي، وفؤاد المهندس، وعادل خيري، وثلاثي أضواء المسرح (الفنان سمير غانم والضيف أحمد، وجورج سيدهم) الفرقة التي تأسّست في الستينيات، فأمتعتنا كثيرا بما قدّمت من عروض كوميدية على خشبات المسارح وكذلك في السينما، فكان ظهور اسم الفرقة في عناوين الأفلام كافيا لإقبال الجمهور على مشاهدتها، رغم أن مشاركاتها في تلك الأفلام لم تكن فاعلة، وإنما كوجبة فاكهة تلطّف الأجواء. ولأن دوام الحال من المحال، فقد منيت الفرقة برحيل الضيف أحمد عام ١٩٧٠، وتوقّفت أعمالها، لكن سمير غانم لم يتوقف فقد ظهر مع سيدهم بعدة أعمال أبرزها مسرحية (المتزوجون)، وانسحب سيدهم من المشهد، بعد إصابته بالشلل قبل رحيله العام الماضي، لكنّ غانم واصل أعماله في التلفزيون، والسينما، والمسرح، وقد أتيحت لي فرصة مشاهدته على الخشبة عندما زار مسقط، وقدّم مسرحيّة (مراتي زعيمة عصابة) التي كتبها أحمد الابياري وأخرجها حسن عبد السلام، على مسرح المدينة بحديقة القرم الطبيعية، ضمن فعاليات مهرجان مسقط 2008. وبعد انتهاء العرض دخلت كواليس المسرح، وسلّمت على المشاركين: نهال عنبر، وحجاج عبد العظيم، وغسان مطر وريكو، ورانيا فريد شوقي، وآخرين، ولم يكن سمير غانم بينهم، وحين سألت عنه لتوجيه أسئلة صحفية حول العرض، قيل لي إنّه في الداخل يغير ملابسه، ويزيل المكياج، فوجدت الظرف غير مناسب للقائه، وفضّلت

زيارته في الفندق، فغادرت الكواليس، وحين وصلت البوابة الخارجية للمسرح شاهدت الجمهور يحتشد هناك، وبدا لي كأنه انتقل من قاعة المسرح إلى البوابة، وكان الممثلون يخرجون واحدا تلو الآخر، وسط تصفيق، واحتفاء الجمهور، ولم يبق سوى سمير غانم، وأطال المكوث. ومع ذلك ظلّ الجمهور ينتظر رغم أن الوقت كان متأخّرا والجو باردا، وبقيت أراقب هذا المشهد، مشهد حفاوة الجمهور المحتشد بنجمه سمير غانم، وأخيرا خرج النجم، لكن يا لخيبة الجمهور الذي أمضى أكثر من ساعة ينتظر نجمه المحبوب! فقد ظهر يسير بخطوات سريعة وهو محاط برجال الشرطة، وواضح أن إدارة المسرح استعانت برجال الشرطة لكثافة الجمهور المحتشد، و«من الحبّ ما قتل!»، وكان من الصعب عليه أن يشق طريقه إلى السيارة التي كانت تنتظره لتنقله إلى مقر إقامة الفرقة، هذا المشهد لم أره مع ممثل عربي، وهو يؤكّد شعبيته الطاغية، ومحبّة الجمهور العريض له، ذلك هو سمير غانم، ملك الكوميديا كما تلقبه الصحافة الفنية الذي التحق برفيقي دربه الضيف أحمد، وجورج سيدهم، جراء إصابته بكورونا التي أدت إلى فشل كلوي، وآخر رئوي، ومن ثمّ أصيب بالفطر الأسود الذي حملت الأخبار أنه صار يصيب مرضى (كورونا) في الهند، بمقتل وفقا لتقرير بثّته وكالة الأنباء الفرنسية، ليغيب عنا واحد من عمالقة فن الكوميديا في الوطن العربي.

ضوء خلف نافذة الظلام

نحن نستمر في الحياة بذاكرة من يحبّنا، اذكرني دوما حتى لو في سرك، في إحدى زوايا قلبك.
حافظ عليّ في قلبك إلى الأبد.

كارلوس زافون

«لقد تعب كثيرا، ولكن لا أريده أن يرحل عنّي».

بهذه الجملة ختمت الفنانة العراقية الكبيرة سعدية الزيدي رسالة قصيرة بعثتها لي، لتشعرني بتدهور صحّة رفيق دربها السينمائي رمضان كاطع، قبل أن يغادر عالمنا في اليوم التالي، لكتابة تلك الرسالة، بعد تدهور حالته الصحية بشكل متسارع. وجاءت وفاته في البيت، الذي لازمه بحسب نصيحة الطبيب الذي خشي تعرّضه للإصابة بـ(كورونا) في حالة نقله للمستشفى، ليطوي الموت صفحة سينمائي أقام بيننا في مسقط حوالي عشرين سنة مع زوجته الفنانة الكبيرة، وجاء الخبر متزامنا مع رحيل الشاعر الإيراني منصور أوجي الذي قرأنا له رباعيات جديدة في سعي له لإحياء هذا النمط القديم من الكتابة الشعرية بلغة جديدة:

مثل نافذة في الظلام
تفكّر بنافذة أخرى
أفكّر بكِ

وأنتِ خلف تلك النافذة في الظلام
بماذا تفكّرين؟

وإذا كان الشاعر منصور أوجي قد رسم صورا تنبض بالحياة بحروفه الرشيقة، فالسينمائي رمضان كاطع أحال الحروف والكلمات إلى مشاهد تتحرّك على الشاشة الفضية ممثلا ومديرا لإنتاج العديد من الأفلام العراقية، وقد يكون بعده عن السينما التي عشقها منذ نعومة أظفاره، سببا لهجوم العديد من الأمراض عليه. ولعا الذي خفف عليه وجود الفنانة الزيدي التي أمضت برفقته (55) عاما هي رحلة الحياة المشتركة التي أمضياها في العمل الفني والغربة، لتختتم بالمرض الذي أقعده في الفراش على مدى سنواته الأخيرة وكان أول عمل جمعهما تمثيلية «النهيبة» التي كتب لها السيناريو والحوار، ومثّلتها مع سلمان الجوهر، وحقّقت نجاحا كبيرا. وفي غمرة النجاح عرض عليها الزواج، ليسيرا معا في طريق الفن والحياة، وكانت حكايته مع الفن السابع قد بدأت بوقت مبكر من عمره، ويحفل سجلّه السينمائي بالعديد من العلامات التي هي جزء من تاريخ السينما العراقيّة وأبرزها: فيلم (الأسوار) الذي أنتج عام 1979، وظهر به ممثلا إلى جانب كونه مدير إنتاج، وهو العمل الذي أثبت به جدارة بفضل مهنيّته العالية وعلاقته الطيّبة بالفنانين وحزمه وحسن إدارته وذكائه الاجتماعي، فجعلت المسؤولين عن صناعة السينما يسندون إليه هذه المهمّة، فتبعه بفيلم (القناص) للمخرج فيصل الياسري الذي صُوّر في بيروت بظروف استثنائية. كما قال الياسري مؤكدا: «كان رمضان كاطع

من أكثر مدراء الانتاج مهنية وإخلاصا، وتنظيما»، وتوالت أعماله السينمائيّة، وكانت محطّته الكبرى مع الفيلم التاريخي (القادسية) 1980 للمخرج صلاح أبوسيف، وتناولت المعركة الشهيرة التي جرت عام 636 م وانتهت بأفول الإمبراطورية الفارسية أمام جيش المسلمين، وكان من بطولة: سعاد حسني، وعزت العلايلي، وشذا سالم، وليلى طاهر، وعمر خلفة، ومحمد حسن الجندي، وعزيز خيون، وسعدية الزيدي، ولنا أن نتخيّل الصعوبات التي يواجهها مدير إنتاج فيلم كبير حافل بالنجوم كهذا، قُدّرت ميزانيته بأكثر من 15 مليون دولار. ويرى المتخصّصون أنّ هذه الميزانية هي الأضخم في السينما العربية. بعد ذلك اشترك في كتابة فيلم (المسألة الكبرى) لمحمد شكري جميل 1981! الذي تقاسم بطولته البريطاني اوليفر ريد، والعراقي غازي التكريتي، وعمل مديرا لإنتاجه أيضا. وتوالت الأفلام (اللعبة)، (عرس عراقي)، (شيء من القوة)، (سحابة صيف)، (شمسنا لاتغيب)، واشترك بكتابة سيناريو (الفارس والجبل)، ومثّل في (وجهان في الصورة)، وختم مشواره مع الإنتاج بفيلم (الملك غازي) لمحمد شكري جميل 1993. وقد حضرت تصوير بعض مشاهده، وجمعتني لقاءات به خلال العمل، وخارجه، كانت عابرة لكثرة مشاغله. في سنوات شهدت تقدّما في الانتاج السينمائي بالعراق، قبل أن تتوقّف بعد إنتاج هذا الفيلم بسبب الحصار الدولي الذي فُرض على العراق، وكانت المواد الكيمياويّة اللازمة لتحميض وطبع الأفلام من المواد الممنوعة من دخول العراق خشية الاستخدام

المزدوج! يقول الناقد الفني عبدالعليم البناء عن كاطع: «لقد بنى قدرات، ووظّف امكانات متنوعة وواسعة انطلاقا من موقعه المحوري في إطار الصناعة السينمائية على صعيد الإنتاج الذي يشكل عصبها، وقد شهدت صناعة الأفلام بصماته، وإخلاصه، وتعبه، وسهره، وحلمه المشروع، لتؤدي دورها ورسالتها التنويرية في اشاعة لغة الحب، والسلام، والجمال». وقبل دقائق من رحيله، كما أخبرتني الزيدي، كانت كلمات الحب، آخر ما جرت على لسانه، وهو يحدّثها، قبل أن يسلم الروح لبارئها لتكون لها ضوءا يشعّ من خلف «نافذة في الظلام» كما يقول منصور أوجي الذي أطفأ ضوءه (كورونا)!

أحلام نهاية الوباء

قيل لأعرابي في مرضه: ما تشتكي؟
قال: تمام العدّة.. وانقضاء المدّة.

لقد نبّهت د. زينب الخضيري إلى خطورة وقوع بعض الأشخاص الذين لم يستعدّوا نفسيّا لعودة الحياة الطبيعية بما يشبه «متلازمة الكوخ»، الظاهرة التي تعود إلى العام 1900 عندما ظهر على الصيادين، والمنقّبين عن الذهب في الولايات المتحدة الأميركية، الخوف والقلق من جراء خروجهم من الأكواخ التي يعيشون فيها فترة طويلة، وهذا يشبه ما يجري مع «الأسماك العمياء» في بعض الكهوف، ومنها كهف (الهوتة) بسلطنة عمان، إذ تستغني عن عينيها لكونها تعيش آلاف السنين في الظلام، والعضو في الكائن الحيّ الذي لا يستخدم يضمر، فما يجري لمن يعيش هذه الحالة يشبه ما يحصل مع حدقة العين التي تتّسع في الأماكن المظلمة، لتتمكن من جمع جزيئات الضوء، وتنكمش حين تواجه الضوء الساطع لتحمي شبكة العين، وهكذا تضيق الحرية الشخصية عندما تخرج إلى المجتمع، وتذوب به، بينما تتّسع في العزلة الفرديّة، كما جرى مع جان جينيه الذي قضى فترة في السجن، فكتب: «السجن على عكس ما نتصوره، السجن ليس بسجن، إنه الهرب، الحرية، ففيه نتخلص

من الكماليات، ونصل إلى الجوهر»، وهذا ما لمسناه، مجبرين، في زمن (كورونا)!

وحين تراجعت أعداد الإصابات بفيروس كورونا، والوفيات، تنفّسنا الصعداء، وبدأت الحياة تعود شيئا فشيئا، ولو بحذر، وبطء شديدين، إلى ما كانت عليه قبل تفشّي الجائحة، وردّدنا مع أنفسنا بيت الفند الزماني:

عسى الأيام أن يرجعن   قوما كالذي كانوا

وبين عسى ولعل، أخذتنا الأحلام بعيدا، وصرنا نفكّر جدّيا بالسفر، وعودة الأنشطة، وزاد من ذلك الشعور توصّل العلماء إلى اللقاح، وتطعيم عشرات الآلاف يوميا به، وصرنا على مقربة شديدة من منطقة الأمان، رغم أنّ هذه المنطقة تظل غير آمنة تماما، فهي تملي على الجميع الالتزام بالتعليمات، والإرشادات الصحيّة الواجب اتّباعها وسارت حياتنا بشكل هادئ، وزدنا اطمئنانا بعد تسجيل الرقم (صفر) في أعداد الوفيات، وخلوّ بيانات وزارة الصّحة من أعداد المتوفّين، وزيادة عدد المتعافين، ولكن فجأة، جاءت موجة جديدة هي الثالثة من الفيروس المستجد الذي يمتلك قدرة على تحوير نفسه، والعودة بلبوسٍ وهيئة جديدة أذهلت العلماء، وكأنه يعيدنا لبقيّة أبيات قصيدة الفند الزمّاني التي قالها في حرب البسوس:

فلما صرّح الشر   فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوان   دنّاهم كما دانوا

مشينا مشية الليث   غدا والليث غضبان

من رحم البيت إلى حضن الحياة

عندما تدرك كم من السلام موجود هناك،
حينها لن ترغب في التعامل مع الناس مجدّدا.
د. أحمد خالد توفيق

للخروج من البيت بعد رفع الحجر الصحي (فوبيا) تشبه (فوبيا) العودة للمدارس لبعض طلبة المراحل الأولى بعد انتهاء العطلة الصيفية وبدء عام دراسي جديد، وهو خوف يصاحب الإنسان عندما ينتقل من «منطقة آمنة»، ألفها واعتاد عليها، خصوصا أنّها حمته من خطر محدق يترصّده، إلى منطقة مفتوحة على الاحتمالات التي من بينها خشية مخالطته لمصاب يحمل الفيروس دون علمه، فصار فضاء البيت حضنا آمنا وملاذا حصينا، هذا الخروج يشبه خروج الجنين من رحم أمّه الضيّق إلى العالم الواسع ولكنّ مغادرته المنطقة الآمنة (الرحم) تجعله يطلق صرخات مشوبة بخوف من المجهول! هذا المثال يذكّرني بمشهد محفور في ذاكرتي رغم مرور سنوات عديدة من مشاهدته، ذلك المشهد من الفيلم الأمريكي «الفراشة» للمخرج فرانكلين شافنر، وبطولة: ستيف ماكوين، وداستين هوفمان فبعد أن يُحكم على بطله «بابيللون» بجريمة لم يرتكبها، يرسل إلى جزيرة في غينيا، فيحاول الهروب أكثر من مرة، فيقبض عليه، ويلقى بسجن إنفرادي لمدة عامين، وتكون الزنزانة مظلمة، وفي قبو لا مخرج منه إلّا من الأعلى وبعد انتهاء

العقوبـة، يـأتي الحـراس ليفتحـوا البـاب مـن فـوق، فيتسـرّب الضـوء إلى داخـل زنزانته، وفجأة يُصاب بحالة من الهستيريا، وكأن خيـوط الضـوء صـارت سـياطا تلهب ظهره، لأنه اعتاد على الظلام فصار الضوء يخيفه!!

وبعد أسابيع من الشـحن النفسـي والضـخّ الاعلامـي باتّجاه ضـرورة التباعـد وتجنّب المخالطـة المجتمعيّـة، كيـف يمكـن للعقـل البـاطن الـذي صـار مقتنعـا بذلك الخطاب، مستسلما له، أن يعيـد برمجـة نفسـه وتهيئتهـا لاسـتقبال معلومـة جديدة تتّصل بـ«مناعة القطيع» التي لم يثبت نجاحها بعد، لأنّها تعزف على وتـر الشاعر الذي قال:

ألقـاه في اليـمّ مكتوفـا وقـال لـه ... إيّـاك إيّـاك أن تبتـلّ بالمـاءِ

لكنّ الخـارج مـن بيتـه لممارسـة أعمالـه غـادره وعلـى وجهـه كمّامـة، وبيديـه قفازان، ومكتّفا بـالكثير مـن الوصـايا الطبّيّـة التـي تحـذّر مـن التخـالط، وتوصـي بالتباعـد، خشـية التعـرّض للإصـابة بـالمرض، فالـذين يغـادرون بيـوتهم، مـن المحتمل سيواجهون صعوبة في التكيّف مع الحياة الطبيعيّة، فمـا كـانوا يعيشـونه بشـكل طبيعـي لـم يعـد كـذلك بعـد الحجـر، وبـالطبع تختلـف هـذه الحالـة مـن شـخص إلـى آخـر، تبعـا لوضـعه النفسـي، فهنـاك مـن يتكيّـف بعـد سـاعات مـن خروجـه مـن البيـت، وهنـاك مـن يحتـاج إلـى أيّـام، لكـنّ الجميـع في النهايـة سيتكيفون، عاجلا أو آجلا، مع شـيء مـن الحيطـة والحـذر، واكتسـاب عـادات جديدة تتماشى مع الوضع الصحي العام، فالكمّامات والمعقّمات والقفّازات، أصبحت من اللازمات التي لا يمكن الاستغناء عنها، فـ«كورونا» مـا زال ينشـب

أظفاره في رئات المصابين، وينشر الخوف والذعر في نفوس الأصحّاء، وإلّا رجعنا إلى منطقة الخطر، وبذلك ستكون الوطأة أثقل كونها سيصاحبها شعور عام بالإخفاق!

وما دامت الحياة بدأت تعود شيئا فشيئا إلى طبيعتها، فإن هذا التهيّب سيختفي بمجرّد الانغماس في الحياة وتفاصيلها، مثلما يحصل مع طلاب المراحل الدراسية الأولى، فسرعان ما يندمجون مع بعضهم البعض، والإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يقول: «إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدّة توقيه أعظم مما تخاف منه»، فالأصل في الحياة هو الحركة، أمّا السكون فهو حالة طارئة مثل الجائحة التي عصفت بكوكب الأرض، فشلّت حركته، وجعلت البعض من الناس يتهيّبون من الحياة الطبيعيّة!

وهنا ينبغي علينا شحن العقل الباطن، وتغذيته بطاقة إيجابيّة، وتزويده بمعلومات جديدة تركّز على أنّ الحياة لا بدّ أن تستمرّ في جميع ظروفها وحالاتها وتقلّباتها، وليكن خروجنا من رحم البيت إلى فضاءات الحياة الأكثر رحابة!

تعايش مع الوباء

هذا (الوباء) صديقي كنت أرقبه *فلا تخافي تعالي فيَّ نجتمع*

وسام العاني

بعد أن ألفنا البيوت، واستأنسنا بما تيسّر لنا من هدوء بال، وخلوة مع ارتفاع نداءات «خليك بالبيت» التزاما بالتوجيهات التي تدعو للمكوث فيها، وأنجزنا أعمالنا من البيت عبر «الأون لاين»، دخلنا مرحلة جديدة من رحلة المواجهة الكونيّة مع فيروس (كورونا)، هي مرحلة التعايش مع الوباء، واستئناف بعض الأنشطة التجاريّة أعمالها بعد صدور قرارات اللجنة، والتخفيف من الحجر الصحّي المنزلي تمهيدا للعودة إلى الحياة الطبيعية التي كنّا نعيشها قبل تفشي الوباء، كما يحصل في مناطق كثيرة من العالم اليوم. كلّ هذا جيّد، لكن ما نستغربه هو غياب الحملات التوعويّة التي شجّعتنا، من قبل، على المكوث في البيوت عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، وعدم عبورها معنا على القارب نفسه الذي أدخلنا البيوت إلى المرحلة الجديدة التي بدأناها، فوجدنا أنفسنا «كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ»! والسلاح هنا هو المواكبة التوعويّة التي تحثّ الناس على العودة التدريجيّة لممارسة الحياة الطبيعيّة ومزاولة أعمالهم، والتأكيد على ضرورة التقيّد بالنصائح الطبّيّة، ووضع الكمّامات على

الوجوه، ومراعاة التباعد، عبر حملات توعويّة ينبغي أن تستخدم مختلف الوسائل لإيصال هذه الرسائل، ومنها اظهار صور من الحياة الجديدة المتعايشة مع الوباء وقد برزت نماذج جيّدة يمكننا اعتبارها نماذج فنّيّة توعويّة لمرحلة التعايش، منها أغنية بحرينيّة موجّهة للأطفال، وكلّنا نعرف أهميّة أغنية الطفل في توجيه السلوك، وبثّ رسائل تعليميّة يستفيد منها الصغار والكبار على حدّ سواء، بدليل انتشار الأغنية، وأعني «بابا يا بابا لا تطلع من البيت» بعد ساعات قليلة من بثّها، فحقّقت نسبة مشاهدات عالية. وسرّ نجاح هذه الأغنية التي هي من أداء، وتمثيل: فاضل الموسوي، والطفل حسن علي، وإخراج هاشم لحلاي، بساطتها، وقوّة الرسالة التي تحملها، هذه الرسالة تأتي من خلال حوار يجري بين أب وولده، وتبدأ بمشهد أب يهمُّ بمغادرة البيت، فيستوقفه ولده الصغير، ويقول له «بابا يابا لاتطلع من البيت»، فيجيبه:

«طالع يا بابا مضطر وتعنيت

لازم أوفر لك حاجاتك والبيت».

وحين يجد الطفل في خروج الأب ضرورة لديمومة الحياة، يسأله عن قفّازه، وكمامته، والمعقّم، فيطمئنه أنّه وضع حسابا لذلك، فيخرج، وحين يعود من التسوّق يجري ولده إليه ليحضنه لكنه يمنعه ويطلب منه الصبر، وعدم التعجل إلّا بعد تعقيم يديه ورمي قفازه. كلّ ذلك يجري في زمن قياسي هو دقيقة واحدة و49 ثانية، هو كلّ زمن الأغنية!

هذا مثال لنموذج فنّي نحتاج إلى مثله كونه يحمل رسالة توعويّة بإطار فنّي جاذب تتوافق مع المرحلة الجديدة التي دخلناها، فلكلّ مرحلة أدواتها، ودور وسائل الإعلام إظهارها وتعريف الناس بها، لئلّا ندخل مرحلة جديدة بأدوات سابقة أدّت دورها على أكمل وجه، وأبسطها نغمة «عمانتل»، فعلى مدى أكثر من شهرين، اعتدنا سماع نغمة «مكوثك في البيت واجب وطني.. »، وصرنا نسمعها كلّما أجرينا اتّصالا هاتفيّا، فاعتدنا عليها، لأنّ هذه النغمة ظلّت تتكرّر لمرّات عديدة في اليوم الواحد وبالتوازي معها انتشرت «الهاشتاغات» التي تحثّ على البقاء في البيت، وعدم الخروج إلا للضرورات القصوى، مع أخذ التدابير التي تجنّبنا الإصابة بالفيروس، وانتشرت مقاطع الفيديو التي تشجّع على المكوث في البيوت، ضمن حملات توعويّة كرّست ثقافة «خليك بالبيت» انسجاما مع التوجيهات. وقد حققت تلك الحملات أهدافها، بهمّة، ودعم، وحماس الشباب الناشطين في وسائل التواصل الاجتماعي، والمجتمع اليوم بحاجة إلى تكاتف الجهود لإطلاق حملات، وبرامج توعويّة جديدة، بالزخم نفسه الذي انطلقت به حملة «خليك بالبيت»، فتضع مفردات تتناسب مع المرحلة الجديدة، يكون هدفها المركزي الحثّ على التعايش مع (كورونا) لحين انجلاء الغمّة.

ضوضاء اجتماعيّة

دونما ضوضاء
يمسح البحر على التراب
آثار خطوات العشاق
لكن حبي الصامت والمخلص لك
ما زال يبتسم
ويشكر الحياة.

جاك بريفير

هل نجح فيروس (كورونا) في عزلنا اجتماعيًّا، وصنع فجوات في علاقات بعضنا بالبعض الآخر؟

أحيانا قد نجد أنفسنا في ظرف ما مجبرين على ممارسة نمط معيّن من الحياة يفرضه ذلك الظرف، وأفضل شيء نفعله الخروج بفوائد ومنافع تعود علينا بالخير من خلال القبول به والتصالح معه وفي بعض الأحيان يتداخل النفع بالضرر، ومن الضرر تبرز منافع، وهذا الكلام خلاصة تراكم تجارب حياتيّة يقول عالم الاجتماع د. علي الوردي: «مشكلة هذه الحياة أنك لا تستطيع أن تجد فيها شيئا ينفع من غير ضرر، أو يضر من غير نفع في كل حين»، وقديما قال أبو العلاء المعرّي:

والشر في الإنس مبثوث وغيرهم ... والنفع مذ كان ممزوجٌ به الضررُ

فلا يوجد ضرر مطلق، ولا نفع مطلق ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾.

بالنسبة لي، أرى أنّ ما جرى لنا قضى على الزوائد، والطفيليّات، والطحالب الاجتماعيّة التي نمت على جلد حياتنا واستهلكتنا، وشغلتنا عن أناس يستحقّون منّا اهتماما أكبر. ولا أقصد محيط الأسرة والعائلة، فهذا محيط أساسي متوّج بهالة قدسيّة لايمكن المساس به، بل أعني علاقاتنا في المحيط الأوسع، فمعظم تلك العلاقات تفرضها ظروف معيّنة، ويوما بعد آخر تتّسع وتكبر الهوامش لتصبح هي المتون، فنفقد قدرتنا على السيطرة على امتداداتها، وندخل مناطق الأوهام، ونظن أن لا حياة بدونها، بل من الصعب للحياة أن تستقيم، وتمتدّ من غير أن تكون ضمن مشهدها العام. وجاء (كورونا) فارضا علينا استراتيجية «التباعد الاجتماعي» بدلا من التقارب، كوسيلة من وسائل مقاومته لينقذنا من هذه الأوهام، وليضع كلّا في مكانه الصحيح، ويزيح الغبار عن الصورة لتتّضح ملامحها، وتعود الأشياء إلى نصاعتها. أمّا التواصل، فقد تحقّق بأعلى مستوياته، ليس عن طريق اللقاءات المباشرة مع من نودّ ونرغب، بل من خلال وسائل التواصل البديلة، فصرنا نتحدّث بصفاء وتلقائيّة مع القلّة التي حرمتنا الضوضاء الاجتماعية من سماع أصواتها العذبة، وصرنا في زمن التباعد الاجتماعي أقرب ما نكون إلى بعضنا البعض من ذي قبل، بما يعطي تفسيرا واقعيّا لقول الشاعر:

ومـن عجـب أني أحـنّ إلـيهم　　　وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها　　　ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

فليس الحضور المادي والفيزيائي لمن نحبّ هو الشرط الأساسي لدوام المحبّة، بل التواصل الوجداني، وهو تواصل ينضح بالكثير من الصفاء الذي يسمو بالعلاقة الإنسانيّة، وينقّي العلاقات من الشوائب، يقول الشاعر:

خيالك في عيني وذكرك في فمي　　　ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

والأمر لا يقتصر على الأفراد، بل ممتد إلى مستوى المؤسسات التي تخفّفت من الترهّل، فبدأت تفكّر بطريقة أكثر صفاء وعمليّة، وبدلا من أن تتوقّف أنشطتها ازدادت، وكسبت جمهورا أوسع كون هذه الفضاءات مفتوحة وتقرّب البعيد، فصار العالم بدلا من قرية، كما أرادت العولمة له أن يكون، نافذة صغيرة، وصار السفر متاحا للجميع ومفتوحا بلا طائرات ولا جوازات سفر ولا حقائب ثقيلة، وصرنا نسافر إلى من نحبّ بدون تعب، وإذا كانت الجائحة قد قاربت بين الأفراد شعوريّا، فقد قاربت هذه النوافذ بين الشعوب، فلتكن هذه العزلة الإجبارية محطة لغربلة ملفات المحيطين بنا، استعدادا للقاء جديد بروحية أفضل، وكما يقال: «كلما طال الغياب كان اللقاء أجمل».

كأنّك يا (كوفيد) ما غزيت!

لقد رأيت الثقب في سفينتك منذ اليوم الأول للرحلة.

دوستويفسكي

بعد شهور من تطبيق آليّة التباعد، انتشرت التحذيرات من وجود موجة ثانية من بحر (كوفيد 19) متلاطم الأمواج، رغم أننا لم نستردّ أنفاسنا بعد من موجته الأولى التي لم تزل آثارها النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة عالقة في النفوس!

لذا عمّ الخوف مجدّدا، وعدنا إلى أخذ الحيطة والحذر، وقيّدنا حركتنا إلّا «للضرورات التي تبيح المحظورات»، بحسب القاعدة الفقهيّة، خصوصا بعد أن قرّرت اللجنة العليا المكلفة ببحث آليّة التعامل مع التطوّرات الناتجة عن انتشار فيروس كورونا: الحدّ من الحركة والإغلاق، وحظر استخدام الشواطىء، ووقف التجمعات العائلية، وإغلاق بعض الأنشطة، كما جاء في بيانها مع التلويح بنشر صور المخالفين!

ما الذي جرى؟ هل الخلل منّا؟ أم من الفيروس الذي لسان حاله يردّد مع المعري قوله:

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانُه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل؟

وأغدو ولو أن الصباح صوارم ... وأسري ولو أن الظلام جحافل؟

بالطبع، نتحمّل جميعا المسؤوليّة، فلم يكن (الفيروس) أن يلعب معنا هذه اللعبة التي أشبه ما تكون بلعبة القطّ، والفأر، لولا عدم إكتراثنا وقلّة صبرنا، وعدم اعترافنا أننا قبل أن نعرف هذا الوحش الكاسر أمضينا سنوات طويلة في ممارسات حياتيّة غير صحيّة، وجاء الفيروس الصغير ليدقّ جرس الإنذار، ويشعرنا أنّنا كنّا لا نراعي العادات السليمة في الأكل والشرب ولا في الحياة العامّة، فعندما نلتقي صديقا سنسارع إلى أخذه بالأحضان والقبل، حتى لو أخبرنا أنّه مزكوم، ولِمَ الخوف والتردّد والعالم يشهد قفزة واسعة في التقدّم العلمي بمجال الطبّ، و«لكلّ داء دواء» متوفّر ورخيص الثمن، وتفتح المستشفيات والعيادات الخاصة والصيدليّات الخافرة أبوابها لمن يهمّ بالدخول؟ وحين يتراجع الصديق المزكوم تجنّبا لنقل العدوى لنا نقول له: لا عليك من الإنفلونزا، دعنا نطفئ أشواقنا لك، ثمّ نجلس معه، نأكل من صحن واحد، ونشرب من كأس واحدة، رغم علمنا أنّ عواقب تلك العادات على الصحّة وخيمة! بل قد تصل الاستهانة بالأمراض إلى حين يصاب أحدهم بمرض يقول ببساطة: لقد أخذت الفيروس من زميل لي في العمل، أو من فرد من أفراد العائلة، ولا يمانع من نقله لآخر يقاسمه المكان في المكتب وجولاته في المتاجر والمحلات!! إلى جانب ذلك، نستمر في ممارسات خاطئة: نهمل تعزيز الجهاز المناعي، ونسرف في تناول الأطعمة المليئة بالسكّريّات، أو الدسمة، أو المشروبات الغازية، ولا نتحرك إلّا قليلا!

ولأنّنا اعتدنا هذه الممارسات الصحيّة الخاطئة صارت سلوكا، بل إنّ من يراعي صحّته، نطلق عليه صفة (الموسوس)، وسرعان ما يصبح مصدرا

للسخرية، والتندّر! فكيف يمكننا أن ننهج نهج الذين كنّا نسمّيهم (الموسوسين)، ونجعل من سلوكيّاتهم قدوة لنا؟

هذه هي المسألة التي لانريد أن نستوعبها، لذا بقينا نراوح في أماكننا، وظلّ الفيروس يصول، ويجول، والسؤال الذي نطرحه على أنفسنا اليوم: لو تجاوزنا هذه الجائحة، هل سنستفيد من دروسها؟

لا أظن، فسنعود إلى ما كنّا عليه، فالفيروس الذي ظنّنا، نحن الحالمين، أنّه سيجعلنا أكثر إنسانية لم يغيّر من طبائعنا الكثير، وبقي الإنسان «ظلوما جهولا»!! والأمر ينعكس على الدول الكبرى، دول العالم المتقدم التي ظننا أنها ستسخّر قوّتها، وثقلها العلمي للقضاء على الفيروس وسحقه، ها هي تكشّر عن أنيابها، وتدخل في صراعات لإنتاج اللقاح، وفرض هيمنتها السياسيّة والاقتصاديّة على العالم! والسعي لجعل المعرفة العلمية في خدمة أهدافها، و«برغيًّا» في ماكنتها الرأسمالية العملاقة. واليوم في ظلّ هذه الأزمة التي أظهرت ليس فقط معادن الناس، بل معادن الدول والأنظمة الحاكمة والإعلام، من الطبيعي أن نشهد تراجع القيم والمبادىء، وبعد انحسار الجائحة، وهذا أمر طبيعي، مهما طال مكوثها بيننا، هل سننسى كلّ تلك الدروس والخلاصات ونكرّر أخطاءنا؟

ربّما، عندها يمكننا أن نحوّر المثل الشائع، ونقول: «كأنّك يا (كوفيد) ما غزيت»!!

في أحضان أمّنا الأولى

عودوا إلى الطبيعة، لأن الطبيعة هي الإنسانية وهي الصحة، وهي الهدوء والطمأنينة، وهي شاطئ الأمان من مفاسد الحضارة.

جان جاك روسو

بعد فتح الإغلاق، وبدء سريان الحركة، ، تلقّيت أكثر من دعوة للذهاب إلى مزارع تقع في أطراف «مسقط»، حيث «الماء والخضراء»، والهواء العليل، والطبيعة البكر التي انتزعتنا منها حياة المدينة بزحمتها وعوادم سياراتها وأضواء الحداثة البرّاقة وروح العصر التي تسعى بكلّ ما تستطيع من وسائل لاستلاب الفطرة من أعماق الإنسان التي جّبل عليها، فكانت هذه الدعوات محاولة لرأب الصدع مع الطبيعة بعد جفاء، وبالطبع هذه الهجمة «الرومانسيّة» لم تأت استجابة لدعوات الشعراء الرومانسيين التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر في أوروبا، وقضت بضرورة العودة للطبيعة، بل لكثرة البرامج والنصائح التي انتشرت منذ بدء تفشّي الجائحة، وإلزام الجهات المعنيّة الناس بتطبيق آليّة التباعد الاجتماعي للحدّ من انتشار الفيروس والابتعاد عن الأماكن المكتظّة، فاسحة المجال للتفكير بضرورة الخروج

للمزارع والبساتين والأماكن المفتوحة، لاستنشاق الهواء النقي، والنزول في الماء الذي يعدّ من عناصر الطبيعة التي تحظى بقدسيّة لدى الديانة المندائيّة، فقد ورد في كتابها (كنز الرب): «رسمي العالي لايجري كالنار ولا كالزيت ولا بالمسح، إنه مرسوم بالماء الجاري العظيم، ماء الحياة الذي لايدرك الإنسان قدرته»، والكثير منّا قرأ نصيحة الحكماء القدماء التي تقول: «كلْ نصف ما اعتدت أن تأكل، ونمْ ضعف ما اعتدتْ أن تنام، واشرب ثلاثة أضعاف ما اعتدت أن تشرب واضحك، أربعة أضعاف ما اعتدت أن تضحك فإن فعلت متّعت بأفضل العمر»، والتعرّض للشمس التي كنّا نتجنّبها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والتشجيع على ممارسة الألعاب الرياضية، والمشي تحديدا، إذ فيه صحّة بدنيّة ونفسيّة، ولنا في (المشّائين) أتباع فلسفة أرسطو الذي كان يلقي دروسه وهو يمشي، فأسماه تلاميذه (المشّاء) وظهرت مدرسة فلسفية عام 335 ق. م باسم (المدرسة المشائية) استمرت تأثيراتها لعصرنا الحديث. يقول نيتشه: «إن أعظم الافكارهي التي تأتينا، ونحن نمشي»، وهذه كلّها نجدها بمجرّد مغادرتنا مراكز المدن، وتوجّهنا إلى المناطق المحيطة، حيث تكثر المساحات الخضراء، ومشاهدة الحيوانات الأليفة، والطيور التي تتنقل ما بين الأشجار وبحرية وكأنها في عقر دارها، ومناحل العسل، خصوصا أن هذه الأماكن قريبة، ومتاحة، لكننا، ونحن نقبل على البيئة الطبيعيّة، لا بدّ أن نصطحب معنا مستلزمات المحافظة عليها، والتسلّح بالوعي البيئي، واتّباع التعليمات لصيانة الحياة الفطرية، وعدم المساس بها، أو الإعتداء

عليها. يقول الشاعر اللبناني أنسي الحاج: «حين تدوس نملة لا تقتل النملة، بل الحياة المتمثّلة في النملة، حين تقتلع شجرة لا تقتلع الشجرة بل الحياة التي أحبّت أن تتّخذ شكل الشجرة، ومَن يقتل الحياة ليس الموت بل حياة تقاوم نفسها»، وهذا يحدث كثيرا، رغم الصيحات التي يطلقها دعاة المحافظة على البيئة والأدباء والفنّانون، فحين شاهد التشكيلي الكبير جواد سليم صباح عيد الشجرة عاملين يقتلعان شجرة، شعر بالألم الشديد لهذه المفارقة الموجعة، لذا دخل مرسمه ورسم لوحة «الشجرة القتيل» (1958)، وكانت خطوطه صرخة احتجاج على اقتلاع الشجرة التي تلمّس وجعها، واعتبر تلك العملية الوحشية جريمة قتل! يقول الناقد جبرا إبراهيم جبرا إنه حين عرضها عليه لاحظ كميّة الأسى في اللوحة، فاقترح عليه أن تحمل هذا الاسم بدلا من «عيد الشجرة»، وخلال مشاركة لنا في مهرجان مسرحي أقيم بحمام سوسة في تونس، احتاجت فرقة عربية من الفرق المشاركة أغصان أشجار كجزء من الديكور، فتوجّه المخرج حاملا مقصّا كبيرا مع فريق العرض إلى بستان قريب من قاعة العرض، وأخذ يقصّ ما طالت يداه من أغصان مورقة وشتلات، وعاد مع فريقه للمسرح حاملا تلك «الجثث» الخضر، فشاهده أحد منظمي المهرجان، وأخذ يولول على فداحة ما فعل من عمل مشين يمكن للقانون أن يحاسبه عليه صارخا: «ماهذه الجريمة التي ارتكبتها!؟» فاندهش، كون الأمر من وجهة نظره لايستحق كلّ هذا الإنفعال! وحين خرجتْ تلك الفرقة من المهرجان بلا جائزة رغم أن العرض كان يستحقّ، تناهى إلى مسامعي أن

لجنة التحكيم أخذت بنظر الاعتبار عند تقييمها للعمل أن الديكور بُني على حساب الطبيعة وإيذائها، وهذا قلّل من فرص الفوز كثيرا وضمن هذا السياق، لفتت نظري تغريدة نشرتها هيئة البيئة بسلطنة عمان أشارت بها إلى البحث بالتعاون مع الادعاء العام عن أشخاص «نشروا مقاطع عبر برامج التواصل تتضمن مشاهد تعذيب عدد من الثعالب البرية، وتدمير أعشاش الطيور وحرقها»، فحين نعود للطبيعة ينبغي أن نهتمّ بها، وبالأحياء التي تعيس فيها، ولا نسعى إلى تدميرها، فأمثال هذه الممارسات «تهدّد الحياة الفطرية وتقلل من التنوع البيئي، وبالتالي تؤدي إلى انقراض بعض الأنواع. دور الإنسان يفترض أن يكون على النقيض من ذلك، فالحياة الفطرية ثروة وطنية يجب المحافظة عليها وعدم الانجرار إلى مثل تلك الممارسات غير المسؤولة»، كما أشار الفاضل هلال البريكي في تعليق له على التغريدة، فالاعتداء على الطبيعة هو اعتداء على كائنات حية، لذا علينا الحفاظ على أمنا الرؤوم الطبيعة، ونحن نعود إلى أحضانها، و«ما أحلى الرجوع إليها!».

الورق يكسب المعركة

بعد فترة تبدأ بتقبّل هزائمك برأس مرفوع، وليس بحزن طفل، وتزرع حديقتك بدل انتظار أحدهم ليهديك ورد، وتتعلم وتتعلم، مع كل وداع تتعلم.

خورخي لويس بورخيس

يبدو أن المثل العربي القائل «رب ضارة نافعة» قدّم تطبيقا عمليا، ووضع حدا للجدل الدائر حول الصراع بين الصحافة الورقية والإلكترونية، وقد كسب الورق المعركة بدون إراقة قطرة حبر واحدة، وبدون رمي إطلاقة، فقد جاءه الفوز يسعى على طبق من ذهب!!

ليس من خلال زيادة أعداد المشتركين بالصحف، فهذه الثقافة ليست منتشرة لدينا، وهي ثقافة وفّرت دخلا للصحف في الغرب، بدليل تأكيدات رئيسة تحرير فاينتشيال تايمز المطمئنة على الوضع المالي للصحيفة، وأنه «لم يتأثر بكورونا بفضل استمرار مدفوعات اشتراك القراء»، وهو أمر من غير الممكن أن نحلم به، في صحافتنا العربية لأسباب عديدة أجملتها د. عالية شعيب في تغريدة لها: «إن فقدان الثقة بالصحف وتراجع المصداقية أدّى لتراجع اهتمام القراء. القارئ العربي ذكي ولا يقبل المساومة على فكره

والمعلومة التي تقدم له. نحتاج ردم الفجوة بين الصحف والقراء أولا وكسب الثقة مجددا، والارتقاء بالإعلام حتى يعود لرسالته السامية الحقيقية دون كذب أو تلون وتَكسُّبٍ على حساب القارئ».

ولكون صحفنا الورقية خسرت دعم القارئ، والمؤسسات، لذا حاولت الحفاظ على المعلن من الأذى، فهو فرس الرهان الأخير، ومثلما كشفت الجائحة أن الثقة المولاة للمنظمات العالمية ربما لن تكون في محلها وفقا لرؤية البعض، بل شخصت وجود خلل في المنظمات العالمية والأنظمة الصحية العالمية، وبنفس الكيفية كشفت عن جوانب أخرى مرتبطة بالأدب والثقافة والاعلام، وفي الأخير كشفت كل ما يقال من أن الصحافة الإلكترونية ستكون سائدة ثبت العكس، ففي فترة الإغلاق، بعد تفشي كورونا وتنفيذا لتوجيهات اللجنة العليا التي قررت إيقاف طباعة الصحف الورقية كإجراء وقائي، كان وقع الخبر ثقيلا على أسماع الكثيرين ممّن اعتادوا بدء صباحاتهم بشمّ حبر المطابع الذي يضوع من الورق، وخلال استضافة منصة كلية الآداب الدولية بالجامعة المستنصرية لي استعرضت جذور علاقة الإنسان بالصحافة، ومما ذكرت أنّ الملوك البابليين، استعانوا بكتبة أخبار يقومون بتسجيل الحوادث، وتوثيقها، شأنهم في ذلك، شأن الصحفيين اليوم، مع شرح للصور، وهذا يعني أن صحافة الصورة معروفة منذ أقدم العصور. ويؤكّد د. نائل حنون: «في الحملات الحربية كان الملوك يصطحبون مدوّني الوقائع لتوثيق كل ما يحصل، وكذلك يصطحبون الفنانين حتى يصوّروا المشاهد الطبيعية والعمرانية التي يصادفونها، وهناك صور لمشاهد فنية بالنحت البارز وجدت على ألواح الحجر في القصور الآشورية، ويظهر فيها كاتبان مع الملك

الآشوري يسجّلان الوقائع والأحداث. أحد هذين الكاتبين يدوّن على رقيم طيني بالمرقام (القلم الخشبي) وباللغة الأكدية، والثاني يدوّن بالقلم على لفيفة البردي باللغة الآرامية» وتحدّثتُ عن مجلّة (لقمان) التي ورد ذكرها في كتاب الدكتور جواد علي في كتابه «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام». ففي سيرة ابن هشام، نقرأ خبرا عن قدوم سويد بن صامت إلى مكة لأداء الحج: «وكان سويد يشتهر في قومه بأنه رجل كامل ذا شرف ونسب، وكانت له أشعار كثيرة، فتوجه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما الذي معك؟ قال مجلة لقمان، فقال له الرسول «اعرضها عليّ» فعرضها عليه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدى ونور»، فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن وسميت سورة كاملة باسم «لقمان». ويوضح جواد علي أن علماء اللغة اعتبروا أن المقصود بكلمة «مجلة» أي الصحيفة التي يكتب فيها شيء من الحكمة، بينما يرى هو أن الكلمة استعملت للدلالة على «الكتب المقدسة». وقد قام الشاعر شوقي عبدالأمير بجمع مقتطفات من النثر الجاهلي ونشرها في كتاب حمل عنوان «مجلة لقمان» صدر بطبعته الأولى ضمن مشروع منظمة اليونسكو «كتاب في جريدة» بعدده 111 الصادر يوم الاربعاء 7 نوفمبر 2007، وقد زينت العدد رسومات للفنان فاروق حسني. والذي يهمّني، في هذه المساحة المتاحة إظهار العلاقة القديمة للورق بالإنسان، واليوم حين توقّفت الصحافة الورقيّة عن الصدور كإجراء احترازي للحدّ من انتشار (كورونا)،

لشهور قبل أن تعاود الصدور، مثلما استأنفت المؤسسات العمل بنظام البصمة عند حضور المنتسبين وانصرافهم، قال الكثيرون: سنحت الفرصة للصحافة الإلكترونية لتفرد عضلاتها، وتلعب في الساحة التي خلت لها. ولكن يوما بعد آخر بدأ الهزال المالي والشحوب يرتسمان على وجوه المؤسّسات الإعلامية، وصارت أعراض فقر الحال واضحة للقاصي والداني، بدءا من الإقلال من رواتب العاملين، وليس انتهاء بالاستغناء عن البعض، وقد عانى أصحاب الصحف من تراجع الدخل، لتراجع عوائد الاعلانات من15٪ إلى 20٪، وكان سوق الإعلانات يعاني من الركود، لأنّ المعلنين يفضّلون نشر إعلاناتهم ورقيا، وصارت الصحف المحلية تتعمّد إخفاء قائمة أسعار الإعلانات الذهبية (الورقية)، ووضع قوائم جديدة بأسعار تشجيعية ومع ذلك ظلّ المعلن يضع عينا على الورق، وعينا على محفظته التي دبّ فيها الهزال بسبب الجائحة وابيضّ شعرها، لذا لم يكن أمام أصحاب تلك المؤسسات سوى انتظار الفرج، وعودة الورق:

رب يوم شكوت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

والغريب أنّ المؤسسات التي كانت ترفع شعار «المستقبل للصحافة الإلكترونية»، وكانت تجري تمارين احماء وتصول وتجول وتنظر للورق كـ«دقّة قديمة»، وتَخلّف، صارت تحلم بعودة الورق، فالمعلن يفرض شروطه، وأولى تلك الشروط نشر الإعلان ورقيا، فليس كلّ الناس لهم حسابات في مواقع التواصل الاجتماعي، لا سيّما في المناطق التي فيها شبكات الاتصالات ليست بذلك التطور، وهي حقيقة صارت واضحة في زمن الجائحة.

الجائحة التالية

الإنسان اليوم لا يعيش أسعد فتراته بالتاريخ.

«العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري»، يوفال نوح هراري

رغم أننا ما زلنا ننوء بثقل جائحة (كورونا) التي أحكمت قبضتها على حياتنا، وعاثت في تفاصيلها فسادا، وندور في حلقتها التي تبدو مقفلة، رغم الجهود التي يبذلها العلماء بكلّ ما أوتوا من حكمة، وعلم، ودراسات، وبحوث، لطيّ صفحتها، وإرخاء قبضتها، معلّقين عيوننا بخيوط الأمل، وكلّنا ثقة بهذه الجهود وتكاتف الجميع من أجل كسر طوق هذه الدائرة، وعودة الحياة إلى ما كانت عليه، إلّا أنّ هذا الوضع لايمنع من التحذير من جائحة قادمة لا تقلّ خطرا عن (كورونا)، وهذا التحذير لم يأت من باب التشاؤم، أو رفع الطاقة السلبيّة لدى الناس، وهي مرتفعة أصلا، بعد تزايد عدد الإصابات بالفيروس، والموتى والراقدين في المستشفيات وخارجها، والبعض ذهب به شعوره بالإحباط إلى تحوير قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا (كورونا) أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع!

لكن تميمة (كورونا) التي أثبت نفعها تكمن في اتّباع الإرشادات الصحيّة، والمحافظة على التباعد الاجتماعي وأخذ التطعيم، ومن يراع ذلك لا تنشب (كورونا) برقبته أظفارها، بعونه تعالى.

غير أنّ وصول الجائحة الجديدة، ولا أعني به نسخة جديدة من المتحوّر الهندي الذي أغلق الأجواء مع الهند سيكون أمرا واقعا، لا مفرّ منه، وهذا ما أكّدته دراسات، وأبحاث مع فارق بسيط، هو أنّ فيروس الجائحة الجديدة ليس كفيروس كورونا، رغم أنه ينتقل بالعدوى والمخالطة أيضا، لأنّ الفيروس نفسي، والأمراض النفسيّة تنتقل بالمخالطة أيضا! فكم من صحيح صار فريسة للمرض بعد مخالطته لأشخاص سلبيين! وفي هذا يقول الشاعر:

لا تربط الجرباء حول صحيحة خوفا على تلك الصحيحة تجرب

ومن بين الدراسات التي حذّرت من فيروس الجائحة الجديدة، دراسة أعدّها معهد برشلونة للصحة العالمية كشفت عن خطورة التداعيات النفسية، التي تتركها جائحة (كورونا) لدى المصابين، وقالت: «قد تكون أشدّ فتكا من الوباء على المجتمعات، وتستدعي اهتماما وعلاجًا عاجلين، ذلك أنّ الصحة النفسية للناس تعرّضت للانتهاك في آن واحد من جانب آليات متعددة، وثمّة حاجة إلى اتخاذ إجراءات عاجلة بشأنها». وحثّت الدراسة «على وضع استراتيجيات خاصة بالحماية الاجتماعية لمكافحة المشكلات الناشئة عن البطالة والخسارة غير المتوقّعة للأحباء، والوحدة، والعزلة، مع ضمان توفير الخدمات الأساسية، وتمويل الخدمات الاجتماعية، لمساعدة الأسر المحتاجة». إن هذه الدراسة تنطلق من التلازم بين صحّة البدن، والنفس. وأكد علماء النفس ومن

بينهم السويسري كارل يونغ على ضرورة التوازن، ومراعاة الصحة النفسية بعد أن غاص في خبايا النفس، وعوالمها المتداخلة، وغوامضها، فقال: «مهما بلغ بنا الوعي يظلّ ثمّة مقدار غير محدّد، وغير قابل للتحديد من المادة غير الشعورية التي لها صلة بكلية النفس»، ومن أولى العبارات التي حفظناها في طفولتنا بدرس الرياضة البدنيّة أنّ «العقل السليم في الجسم السليم» وهي تشير للترابط بين التفكير الصحيح، والبناء الجسماني السليم، وإذا ضمنّا صحّة البدن والنفس، سنضمن صحّة المجتمع، كون الفرد عضوا من المجتمع، وللمشكلات الفرديّة أثرها السلبي وانعكاساتها على صّحة المجتمع، والأفراد، وكلّنا نعرف أهمّيّة الجانب النفسي، في مقاومة الأمراض، بل إن الكثير من الأمراض أسبابها نفسيّة، وقديما قال ابن سينا: «الوهم نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر أول خطوات الشفاء»، وهذا يفسّر لنا كثرة المشاكل التي ظهرت في العالم في الآونة الأخيرة. يقول ستيفين تايلور مؤلف كتاب «علم نفس الأوبئة» وأستاذ علم النفس بجامعة بريتيش كولومبيا، أن ما يتراوح بين 10 إلى 15 في المئة من الناس، لن تعود حياتهم كسابق عهدها بسبب تأثير الجائحة على صحتهم النفسية، جاء ذلك في تقرير نشرته (بي بي سي) بموقعها في 3 نوفمبر 2020، مؤكّدة أن مجموعة من المختصين الصحيّين البارزين حذّرت من أن «آثار الجائحة على الصحة النفسية من المرجح أن تبقى لفترة أطول مقارنة بآثارها على الصحة البدنية»، فالتوتّر النفسي ألقى ظلاله على الحياة الاجتماعيّة، وظهرت سلوكيّات لم تعرفها

مجتمعاتنا من قبل، وكثرة الضغوطات النفسيّة تؤدّي إلى الإنفجار، وهذا عواقبه وخيمة لاتقلّ خطورة عن الآثار المدمّرة التي تخلّفها الحروب. يقول د. حاتم الصكر: «أكثر ما جلبته الجائحة هذا التوتر النفسي الذي أظهر ما في أعماق بعض البشر من أنانية وأُثرة، وتعدى ذلك الأفراد ليعمَّ الحكومات. دول (عظمى) متحضرة في أسلوب حياتها، ها هي تتصارع من أجل الاستحواذ على المواد الطبية اللازمة في هذه الأزمة الإنسانية الكبرى، وهي في هذه المعركة الإنسانية التراجيدية، ووسط الأرقام المخيفة للضحايا حول العالم، ستترك للذاكرة والتاريخ أبشع الأمثلة ولا شك أن الدروس ستكون عميقة وثرية». ومن هنا ينبغي الحذر، والحفاظ على التماسك المجتمعي الذي حفرت آليّات التباعد الاجتماعي فجوات في بنيانه، لنتجاوز بيسر الجائحة الحاليّة والتالية!

الجواز الأخضر في الوباء الأسود!

ربّما بكينا لكنّنا الآن نريد أن نعيش
تماما كما كنّا من قبل
شكرا للّقاح.

من إعلان نشرته الحكومة التشيكية
تشجيعا لمواطنيها لأخذ اللقاح

في الشهور الأولى من تفشّي الجائحة، اتّجهت أنظار العالم نحو مختبرات صنع الأدوية وعقول العلماء المشتغلين بها لإنتاج اللقاح، ورغم أن العديد منها أخفقت لكن العلماء لم يتوقّفوا عن إجراء تجاربهم، والوصول إلى حلمهم الذي أسعد البشريّة جمعاء، ذلك أنّ «الفشل هو التجربة التي تسبق النجاح» كما قال طاغور، فبعد جهود مضنية، وتجارب طبّقوها على مئات المتطوّعين، نجح العلم، وحقّق العلماء مبتغاهم، وأسعدوا البشرية عندما أذاعوا خبر توصّلهم لإنتاج اللقاح. وقد رافق التوصل إلى اللقاح أنشطة متعدّدة في العالم، إذ قدّم شباب متطوّعون في أمريكا فعاليّات ترفيهيّة، لتحفيز، وتشجيع الفريق الطبي على أداء عمله والقادمين للتطعيم، وكم سعدت عندما شاهدت واستمعت لأغنية من العراق الذي سجّل تدنّيا في نسبة أخذ اللقاح وصلت إلى (5٪) تحفّز على

أخذ اللقاح حملت عنوان (هيّا لقّح) كتب كلماتها، وأدّاها مرتضى علي، بالاشتراك مع ديفا بإشراف: حسين علي عيال، والأغنية جهد شبابي توعوي تطوّعي، قام به فريق ساءه عدم إقبال الناس على أخذ اللقاح، إلى جانب مبادرات تطوّعية شبابيّة عمانيّة، وعربية كثيرة.

ويواصل الاتحاد الأوروبي العمل على إطلاق «جواز السفر الأخضر» الإلكتروني الذي لا يحمله سوى الذين تلقوا اللقاحات المضادة لـ(كورونا)، ويسهّل لمن يحوزه التنقل داخل الاتحاد الأوروبي وخارجه، ليصبح التعاطي مع اللقاح واقعا تفرضه دول العالم المتقدّم لتنظيم عمليّة السفر وعلى الفور، سارعت السلطنة إلى الحصول عليه، لتكون الدولة العربية السادسة التي تتخذ الخطوة ذاتها، بدعم وتوجيهات جلالة السلطان المعظم هيثم بن طارق آل سعيد -حفظه الله ورعاه-، وعلى المستوى العالمي كانت السلطنة من بين 42 دولة حصلت على اللقاح، كما أعلن معالي وزير الصحة د. أحمد السعيدي، في 13 يناير 2021. ولم تكن الفرحة لدى الجمهور العريض في بلداننا كتلك التي في العالم المتقدّم! فالكثيرون في بلداننا لم يتقبلوه بل وحاربوه بصيغ وأشكال، مثلما حارب الأسلاف المبتكرات العلميّة في بداية ظهورها، واعتبروها «رجسا من عمل الشيطان»! محذّرين من مضاعفات يمكن أن يسببها التطعيم، بل أن البعض أدخله في حقل المحرمات.

ومن المؤسف إنّني، حين توجّهت لمركز الوطيّة الصحي للتطعيم، فوجئت بأن معظم الذين حضروا للتطعيم كانوا من الأجانب، في الوقت

الذي يحلم مواطنو دول عديدة بوصول اللقاح إلى بلدانهم! وحين سُئلت عن شعوري بعد أخذ اللقاح قلت: كلّ الذي أحسست به أنني صرت أكثر اطمئنانا منذ تفشّي الجائحة، وقد أثبتت الأيّام بطلان ادعاءاتهم، وصواب ما أنتجه العقل البشري من مبتكرات وظّفت لصالح البشريّة. ومن المؤسف أنّ هذه الهجمة أحدثت أثرا في نفوس الناس، فجعلتهم يحجمون عن أخذها، وشمل ذلك شرائح يفترض أن تكون من أوائل من يشجّع الناس على ذلك، لذا استغربت سؤال أحد الفنانين: «ماهذا اللقاح الذي لايضيف للإنسان مناعة على مناعته، بل يضعفها بعد الجرعه الثانية؟»، وهذا أمر طبيعي يعرفه المختصون العارفون بآليّات اشتغال هذه اللقاحات التي أنفقت دولنا أموالا طائلة لشرائها من مختبرات ومصانع الأدويّة. وقبل ذلك بذل العلماء جهودا مضنية، من أجل التوصّل إلى إنتاجها، وقاموا قبل اعتماده بتجربته على آلاف المتطوعين، للتأكد من فاعليته وسلامة المطعوم من المضاعفات المحتملة، ومن ثمّ طرحه في الأسواق العالمية للأدوية.

ومنذ بدء حملات التطعيم جرى تطعيم الملايين، ولم نسمع بمضاعفات إلّا عبر مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن ننفي شعور المطعوم بآثار جانبية في الساعات الأولى من التطعيم، ثم لا تلبث أن تزول كما جرى معي عندما تلقيت الجرعة الأولى من اللقاح.

وقد ازدادت هذه الحملة بعد وفاة الفنان الكويتي مشاري البلام إثر تلقيه اللقاح المضاد للفيروس، لكن وزارة الصحة الكويتية نفت ذلك،

كما أكّد عضو لجنة اللقاحات بوزارة الصحة الكويتية د. خالد السعيد ذلك، واعتبرها من «الشائعات»، وقال: «إن اللقاح ليست له علاقة بالإصابة بالفيروس، مؤكّدا في الوقت ذاته أنه آمن وفعال». ونقلت صحيفة الأنباء الكويتية، قوله: «لو كل شخص أخذ اللقاح، وأصيب بفيروس كورونا لوجدنا مئات الآلاف من الإصابات والوفيات حول العالم، ذلك أنّ هناك أكثر من 200 مليون شخص حول العالم أخذوا اللقاحات المضادة لـ «كوفيد-19 » مؤكدا أن «كورونا هي «القاتلة» وليس (اللقاح)»، والغريب أن صحيفة عربيّة نشرت على صفحتها الأولى خبر وفاة المفكّر خير الله حسيب عن 92سنة بعد تلقّيه «الجرعة الثانية من اللقاح المضاد لكورونا» في بيروت! وهذا الخبر ليس دقيقا، ولم تتحرّ الصحيفة عنه قبل نشره إنّ المجانية في نقل الأخبار من شأنها أن تثير بلبلة في الأوساط العلميّة والطبية العالمية، خصوصا أنها لم تدعم تشخيص سبب الوفاة بإثباتات، وتأكيدات، والذي يحزّ بالنفس، أنّ دولنا أنفقت أموالا طائلة لشرائها من مختبرات ومصانع الأدويّة، وقبل ذلك بذل العلماء جهودا مضنية من أجل التوصّل إلى إنتاجها، وقاموا قبل اعتماده بتجربته على آلاف المتطوعين للتأكد من فاعليته وسلامة المطعوم من المضاعفات المحتملة، ومن ثمّ طرحه في الأسواق العالمية للأدوية.

ومنذ بدء حملات التطعيم جرى تطعيم الملايين، ولم نسمع بمضاعفات إلّا عبر مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن ننفي شعور الشخص الذي يتلقى المطعوم بآثار جانبية في الساعات الأولى من

التطعيم، ثم لا تلبث أن تزول كما جرى معي بعد أن تلقّيت الجرعة الأولى من لقاح (أسترازينيكا).

فكان «الفَرَج بعد شدّة» ولنتمثل قول الشاعر:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

ويوما بعد آخر، أثبت اللقاح فاعليته، ونجح في تقليل الإصابات أمّا طلب الأطباء من متلقي المطعوم مراعاة العادات الصحية، وارتداء الكمامات، فهو من باب الوقاية وعدم الركون للقاح، وتجنب العادات الغذائية التي تضعف المناعة. والواضح أن هناك جهات أزعجها أن الاصابات بدأت تخفّ، واللقاحات فعّالة، لذا بدأت بشنّ هذه الحملة المضادة، والخاسر فينا الذي يصغي لتلك الأصوات النافرة، ففي النهاية سيكون اللقاح جواز مرور إلى حياة آمنة من الجائحة.

العودة إلى «أبي البحر»!

العالم مثل الكتاب، وأولئك الذين لا يسافرون يقرؤون صفحة واحدة فقط.

القديس أوغسطين

بعد حوالي عام ونصف من توقّفي عن الذهاب إلى المطار، جهّزت حقيبتي التي علاها عليها الغبار، وتوجهت برفقة د. محمود السليمي، والكاتبة أزهار أحمد لزيارة فرع النادي الثقافي في محافظة مسندم للقاء مسؤولي المؤسسات الثقافية، ومثقفي المحافظة التي زرتها أكثر من مرة بمناسبات ثقافية مختلفة، كانت أوّلها خلال مشاركتي عضوا في لجنة تحكيم الملتقى الأدبي الذي كانت كلّ دورة من دوراته تقام في محافظة من محافظات السلطنة، تبعتها زيارات ومع دخولنا مطار مسقط الدولي، رأينا أنّ الحركة بدأت تدبّ فيه رغم قلّة المسافرين وكثرة اللوائح التي تذكّر المسافرين بضرورة المحافظة على مسافة الأمان بين المسافرين. تذكرت نصّا لصديقي الشاعر فضل خلف جبر يقول فيه: «تمرُّ الوجوهُ، فرادى وجماعاتٍ تحملُ أسرارَها وتتلاشى في المجهولِ، وتحملنُي معَها في طيّةِ كتابٍ أو ثنيةِ قميصٍ مبتلٍّ بنعاسِ السفرِ»، وقد خرجنا على التقيد بالإجراءات الواجب اتّباعها، منذ بداية دخولنا المطار حتّى وصولنا إلى الطائرة التي كانت مليئة بالمسافرين المتوجّهين إلى (مسندم) التي

تراجعت فيها أعداد الإصابات حتى بلغت الصفر، للاستماع بطبيعتها التي تمتاز بالتنوّع البيئي، والشواطئ الصخريّة التي تتهادى عند أقدامها المياه الرقراقة، وهي تلوذ بحواف الجبال، ثم تندفع نحو الأخوار على ايقاعات الأمواج الهادرة، وليس انتهاء بالمناطق المحيطة التي لا تقل جمالا وروعة عنها، ومعالمها السياحيّة والأثرية، وحكاياتها وأساطيرها المحفورة على صخور جبالها الشمّاء، بدءا من مركز المحافظة، ولاية خصب ذات الجمال الآسر.

مع وصولنا إلى مطار خصب، تعرّفت على مجموعة من الشباب النشطاء بمواقع التواصل الاجتماعي، وعلى رأسهم الإعلامي محمّد المخيني الذي نجا من إصابته بـ(كورونا) بأعجوبة، بعد أن أمضى أيّاما في غرفة العناية المركّزة، فحمدت الله على سلامته، وسألته عن زيارته، فعرفت أنّها لتعريف المتابعين بالمواقع السياحيّة العمانية ترويجا للسياحة التي تضرّرت بعد حلول الجائحة، وبدأ زيارته بالتوجّه للبحر الذي يشكّل مع الجبال أبرز علامتين في مسندم.

ولن أنسى رحلة بحريّة كانت ضمن البرنامج المقرّر لواحدة من مشاركاتي الثقافيّة، وفيها أمضينا وقتا ممتعا على متن السفينة البحرية السلطانية العمانية التي كانت تشقّ الأمواج، وعلى جوانبها تتراقص الدلافين، حتى بلغنا محطّتنا الأخيرة، مضيق هرمز، أحد أهمّ الممرّات المائية في العالم. لم يكن الوصول إلى المضيق المحاط بالجبال والصخور بالأمر اليسير، لصخب الأمواج، وتعرّجات الطريق البحري الذي يمرّ بالعديد من الجزر، ومن بينها جزيرة «أمّ الغنم» التي اكتسبت

تسميتها من كونها كانت مرعى للأغنام في الجزيرة المعزولة الآمنة البعيدة عن هجمات الحيوانات المفترسة ولاحت لنا جزيرة «سلّامة وبناتها» التي ارتبطت بحكايات شعبيّة تتحدّث عن (سلامة) التي تبحث عن أزواج لبناتها الساكنات في قاع البحر، فتقوم باختطاف البحّارة، كما ورد في المتن الحكائي الخرافي، لكنّ ألسنة الوقائع تقول كلاما آخر، فبلوغ الجزيرة يعني فرحة كبيرة للبحّارة، لأنّها بشارة خير تعني وصولهم إلى منطقة الأمان و(سلامة) العودة، فتزول الشدّة، وابتعادهم عن كلّ ما يخبئ البحر من أخطار، فكثيرا ما يواجه البحّارة مثل هذه الأخطار، حتى إن المخيلة نسجت حكايات عديدة من بينها حكاية (بابا دريا)؛ أي: أبو البحر التي تقول إنّ هذا الكائن الخرافي اعتاد الخروج للبحارة في عرض البحر، محاولا امساكهم، واعتاد البحّارة، كما ورد في الحكاية، أن يربطوا حبلا حول خصورهم، فإذا كان قويًا فإن (بابا دريا) سيتمكّن من سحب البحّار إلى الماء، أمّا إذا كان الحبل ضعيفا، فإنه ينقطع، فينجو في تلك الرحلة. لم أشعر أننا في مضيق، بل في مكان يتّسع، وكنّا كلّما نتوغّل به، ينفتح على عوالم مضمّخة بالدهشة، فانثالت الرؤى، والتساؤلات:

زهرة الرؤيا التي روّيتُها
من عروقي
مطرَ الضوءِ الوريقْ
كيف جفّتْ
وذوتْ
وانقبضتْ

زمنًا
واتّسعتْ
عند (المضيق)؟

ومسندم ليست فقط جغرافيا آسرة، بل تاريخ موغل في القدم. في نوفمبر 2013 أعلن عن العثور على كتابة مسمارية تعود لحضارة بلاد الرافدين، وكانت الأولى من نوعها التي تكتشف خلال التنقيبات الأثريّة التي قامت بها وزارة التراث والسياحة في موقع الدير بمسندم، وجاءت لتؤكد وجود تواصل وتبادل تجاري وهجرات قديمة وصلات عميقة الجذور بين شعوب منطقة الخليج منذ فجر التاريخ.

وخلال مشاركتي بمهرجان الشعر العماني في دورته الحادية عشرة التي الذي أقيمت في الفترة من 16 حتى 20 ديسمبر 2018، تجدّدت عرى المودة، التي لم تفصمها الجائحة.

لقد استرجعت تلك التفاصيل، رغم أن المكان حصلت به تغييرات عمرانية، لكنها ظلّت محفورة، وستظلّ قائمة مع حالة التطوير التي تشهدها المحافظة.

وإذا كانت حكاية (بابا دريا) الخرافيّة، تقول بأنّ (أبا البحر) لا يظهر للشخص سوى مرّة واحدة في حياته، فإذا نجا البحار منه فإنه لا يعود إليه مرة أخرى، لكنني عدت مرّات أخرى إلى (مسندم)، فمن يمرّ بها سيجد نفسه مشدودا بحبال خفية إليها، مأخوذا بجمال صخورها، وجبالها، ومياهها، وحكاياتها، ورقصات دلافينها التي تؤديها بانتشاء، وسعادتنا بالعودة التدريجيّة للحياة الطبيعيّة، والسفر.

وأنا أيضا أصفّق لـ«سارة»!

في قاعة البولوتكنيك التي حضرتها بصحبة مايكوفسكي، قرأت شيئا من شعري لأول مرة أمام الجمهور، كنت في التاسعة عشرة من عمري، مرتعبا من قراءة شعري باللغة التركية، لذا لم يفهم الجمهور شيئا لكنه صفق لي بحرارة، وكان ذلك أول تصفيق لي بموسكو.

ناظم حكمت، من مذكراته

في مرحلتنا الدراسيّة الابتدائية، عندما كنّا نجيب عن سؤال يعجز عنه زملاؤنا، فإنّ أقصى ما كنّا نطمح إليه هو تصفيق أقراننا من التلاميذ في الفصل الدراسي يظلّ يرنّ في أذاننا حتى نهاية اليوم المدرسي وحين نعود نحمله معنا إلى بيوتنا، لتكتمل فرحة الأهل بالتصفيق الذي لا يكلّف سوى تحريك اليدين، وتلامس باطني الكفين، لكنّه يعني لنا يومئذ الكثير، كونه يمنحنا شعورا لا يوصف بالامتلاء والرضا عن الذات، فالتصفيق إشارة ذات دلالة تعني أننا تفوّقنا في واجبنا.

بعد سنوات، كبرنا، وكبر التصفيق الذي انتقل معنا إلى قاعات المسارح، ودور السينما، والملاعب الرياضيّة، والمراكز الثقافيّة، وتعدّدت دلالاته واتّسعت، وهنا ينبغي التمييز بين التصفيق العفوي التلقائي النابع من القلب، والتصفيق المفتعل والمزيّف الذي له غايات دعائية وتضليلية، كالذي يصدر

من «جوقة المصفّقين» التي تقوم بدعم عرض مسرحي لقاء مبلغ من المال، وقد ظهرت بادئ الأمر في فرنسا في القرن السابع عشر مصاحبا التنافس بين الفرق المسرحية، والممثلين، والمخرجين!

الذي أتحدّث عنه التصفيق العفوي الذي يدلّ على استحسان الجمهور وإعجابه، فيشعر المصفّق له بتقدير المحيط، لذا، فأنا أدرك تماما شعور سارة جيلبريت رئيس الفريق الذي صنع لقاح (استرازينيكا) ضد كورونا، عندما جوبه حضورها في ملعب ببريطانيا بالتصفيق الحار الذي دام طويلا، كما شاهدت في مقطع فيديو، فاستحضرت قول المتنبي:

ذي المَعالي فَليَعْلُوَن مَن تَعالى   هَكَذا هَكَذا وَإِلا فَلا لا
شَرَفٌ يَنطِحُ النُجومَ بِرَوقيهِ   وَعِزٌّ يُقَلقِلُ الأَجبالا

فعندما يصفّق جمهور ملعب لعالِم صنع منجزا طبيّا يخدم البشريّة جمعاء، فهذا يعني الكثير، فالمجتمع بأكمله يدين بالفضل له، ولمنجزه، وهذا يعطيه دافعيّة، وحافزا لتقديم المزيد.

ذات يوم حدّثني الشاعر عيسى حسن الياسري، قال إنه زار مدينة في بلغاريا مطلع الثمانينيات، وشاهد في حديقة عامة تمثالا لصبي لم يبلغ العاشرة من العمر، وجواره يلعب الصبيان الكرة، فتساءل الياسري عن الشيء الذي فعله هذا الصبي لكي تضع بلدية بوخارست تمثالا له، فاجابوا على تساؤله: كانت له محاولات في كتابة الشعر واعدة ولكن القدر لم يمهله، «فسألهم ثانية: وما العبرة من ذلك؟ أجابوا: انظر إلى الأولاد الذين يلعبون جوار التمثال، هؤلاء أصدقاؤه، وزملاؤه في المدرسة، وقد وضعنا التمثال لتحفيزهم، وزرع في نفس

كلّ واحد منهم رغبة أن ننصب له تمثالا وسط هذه الحديقة، من خلال تقديم عمل يخدم المجتمع، فيستحق التمثال!

ولنقارن هذا بمنشور للإعلامي السعودي ميسّر الشمّري، وضع به صورتين لشاعر عراقي حصل على جائزة أدبية في القاهرة مؤخّرا، بينما يمارس عمله في «شركة نظافة» بالسويد، كما توضّح الصورتان المرفقتان بمنشوره الذي يصحبه بتعليق مكتوب بعبارات تفيض مرارة، هو: «ربما أراد هذا الشاعر من خلال عمله في تنظيف الشوارع، والمباني في مالمو بجنوب السويد، أن يقول إنّه يعمل على تنظيف روحه من أمته التي لم تقدّر منجزه الأدبي».

المشكلة عندنا أنّ الطفل يولد عبقريا، بمعنى يحمل بذور العبقرية، ثمّ يصطدم بالواقع الذي يضع المطبّات في طريقه، وشيئا فشيئا تتراجع قدراته وأحلامه، ويصير ما هو عليه لخلل في تربية المجتمع وإهماله، لذا، ربما يصبّ جام غضبه عليه، باعتباره الصخرة التي تحطمت عليها أحلامه، وإرادته، فيتحول إلى عدو للمجتمع. يقول الكاتب الروسي مكسيم غوركي: «أذكر أنهم كلهم أرادوا أن يصبحوا أطباء أو رواد فضاء في صغرهم، يا إلهي.. من أين خرج لنا كل هذا الشر؟! من أين خرج كل هؤلاء القتلة والشياطين؟!».

التشجيع والتحفيز ضروريان، فالإنسان «يبحث عن تقدير المجتمع؛ فإن كان المجتمع يقدّر رجال الدين كثُر المتدينون، وإن كان المجتمع يقدّر اللص كثُر اللصوص»، كما يقول عالم الاجتماع د. علي الوردي، لكننا اليوم، للأسف الشديد، صرنا نقدّر الجهلة، ونهمل العلماء، فتراجع العلم، لذا من الطبيعي أن تتّجه أنظارنا بعد تفشّي الجائحة إلى العالم المتقدّم الذي يقف إجلالا، وتقديرا، محييا، ومصفّقا لعالِمة، قدّمت منجزا طبّيّا، كسارة جيلبريت.

جرعة ثانية من الأمل

يا قلب... لا تفقد الأمل، فالمعجزات تختبئ في ما لا نراه.

شمس الدين التبريزي

حين توجّهت، لأخذ الجرعة الثانية من اللقاح المضاد لكورونا، شاهدت الطابور الطويل الذي يقف أمام الموقع، وفي الوقت الذي أزعجني أنني مضطر للوقوف في طابور طويل، للوهلة الأولى، وقد جبلت على كره الانتظار، والوقوف في الطوابير، أفرحني إقبال المواطنين والمقيمين على حدّ سواء على أخذ اللقاح. هذا الإقبال أعادني إلى أواخر الستينيات، عندما كانت أعداد غفيرة من الناس البسطاء يتوجّهون للمراكز المخصصة لأخذ التطعيم ضدّ الأوبئة التي كانت تنتشر بين وقت وآخر، كالكوليرا، والسل الرئوي، يومها لم تكن وسائل الإعلام بهذا الزخم، لكن هناك ثقة متبادلة بين الناس، والجهات المسؤولة عن الصحة. حين انهارت تلك الثقة حدثت بلبلة، سمحت بنشر الإشاعات، رغم تأكيدات معالي وزير الصحّة أنّ «السلطنة لن تقبل أيّ تطعيم إلّا بعد التأكّد من مأمونيّته». يومها، انطلقت حملات تثقيفية، انتشرت عبر وسائل الإعلام القديم، والجديد، فنجحت في توجيه الرأي العام، الوجهة الصحيحة، وتعديل المسار، وإعادة الثقة باللقاح التي تنفق الدول مبالغ طائلة لتوفيره لمواطنيها بدون مقابل، شاركت في تلك الحملات شخصيّات عامّة مؤثّرة، نصحت عبر الكلمة والصورة ومقاطع الفيديو بأخذ اللقاح، وإعادة

الثقة اللازمة من أجل الخروج من النفق، وكذلك القناعة الذاتية بأنّ الحل يكمن في اللقاح بعد ارتفاع الإصابات والوفيات مجدّدا، واستمرار حالة الركود في مرافق الحياة العامّة بأنشطتها المختلفة، وعدم تمكن المجتمع الدولي من السيطرة على الوباء، لذا أعاد البعض النظر في نظرته للقاح.

لقد اختلفت الصورة التي رأيتها وأنا أقف في طابور طويل، كان رقمي (768) ولكم تخيّل العدد، عن الوضع الذي كان قبل شهرين، عندما توجّهت للمستوصف لأخذ الجرعة الأولى من اللقاح، وسط دهشة، واستنكار العديد من الأصدقاء، لذا لم أستغرب، يومها، حين رأيت العدد القليل من الذين قدموا لأخذه، ومعظمهم من المقيمين، بسبب تردّد الكثيرين، مع وضع هوامش عديدة لمن لا يناسب اللقاح أجسامهم، بسبب وجود مشاكل في الجهاز المناعي، وكذلك الأطفال، وهذا الأمر نتفهمه، لكنّ تردّد البعض كان نتيجة لانتشار معلومات غير صحيحة وقصص مفبركة، وهناك من ذهب بعيدا، ورأى أن ظاهر اللقاح ضد كورونا، أما باطنه فهناك أهداف خفية، بما يندرج ضمن نظرية المؤامرة التي نكّدت علينا حياتنا. ومن الطبيعي أن كلّ جديد يواجه بالرفض والمقاومة، مع علمنا أن هناك من هو ثابت على موقفه الرافض لأخذ اللقاح ولم يتزحزح، رغم أن منظمة الصحة العالمية التي شبهت ذات يوم كورونا بـ«نار جهنم وهي تفور» قالت قبل حوالي شهر إن نهاية الوباء مرهونة بتنفيذ ثلاثة نقاط أساسية، كما نقل د. عامر هشام الصفّار، وهذه النقاط هي: توفير اللقاح المضاد، ومراعاة مبدأ العدل في توزيعه على الدول، رغم التفاوت في قدراتها على التمويل، والإلتزام بالتدابير الوقائية مع تلقي اللقاح. وكما نرى، ورد ذكر مفردة (اللقاح) في النقاط الثلاثة، فلا حل سواه، مع وضع

النقطة الثالثة في الاعتبار، فاللقاح لا يملك العصا السحريّة التي تطوي صفحة الفيروس، لكنه عامل مهم في الحدّ من أضراره، وانتشاره.

وما دام قد جرى تطعيم شريحة من المواطنين، والمقيمين، فهذا يعني أنّ الأمر الأوّل تحقّق، مع ضرورة مواجهة الشائعات التي تجعل البعض متردّدا في التطعيم، أمّا الثاني فهو دولي، يتعلّق بالسياسات الخارجيّة للدول، فجائحة دولية وحرب وبائيّة كهذه لا تعمل على مكافحتها وزارات الصحّة فقط، بل تشترك في وضع خطط القضاء عليها عدّة وزارات ومنها الخارجية، فالقضاء على الفيروس يحتاج تضامنا دوليّا، والحدُّ من انتشاره في مكان معين لا يعني القضاء عليه، ما دام يجد حواضن في مناطق أخرى من العالم! أمّا الأمر الثالث، فبعد مرور عام ونصف من الجائحة صارت الإجراءات الواجب اتّباعها واضحة ومعروفة من قبل الكثيرين، حفاظا على السلامة الشخصية والعامّة، ولا داعي لتكرارها، وأبرزها الالتزام بالتباعد، وتقليل الحركة، والزيارات العائليّة، وكذلك تناول الغذاء الصحي، وممارسة الرياضة، ومراعاة الجوانب النفسية، والإقلال من التوتّر والقلق، لأن ذلك يؤثّر على المناعة.

ودون تكاتف الجميع ستبقى الجائحة تسرح وتمرح، فيما سنظل قابعين في البيوت، نتابع أرقام الإصابات التي صارت تناطح الألفيّة في كلّ يوم، بل وتتجاوزها!

فإذا التزمنا بكلّ ذلك نستطيع أن نحلم بنهاية الوباء، و:

عسى الأيام أن يرجعن قومًا كالذي كانوا!

(كورونا) ووجه العالم

حينما تستيقظ في الصباح، تأمل كم غالية هي هبة الحياة، فتتنفس، وتفكر، وتستمتع، وتحبّ!

ماركوس أوريليوس

في يوم 7 أكتوبر 2020، وضمن ملف تحت عنوان «كورونا ووجه العالم» سألني الإعلامي المصري السيد حسين:

- كيف ترى وضع البشرية في ظلّ هذه الجائحة التي تجتاح العالم من مشرقه إلى مغربه، ومن شماله إلى جنوبه؟

– كلنا نعرف أن عالم اليوم، ليس عالم الأمس، نحن نشهد ولادة عالم جديد، يقوم على التباعد بدلا من التقارب، وعلى فقدان الأمن والخوف من المجهول بدلا من الشعور بالاطمئنان، والانكفاء على الذات بدلا من الإنشغال بالخارج، وتكريس الوحدة بدلا من الاندماج بالمجموع، والتلويح لبعضنا البعض عن بعد، بدلا من المصافحات والقبل والعناق. هذا العالم ستظهر ملامحه بشكل أوضح لاحقا، وبشكل تدريجي، وأتمنى ألّا أكون مبالغا لو قلت إنّ البشرية اليوم تعيش حالة من الذهول، فالفيروس الصغير الذي لا يُرى بالعين المجرّدة فعل مالم يفعله السلاح النووي، ولا القنبلة الذرية، ولا الصواريخ، ولا الطائرات العملاقة، ولا السفن الحربية ومن هنا تأتي قوّة الصدمة التي تلقّاها العالم في عصر تجبّر به الإنسان وتكبّر، وجاء هذا الفيروس ليضع حدّا لغروره وتجبره.

البشرية اليوم في حالة أقرب ماتكون للشلل، فالجميع يلازم البيوت، ولا يخرج إلّا للضرورات، والسفر صار محدودا جدا، والأنشطة توقفت تقريبا، سوى عبر (الأون لاين)، والمستشفيات تغصّ بالمرضى، والكمامات صارت جزءا من شكل الوجه البشري، والقلق يسيطر على الجميع!

وقلّ الزحام البشري في الشوارع التي بدت مقفرة من المارة، والسيارات!

- جائحة كورونا غيّرت العالم، كيف تعاملت معها؟

– وهل لمثلي ملاذ في مثل هذه الظروف آخر سوى القراءة والكتابة؟

لقد أتاحت الجائحة لي فرصة العودة إلى الذات ومراجعتها، والركون إلى عزلة لا تكسرها سوى وسائل التواصل الاجتماعي، وبذلك يمكن اعتبارها ليست كاملة، ومع توقفي عن السفر، وفي السنوات الأخيرة صرت كثير السفر والمشاركات الخارجية، فانصرفتُ للكتابة بوتيرة عالية.

- هل ستعتقد أنه سيكون هناك أدب اسمه «أدب كورونا»؟

– هذا من السابق لأوانه، كنا خلال الحرب العراقية الإيرانية نسمع الكثير من التساؤلات التي تُثار حول أدب الحرب، في ظرف كان نموذج الأدب المطروح يندرج ضمن خانة التعبئة للحرب، لكن ملامح الحرب الحقيقية ظهرت بعد مرور سنوات عليها من خلال آثارها والندوب التي رسمتها على الذاكرة، والقلوب، لذا لايمكن التكهّن بذلك في الوقت الحاضر ما دمنا نعيش ظروف الجائحة.

- ما الأفكار التي تشغلك في ظل الجائحة الضارية؟

- السؤال الذي يشغلني اليوم: كيف سيكون شكل الحياة بعد انحسار الجائحة؟ هل سنعود إلى ما كنا عليه قبلها؟ هل سيجعلنا الفيروس أكثر إنسانية؟ هل سيغيّر من طبائعنا؟ هل سننسى كلّ الدروس ونكرّر أخطاءنا؟ والمرعب أن ياتي الجواب على السؤال الأخير ب: نعم!

- هل تنتظر أدبا عظيما يتخلق من رحم اللحظة؟

- كل الهزّات الكبرى في تاريخ البشرية، من حروب، وكوارث طبيعية، وصراعات، ومجاعات، تركت أثرها على الأدب، وليس من المستبعد أن تترك الجائحة أثرها على الأدب، ويظهر أدب عظيم ما دمنا نعيش حدثا كونيّا.

- على المستوى الشخصي، كيف تأثرت حياتك اليومية من جراء ما حدث؟ وما استجد على العالم من تبعات؟

- مع بدء الحجر المنزلي انسحبت للداخل، وبدلا من السفر من مكان إلى آخر صار سفري إلى عوالم الذات والروح، فتحررت من الزوائد، وصار تركيزي على الأساسي والجوهري في الحياة، وبدأت بفرز الهام في الحياة عن الكمالي والعابر، والأصدقاء عن المعارف. جعلتني الجائحة أعيد النظر في أمور كثيرة بحياتي، والاعتماد على النفس في تسييرها في غياب من يساعدني من الأصدقاء، وأحيانا العمال الذين يقومون بتقديم الخدمات، وكنت في كل الظروف أستحضر قول الشابي:

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما   في كفها الغار أو في كفها العدم

ثورات، وحروب، وعالم يتداعى..

ليس باستطاعة أي جيش أن يعتقل
فكرة عندما تبزغ في وقتها المناسب.
فيكتور هيجو

في الشهور الأولى، من تفشّي الجائحة، وقف الإنسان عاجزا بكلّ إنجازاته في مجال العلم والطب، وظلّ يتلقى ضربات فيروس وحيد الخلية لا يرى بالعين المجرّدة، مصيبا غروره وجبروته بمقتل!! وازدادت الأزمات الاقتصادية بسبب إغلاق الأنشطة، والنفسية بسبب الحجر المنزلي، حتى إن الشرطة اليابانية أصدرت بيانات تظهر ارتفاع معدلات الانتحار «في أعلى حصيلة تشهدها البلاد منذ خمسة أعوام» كما نقلت الوكالات يوم13 نوفمبر2020! وفي كلّ يوم تتزايد أرقام الإصابات في العالم. وبحسب إحصاء وكالة رويترز، اعتمادا على بيانات وزارات الصحّة، والمسؤولين الحكوميين، أصيب بالوباء منذ ديسمبر 2019 لغاية يوم14/ 8 / 2021، 207ملايين و258 ألفا و شخصا 183 في 210 دولة، ووصل إجمالي عدد الوفيات الناتجة عن الفيروس إلى 4 ملايين و363 ألفا و256 وفاة، والأعداد في تزايد، أمّا عدد الملقّحين، فقد بلغ 2 مليار و420 مليونا و346 ألفا و11 شخصا!

لكنّ الإنسان في النهاية انتصر، وتوصّل للقاح، وهناك جوانب أخرى يجب عدم إغفالها، لعلّ في مقدّمتها ما أكّده علماء الرصد الجوّي من أن تحسّنا طرأ على طبقة الأوزون «وإن أكبر ثقب للأوزون في القطب الشمالي ينغلق أخيرا بفعل قلة الاحتباس الحراري الذي نتج عن إغلاق آلاف المصانع، والتلوث البيئي الذي قلّ بنسبة 90٪» مشيرين أنه «بعد 4 شهور من كورونا فقط، عادت الأرض لمثل ما كانت قبل 4 آلاف عام»، ومن الجوانب الإيجابيّة عودتنا للطبيعة، ومزاولة الرياضة، والمشي، وتخلّصنا من الزحمة، وتجنب العادات الصحية الخاطئة، ورفع مستوى الوعي الصحي، وتغذية الجانب الروحي، والمداومة على التفكير، والقراءة، ففي بريطانيا «دفع إغلاق البلاد البريطانيين إلى شراء كتب بقيمة 2. 1 مليار جنيه عام 2020 بارتفاع 7٪عن العام السابق». ومن إيجابياتها تقوية المهارات الذاتية في الجانب التقني، وتعلّم التعاطي مع البرامج والتطبيقات الحديثة، فالمنعطفات الكبرى في الحياة حدثت على امتداد التاريخ كما ذكرنا، بسبب الحروب والأوبئة، وقد عشنا منذ تفشّي جائحة (كورونا) حدثا جمع الاثنين تحت عنوان واحد هو «حرب بايولوجيّة»، فـ«على بعد مصطبة منّا، في حديقة النسيان» يقول الشاعر عدنان الصائغ: «تجلس الحرب. واضعة ساقا على ساق، تتأمّل مثلنا الطريق المضلّل بالليلك والهمسات، غير ملتفتة لنا نحن أولادها العاقّين. الفارّين منها. المنشغلين عنها»، بل قد تكون «تمرينًا على الحروب الجرثوميَّة في المستقبل» كما قال الباحث سعيد الغانمي في مقال له نشره بجريدة

(الصباح) في 10/ 4/ 2020، فهناك «قوىً، ومؤسَّساتٍ تفكِّر بالحروب المستقبليَّة في العالم، في الأغلب، فسيكون جزءٌ غير قليلٍ من حروب المستقبل متعلِّقًا بالأسلحة الإلكترونيَّة والجرثوميَّة»، ودول كبرى وراء ذلك، ولأنّ الحروب ارتبطت بالأزمات، وكذلك الثورات. ويتوقّع الباحثون حدوث ثورات بعد الجائحة بسبب ارتفاع معدّلات البطالة والتردّي الاقتصادي، ما لم تضع الحكومات معالجات سريعة تخفّف من وطأة الجائحة على حياتهم، إلى جانب حروب أخرى بدأت مؤشراتها تظهر في عالم فورأن يخرج من أزمة يدخل في أزمة أكبر، والكل سيخرج خاسرا إن لم ينظر للأمور بعين العقل والحكمة، ففي النهاية ﴿**إنّه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾.

سيرة المؤلف

- شاعر، وكاتب مسرحي.
- نائب رئيس مجلس إدارة النادي الثقافي.
- صدرت له الدواوين والكتب التالية:

– إلحاقًا بالموت السابق، بغداد، 1987.

– نجمة الليالي (للأطفال)، بغداد، 1988.

– حدادًا على ماتبقى، بغداد، 1992.

– وطن جميل (للأطفال)، بغداد، 1996.

– موجز الأخطاء، جنيف، 1999.

– جنائز معلقة، مسقط، 2000.

– شمال مدار السرطان، مدريد، 2001.

– غدًا تخرج الحرب للنزهة، صنعاء، 2004.

– الصعاليك يصطادون النجوم، مسرح، القاهرة، 2004.

– كواكب المجموعة الشخصية، القاهرة، 2004.

– ما يزال الكلام للدوسري.. بوح الحوارات، 2004.

– خذ الحكمة من سيدوري، منشورات بابل، 2006، ط2، دار شمس، القاهرة.

– مدن تئن وذكريات تغرق.. وقائع إعصار (جونو)، بيروت، 2008.

– ما وراء النص، نقد، دار شمس، القاهرة، 2009.

– خيمة فوق جبل شمس، مؤسسة الدوسري، البحرين، 2010.

– أبنية من فيروز الكلمات.. طواف على أجنحة سعيد الصقلاوي، مؤسسة الدوسري، البحرين، 2010.

- قميص مترع بالغيوم، مركز الحضارة، القاهرة، 2010.
- 14ساعة في مطار بغداد، مركز الحضارة، القاهرة، 2010.
- يوميات الحنين، إصدارات النادي الثقافي، 2011.
- راهب القصيدة عبد العزيز المقالح، مؤسسة الدوسري، 2011.
- تحولات الخطاب النصي، دار الرافد، دمشق، 2011.
- يوميات الحنين، إصدارات النادي الثقافي، 2012.
- عدنان الصائغ.. عابرا نيران الحروب إلى صقيع المنافي، مؤسسة الدوسري، 2013.
- خُطى وأمكنة، أدب رحلات، بيت الغشام، مسقط، 2013.
- على سطحنا طائر غريب، مسرح نصوص، بيت الغشام، مسقط، 2013.
- غرب المتوسط وقوافل أخرى، أدب رحلات، كنوز المعرفة، عمّان، 2014.
- صعودا إلى صبر أيّوب، شعر، دار الانتشار العربي، بيروت، 2014.
- طيور سبايكر، بغداد، 2014.
- في الثناء على ضحكتها، دار الغشام، مسقط، 2015.
- خرائط مملكة العين، إصدارات دبي الثقافية، 2015.
- قليلا من كثير عزّة، دار الغشّام، مسقط، 2016.
- ليل الأرمل، كتاب نزوى، مسقط، 2017.
- حلّاق الأشجار، مسرحيات للأطفال، دار الغشام، 2018.
- دهشة ثلاثيّة الأبعاد.. حوار وإبحار في عالم غالية آل سعيد الروائي، بيت الغشام، 2018.
- خطوط المكان ودوائر الذاكرة، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، دار مسعى، المنامة، 2019.
- حكايات تحت أشجار القرم، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2019.
- الأعمال الشعرية (مجلدان)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2019.

- **نهارات بلا تجاعيد، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، الآن ناشرون وموزعون، عـمّان، 2020.**
- **شياطين طفل الستّين، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، دار نثر، مسقط، 2021.**
- **الأعمال الشعرية (3 مجلدات)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ودار سطور، بغداد، 2021.**

- البريد الإلكتروني : Razaq2005@hotmail.com
- الحساب في تويتر وفيس بوك: عبدالرزاق الربيعي

فهرس المحتويات

مقدمة: الحوادث تتكرر والإنسان ينسى 7

في بؤبؤ العاصفة 13

قلق، وترقّب، وحذر 17

خفافيش الصين تملأ الفراغ 21

الشمع الأحمر يطال المساجد 24

فيروس الهلع والفزع 28

لا تصافح 32

قبل انهيار الذاكرة 35

معطّلون كسفينة مرسومة على سطح بحر 40

جفاف الزرع ويباس الضرع 45

خطّ الدفاع الأوّل 47

ابتسامات خلف كمّامات 51

أرقام وأسقام 58

محبسنا الجماعي، و(المحيبس) المفقود! 61

إفطار بنكهة (كورونا) 67

عيدٌ منزليّ، وكمّامات! 71

ماذا تفعل في البيت؟ 74

(أضحى) التنائي 79
غيمتان ونجمة واحدة 81
أمومة في التراب 84
(الأب)، وعيده، في الحجْر 90
تحوّلات وموازين مقلوبة 94
الرهانُ الذي علينا كسبه 97
ربيب العزلة 100
الليل يستردّ هيبته! 104
كرتنا الأرضيّة تقاوم عزلتها 108
حمّى البحث عن الرصاصة الفضّيّة 112
أعراس ومآتم 117
مراسلات وحكايات للنجاة 119
أمل يتأرجح 121
الاعتصام بالجدران 123
الداء والأصدقاء 125
رسالة إلى الشاعر عدنان الصائغ 130
ردّ الشاعر عدنان الصائغ 137
مهرب مفعم بالمسرّات 141
متاحف مهجورة 146
الرقميّة وقارب النجاة 152

فجوة في ظلّ المتغيّرات 153
سجون انفراديَّة 159
حَجْر داخل حَجْر 161
كُوى في جدار العزلة 164
عوالم افتراضيّة 167
في بيتنا مدرسة 169
هل سنشهد أفول عصر المدرسة التقليديّة؟ 170
تعليم مدمج وتحوّلات حتميّة.......................... 174
الوباء و«فلذّات أكبادنا» 178
زهورنا، وفكّ الضجر المفترس 181
حصان الشعر يواصل صهيله 184
الشعر والأوبئة... 186
طينٌ يذوبُ في حمم الجائحة 191
(كورونا) ينعش القصيدة الرقميّة 194
التداوي بالقوافي! 200
وردة على طاولة أنيقة!.................................. 204
أمصال 207
الستارة تُفتح ولو عن بُعد................................ 230
(أبو الفنون) في الفضاء الإلكتروني...................... 231
المسرح في ليلة وحشته.................................. 234

مسرحك في بيتك 237
الفن السابع يتصدّى للجائحة 239
يا زمان الوصل 241
من (ماري تيفوئيد) إلى (ماري كورونا) 244
فيروسات صديقة.. مونودراما 245
عزاءات كورونية.. 260
تسديدة موجعة لـ(كورونا) بشباكنا.......................... 262
مارادونا: حياة صاخبة وموت هادئ 266
سعود الدرمكي.. في سطوعه الأخير!.......................... 270
علامة في طريق الحوار والمحبّة 273
غياب عمّ صباحاتنا الفيروزيّة 276
ضحكة لم تغبْ! 280
ضوء خلف نافذة الظلام 284
أحلام نهاية الوباء 288
من رحم البيت إلى حضن الحياة............................. 290
تعايش مع الوباء 293
ضوضاء اجتماعيّة 296
كأنّك يا (كوفيد) ما غزيت! 299
في أحضان أمّنا الأولى.................................... 302
الورق يكسب المعركة 306

الجائحة التالية 310
الجواز الأخضر في الوباء الأسود! 314
العودة إلى «أبي البحر»! 319
وأنا أيضا أصفّق لـ«سارة»! 323
جرعة ثانية من الأمل.................................... 326
(كورونا) ووجه العالم 329
ثورات، وحروب، وعالم يتداعى......................... 332

سيرة المؤلف 335